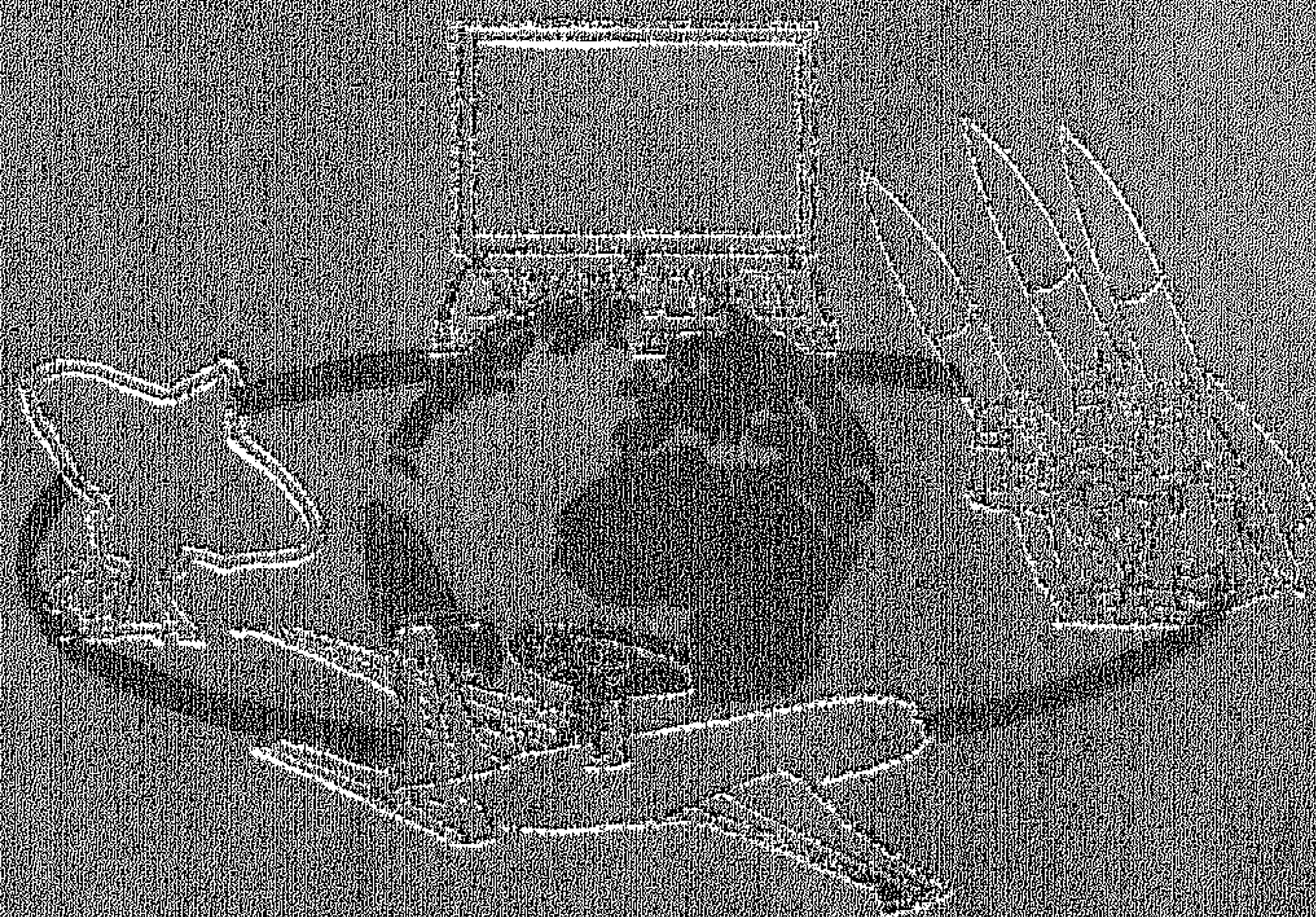
موسوعة عالم المخابرات

كل شيء عن الجاسوسية والاستخبارات في العالم



NOBILIS

موسوعة عالم المخابرات

كلُّ شيء عن الجاسوسيّة والاستخبارات في العالم

الإستخبارات السوفياتيّة (٢)

أسعَد مفرِّج

ولجنة من الباحثين

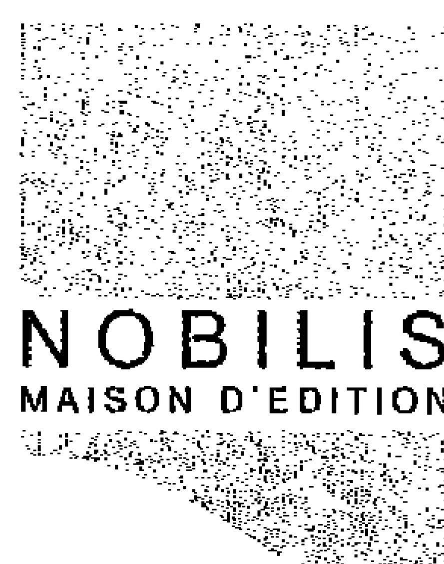
موسوعة

عالم المُخابرات

كلُّ شيء عن الجاسوسيَّة والاستخبارات في العالَم

الجزء السَّادس

الإستخبارات السُّوفياتيَّة (٢)



إسم المَجموعَة : عَالَــــــم المُخابَرات

كُلُّ شيء عن الجاسوسيَّة والاستخبارات في العالم

إسم الكِتَاب : الإستخبَارات السُّوفيَاتيَّة (٢)

الجِزء : السَّادس

المؤلَّف : أسعَد مفرِّج ولجنَة من البَاحثين

قياس الكتَاب : ٢٠ × ٢٨

مَكَان النَّشر : بيروت

دَار النَّشر والتَّوزيع : NOBILIS

تلفاكس : ٥٨١١٢١ ـ ١ ـ ٩٦١

: ٥٨١١٢١ ـ ٣ ـ ٩٦١

المخابرات الحربيَّة الروسيَّة

أنشئت إدارة المخابرات الرئيسية للأركان العامة للجيش الأحمر عام ١٩٢٠، وكانت تحتفظ بشبكة تجسس على نطاق واسع خاضعة للجيش، ويقول باحثون بأنّ أنشطتها كانت تتضمن القيام بعمليات التجسس والابتزاز والتخريب والإرهاب والتجسس الصناعي وقلب أنظمة الحكم وحرب العصابات والدعاية السياسية، وإنّ كل هذه الأعمال هي مثل تلك المهام التي كان يقوم بها جهاز المخابرات السوفياتي KGB، على أنها لا تقوم بأي مهام داخل الاتحاد السوفياتي حيث ليس من أعمالها التجسس على الشعوب السوفياتية، بل إن أفرادها يكونون تحت رقابة الـ KGB للتأكد من ولائهم التام حيث أن التقارير السلبية التي يرفعها هذا الجهاز الاستخباري ضد أي من عناصر المخابرات الحربية قد يؤدي إلى فصله من وظيفته وإعدامه.

وكان ينقسم عمل المخابرات الحربية للأغراض التنظيمية إلى مجموعتين، إحداهما للعمليات، والأخرى إدارية تعمل للحصول على المعلومات في ثلاثة مجالات: المجال الاستراتيجي والمجال المتعلق بالتجهيز للقيام بعمليات عسكرية ثم مجال المعركة. وتنقسم المخابرات إلى:

أولاً: مجموعة العمليات:

١ ـ الشعبة الأولى: شبكة العملاء "غير الشرعيين" المنتشرين في جميع أنحاء العالم.

٢ ـ الشعبة الثانية: المخابرات الاستراتيجية في أوروبا.

٣ ـ الشعبة الثالثة: المخابرات الاستراتيجية في إنكلترا وأميركا.

٤ ـ الشعبة الرابعة: المخابرات الاستراتيجية في الشرق الأوسط والشرق الأقصى.

٥ ـ الشعبة الخامسة: التضليل والتخريب.

٦ ـ الشعبة السادسة: مخابرات العمليات.

٧ ـ إدارة الإعلام: تقييم وتوزيع المعلومات.

٨ ـ قسم المخابرات العلمية والفنية ويشمل

أ ـ قسم الاتصالات: المشفرة وحل الشيفرة

ب ـ قسم العلاقات الخارجية: للتعامل مع الزوار الرسميين

ح ـ قسم الدول الديمقراطية الشعبية: للتعامل مع الدول الحليفة

ثانيًا: المجموعة الإدارية:

١ـ قسم المواصلات: مخابرات المواصلات ومخابرات اللاسلكي

٢ ـ قسم التنظيم: توفير التحقيقات الشخصية والأوراق الثبوتية المزورة

٣ ـ إدارة الأفراد: ملفات العاملين

٤ ـ قسم الأرشيف: السجلات والوثائق

٥ ـ قسم الشؤون الإدارية والإمداد: المهام والامدادات المختلفة

كانت تُعتبر الشعبة الأولى في المخابرات الحربية السوفياتية أكثر الشعَب نشاطًا لأنها كانت المسؤولة عن العملاء غير الشرعيين أي الذين يعملون في داخل الدول

الهدف وراء ستار يمنحهم هوية أشخاص أبرياء وبعيدين عن الشبهات ولا يلفتون إليهم انتباه الأجهزة الأمنية المضادة للتجسس. وكانت تفضل المخابرات الحربية استخدام مواطنين سوفيات لهذا العمل، كانوا يُختارون بأقصى درجة من الدقة والعناية ويحضرون دورات دراسية تدريبية طويلة حيث يتعين عليهم أن يعيشوا كما لو كانوا هم الأشخاص المزعومون، حتى إذا ما وصلوا إلى الدولة المستهدفة من عملية التجسس كانوا في وضع جيد لإجادتهم التامة لعمليات "تقمص الشخصيات"، وهم مزودون بجوازات سفر وجميع الأوراق المزيفة بدقة واللازمة لإثبات الشخصية الجديدة التي كانوا سيتعاملون من خلالها، وكذلك معرفة تفصيلية شاملة للمنطقة وظروف الحياة فيها للثلاثين عامًا السابقة حتى يكون العميل قادرًا على التحدث عنها بصورة مقنعة.

وإذا اقتضت الضرورة، كان يتم إجراء فحص تفصيلي شامل بواسطة عميل سوفياتي في المنطقة لتزويد العميل القادم و"المتقمص للشخصية" بتفصيلات مقنعة كالحقيقة تمامًا، حيث يتم الحصول على صور فوتوغرافية للقرية والمدينة وصور الفتيات صديقات العميل وكافة المتعلقات الشخصية التي من المعتاد أن يحملها أي شاب معه، وقد يتقرر إرساله إلى أستراليا لمدة عام قبل أن يتوجه إلى إنكلترا حتى يستطيع أن يعوّد نفسه على نمط الحياة الغربية، وبذلك يكون لديه قصة ليحكيها على أساس حقيقي يمكن إثباتها لتبرير سبب غيابه عن انكلترا لفترة ما، كما يتعلم حرفة أو مهنة يمكن أن تساعده على التستر وراءها وعلى أداء المهنة بنجاح.

وقد حدث اختراق مثير للتساؤلات عندما اكتشفت المخابرات العامة أن الكولونيل "يوري بولوف" الضابط في المخابرات الحربية كان جاسوسًا لدى وكالة المخابرات المركزية الأميركية CIA، وذلك في عام ١٩٥٨. وقد نجح كلّ من الـCIA وجهاز

المخابرات الحربية البريطانية من اختراق المخابرات الحربية الروسية وذلك من خلال زراعة جاسوس آخر هو "أوليغ بنكوفسكي" في عام ١٩٦٢، لذا فغالبًا ما كان يتم التنسيق ما بين المخابرات الحربية وجهاز KGB[١].

١ ـ صالح محمود عابدين، المخابرات والأمن والجاسوسيّة، مكتبة مدبولي (القاهرة،٢٠٠٣) ص٢٢٦ ـ ٢٢٨.

الفهرس العظيم

يرجع منشأ الفهرس إلى فترة الصراع الثوري ضد النظام القيصري قبل انتصار ثورة تشرين الأول ـ أكتوبر ١٩١٧ حيث كانت الحركة السرية تجمع المعلومات الشخصية عن الأصدقاء والأعداء لحماية نفسها، وكان البلاشفة على وجه خاص يحرصون على تسجيل أسماء الأعضاء الذين لا يوثق بهم والمتهورين والمندفعين من الأحزاب الأخرى، وكان الزعماء المنفيون يحتاجون أكثر من غيرهم إلى الأوصاف والتواريخ المفصلة لأعضاء منظماتهم الذين داخل روسيا، إذ كانوا لا يعرفون الكثير منهم بما في ذلك القادة العاملون، وكان الثوار أيضًا يحتاجون إلى معلومات عن أعدائهم وكذلك لمن يرجح أن يعطف على قضيتهم من موظفي الحكومة وضباط الجيش والبوليس ومدرسي الجامعة وصفوة المفكرين، ولكي يستطيعوا القيام بالأعمال المباشرة كإلقاء القنابل والاغتيالات والسرقات من البنوك والهجوم على المعسكرات العسكرية، فقد كانوا يحتاجون إلى بيانات عن الأشخاص المختصين وحركاتهم وعاداتهم وظروف عائلاتهم.

بعد انتصار ثورة أكتوبر ١٩١٧ أمرت الحكومة السوفياتية بتوسيع هذه الملفات وجعلها فهرسًا مركزيًا أُدمج في المحفوظات المركزية للحزب الشيوعي، وخُصص للفهرس في ما بعد بناء ضخم، ووضع أساس للمجموعة الضخمة من المعلومات الشخصية والصور الفوتوغرافية والوثائق والخرائط والرسوم والاحصاءات، وكذلك

مجموعة مندربة من العاملين، حيث تطوّر الفهرس المركزي وأصبح لكل شيوعي من "جوزيف ستالين" حتى أصغر عضو، ملف منظم تنظيمًا دقيقًا يضم تاريخ العضو وتاريخ الميلاد ومكان الولادة والوالدين والأسرة وكل الأقارب والوظيفة والحرفة... وقد تشمل هذه البيانات أسماء المدرسين وزملاء الدراسة والأقارب والصديقات وزملاء العمل أو المهنة والمطاعم والمقاهي التي يتردد عليها والأماكن التي يزورها في العطلات الأسبوعية والاجازات وهواياته وتسجيلات لأحاديثه التليفونية وتقارير عن أحاديثه ومقالاته... بل تحفظ في هذا الملف أيضًا الملاحظات الخاصة التي يبديها. هذه المعلومات هي "المواد الخام" التي تغذّي سنة بعد سنة أعظم مجموعة من الملفات الشخصية في العالم... والمعلومات والحقائق التي كانت تحتاج إليها "التشيكا". وكان هناك أكثر من خمسمائة موظف معظمهم من النساء من موظفي "التشيكا" لا عمل لهم سوى استكمال بيانات الفهرس ليظل حديثًا مشتملاً على أحدث المعلومات.

وكانت تجمع المعلومات عن الأشخاص المقيمين في الخارج عبر عملاء "التشيكا" حول:

أولاً: إيضاح المعلومات الجوهرية:

أ ـ المركز الحالي وأين كان يشتغل في السابق.

ب ـ هل سيظل في الخدمة (الجيش ـ السلاح الجوي ـ البحرية..إلخ) وأين هو الآن.

ج ـ منذ متى هو في الخدمة وهل الخدمة تروق له.

د ـ علاقته برؤسائه المباشرين.

ثانيًا: إيضاح البيانات الشخصية:

أ ـ العمر ـ الأولاد ـ حالة الأسرة...

ب ـ التعليم، التخصص الرئيسي، المعلومات الفنية الخاصة وغيرها.

ج ـ ميوله السياسية، الحزب الذي ينتمي إليه، رأيه في النظام الحاكم.

د ـ حالته المالية، رغبته في توفير الضمانات المادية لأسرته (ميوله وتطلعاته للاشتغال بالتجارة أو لشراء سيارة خاصة أو لامتلاك منزل..إلخ) وما الذي يعوقه عن تنفيذ هذه الخطط.

هـ ـ موقفه حيال "الاتحاد السوفياتي" وحيال سياساته.

و ـ أين يجد رفاهية بلاده، (مثلاً في صداقتها بأميركا والاحتفاظ بالنفوذ البريطاني في العالم...)

ثالثًا: المميزات الشخصية الإيجابية والسلبية:

أ ـ الميل إلى تناول الخمر، الصديقات، أو أنه رب أسرة صالح.

ب ـ مغرم بالأشياء الجميلة، أو أنه يميل إلى الوحدة والهدوء.

ح ـ تأثير زوجته عليه في تصرفاته أو استغلاله في البت في الأمور.

د ـ دائرة معارفه ووصف تقريبي موجز لأخلاقهم.

وقد وضعت هذه الأسئلة على وجه خاص لاختيار العملاء، إلا أنه يتبين منها العناية الدقيقة التي تبذل في جمع التفصيلات والرغبة الملحة في اكتشاف نقط الضعف البشري التي يمكن استغلالها، وقد تُطلب معلومات إضافية عن نقاط الضعف حول الأشخاص الذين لهم حق الاضطلاع على المعلومات الحكومية للإستفادة منها، وخاصة العلاقات التي تكون لهم مع غير نسائهم أو نوع الشذوذ الجنسي الذي يكونون مصابين

به، وكذلك مسلكهم في تناول الخمر... ويعتبر ذكر هذه الأوصاف على أنّها "خليط من الحقائق والتكهنات والأكاذيب"، إلا أن هذه الأوصاف تجمع وتودع في "الفهرس العظيم" للرجوع إليها عندما تقتضي الحال لاستخدامها كسلاح من أسلحة الإرهاب داخل روسيا، أمّا خارج روسيا فقد كان الغرض من "الفهرس" المعاونة في اختيار العملاء الذين يقومون بالتجسس والأعمال التخريبية أو القيام بعمل عسكري إبان الثورات عندما تتهيأ الفرصة لقيامها... وثمة غرض آخر من كلّ ذلك، ألا وهو التهديد.

وكان "الفهرس العظيم" يتضمّن أسماء آلاف من الرجال والنساء الذين لا شك في نزاهتهم وإخلاصهم... وقد اهتم الفهرس اهتمامًا خاصًا باللاجئين والمهاجرين. وقد جمع قسم الفهرس قديمًا قوائم كاملة بكل "الروس البيض" أعداء الثورة البلشفية الذين في الخارج، ورصد ومراقبة حركاتهم بدقة، ومعرفة مساكنهم وأماكن عملهم، وقد ساد اعتقاد داخل الحزب الشيوعي الروسي بأن الثورة الشيوعية ستنشب في كل دولة من دول العالم وستكون بطبيعة الحال تحت حماية موسكو، ولذلك وجب أن يكون الفهرس متضمنًا أتم المعلومات عن الأشخاص الذين يجب التصرف معهم في أي دولة من الدول إذا لاح "موقف ثوري"، فتكون العناصر المخابراتية الروسية على استعداد للتدخل للتأثير في الحركة برأي أو عمل لانجاحها، ومن المعروف في نهاية الحرب العالمية الثانية أن رجال "التشيكا" الذين أصحبوا الجيش الأحمر عند دخوله برلين عام ١٩٤٥ كان معهم قوائم أساسها "الفهرس العظيم" تتضمن أسماء وعناوين ومخابئ جميع الأشخاص المطلوب القبض عليهم بعد الاحتلال مباشرة، مما مكنهم من الحصول على كل مستندات جهاز الأمن الألماني "الغستابو".

وكان يستعان كثيرًا بـ"الفهرس العظيم" في متابعة العملاء في الخارج ذوي المناصب الحكومية التي يتقلدونها والبلدان التي يعملون فيها، وخصوصًا الدبلوماسيين منهم، وكان يتم الضغط عليهم إذا امتنعوا عن التعامل مع المخابرات الروسية بتهديدهم بالكشف عن أسرارهم الخاصة السيئة وعلاقاتهم الجنسية الشاذة أو أيّ معلومات قذرة عنهم لإجبارهم على مواصلة التعاون والتجسس لصالح الاتحاد السوفياتي، وكذلك كان يتم الرجوع للفهرس في حالات الاختيار للعمل في جهاز "التشيكا" لمعرفة موقف بيانات الذين يعززون طلب الشباب المتقدمين للعمل في الجهاز الاستخباري، ودائمًا كانت الأوامر الصادرة عن موسكو تطالب بمعرفة سيرة حياة العميل كاملة حيث الرغبة دائمًا ملحة لمعرفة المزيد من المعلومات الشخصية عن عملاء المخابرات الروسية لإخضاعها للتحليل النفسي والتدوين بفهرس موسكو المركزي أي "الفهرس العظيم".

لقد استخدم البلاشفة أهم أسس قواعد المعلومات الضرورية في فترة الصراع ضد القيصرية بالاهتمام بجميع البيانات عن الأشخاص الذين يعملون في دائرة هذا الصراع، كما أنهم أكدوا على أهمية تلك المعلومات بعد انتصار ثورة أكتوبر ١٩١٧، واعتمادهم لعمل الإحصاء السكاني بتنمية وتطوير أداء "الفهرس المركزي" الذي استفاد منه جهاز المخابرات "التشيكا" حيث أصبح في الوقت المناسب من الأسلحة التي اعتمد عليها قائدها "لافرنتي بيريا" لتوطيد سلطاته... وقد أدخل معلومات الأمور الجنسية في ما يتضمنه الفهرس.

إنتقلت فكرة "الفهرس" إلى كافة أجهزة الأمن والاستخبارات في العالم وبدأ الاهتمام بأقسام "التسجيلات ـ البصمات والأوراق الثبوتية الأخرى" التي تتضمن المعلومات العادية عن المواطنين، مضافًا إليها سجل المخالفات الجنائية والأحكام

والسيرة الذاتية، بالإضافة إلى ملاحظات تحتوي على الأعمال القذرة الجنسية والمالية والأخلاقية التي تتنوع باختلافات العصر. وقد ساعدت الاستعانة بالثورة التكنولوجية واستخدام أجهزة الكمبيوتر الحديثة في أن تنظّم بداخلها أسرار شعب كامل محتوية على أدق التفاصيل... كما وأن "فهرس موسكو المركزي" قدم عظيم الفائدة باهتمامه بالمعلومات الضرورية وأصبح من أهم مراجع الإحصاء وتعميم تطبيق فكرة "السجل المدني" في دول العالم التي تتجاوز اهتماماتها ما تود الأجهزة الأمنية الاحتفاظ به من معلومات عن المعارضين السياسيين والجواسيس والمشتبه فيهم من المجرمين والهاربين من العدالة وقوائم الممنوعين من مغادرة البلاد..إلخ حيث إرتباطها بالتنمية البشرية في كل مشاريعها بالإحصاء السكاني، وتشمل دراسة الجدوى لأي مشروع تنموي، الجانب البشري، سواء في التشغيل الانتاجي أو التسويق أو العائد الإجتماعي... ويعتمد خطط وبرامج ودراسات الاستراتيجيات القومية الشاملة وبرامج وخطط التنمية الزمنية بمجمل تفاصيلها على توفر قاعدة المعلومات البشرية...

وتتنافس الحكومات في ما بينها اعتمادًا على ما حققته من تطور في توفير المعلومات الإحصائية المتعددة، وقد أصبح أهم مقاييس المجتمع المتحضر يكمن في سرعة الحصول على المعلومة عن المواطن الذي أصبح مستهدفًا في كافة البرامج الإيجابية والسلبية سواء كانت لحمايته من المخاطر والأضرار الصحية والأمراض الفتاكة واتساع خدمات التعليم والاهتمامات الحياتية الضرورية وتوفير الغذاء ومحاربة الجفاف والتصحر والكوارث الطبيعية المتعددة أو لاستهدافه والقضاء عليه وتدميره بالأسلحة الجرثومية والكيماوية وأسلحة الدمار الشامل... ففي الحالتين يحتاج الأمر "لفهرس عظيم" يتماشى مع المعلومات المتوفرة لطبيعة العصر بالإضافة إلى الإستخدام

المتواصل للمعلومات في كافة أنواع الصراع الاجتماعي السياسي في كل أوجه المنافسة الإنسانية لإقصاء الآخر أو التوافق في التعايش.. وذلك هو الفهرس الذي وضع أساسه البلاشفة قبل ثورة ١٩١٧[١].

١ ـ صالح محمود عابدين، المخابرات والأمن والجاسوسيّة، ص٢٣٩ ـ ٢٤٣.

التدريب في المخابرات السوفياتيّة

أصدر مكتب التنظيم التابع للجنة المركزية للحزب الشيوعي السوفياتي كتاب "التنظيم"، وهو يتضمن ما ينتظره الحزب من الأعضاء الذين يعينون في أي وظيفة، فيوضح أن على الرفاق أن يقبلوا المهام التي يكلفهم بها الحزب، وأن العلاقات العائلية والمسائل الشخصية الأخرى لها اعتبارها ولكنها ليست هي الحاسمة في الموضوع، وإذا اقتضى الكفاح الطبقي أن يترك الشخص أسرته فهو مكره على أن يتركها شهورًا بل سنوات، لأن الثوري المحترف لا يمكن أن يحبطه شيء لأنه "صلب كالفولاذ وثابت كالصخر لا يمكن أن يؤثر فيه مؤثر". وواجب الحزب أن يجعل كل عضو فيه ثوريًا محترفًا بهذا المعنى. وهذا التوضيح كان يسري بصفة خاصة على كل من يُرشَّح للعمل في صفوف "التشيكا"، ويدرَّب على القيام بمهام أيّ وظيفة من وظائفها في الخدمة الداخلية أو الخارجيّة. وأعضاء الحزب الشيوعي هم وحدهم الذين كانوا يعيّنون في وظائف الحكومة والسلطات المحلية ويخضعون للنظام الدقيق الذي تفرضه وزارة رقابة الدولة ومجلس الرقابة التابع للجنة المركزية.

إن تدريب المرشحين الجدد على أعمال المخابرات كان يتمّ بطريقة يمكن معها إلحاق المرشحين إما بإدارات المخابرات الداخلية أوالخارجية بعد قضاء مدة تدريب في إحدى الوحدات أو الأقسام الخاصة بالتنظيم الداخلي، وقد أقيمت معاهد للتدريب بعد الثورة البلشفية كان يقوم بالتدريس فيها كبار البلاشفة الذين وضعوا أساس التدريب الطويل المعقد الذي أصبح في ما بعد يدرّس للعملاء السريّين. ومن المعاهد التدريبية، معهد ماركس وأنغلز، والأكاديمية الشيوعية، ومعهد لينين، ومعهد كروسبكايا الثقافي، وكلية العمل المركزية، وبعض الكليات الأخرى. ولا بد من أن يكون العميل السري

قويًا ينعم بصحة جيدة، وكان يجب أيضًا أن يكتسب قوة التركيز وقوة الإرادة والعزم على أن يحقق غرضه.

كانت المخابرات السوفياتيّة تستخدم في مكافحة التجسس وسائلها العنيفة في التحقيق، وهي الوسائل التي اصطُلح على تسميتها بوسائل "الدرجة الثالثة"، ولذلك كانت تجعل من القدرة على مقاومة العنف والتعذيب جزءًا مهمًّا من برنامج تدريب العميل السري. ومن ثم فقد ساد الاعتقاد بأن الصفات التي تكسبها الرياضة للجسم لها قيمتها، لذا كانت تبذل كل التسهيلات الممكنة للمرشحين لكي يقوموا بممارسة الألعاب الرياضية لإعداد المرشح لأن يكون مقاتلاً شديد البأس في حربه مع العدو الرأسمالي، كما كان يدرَّب على استعمال الأسلحة الصغيرة والرماية وقيادة السيارات والدرّاجات الناريّة والتصوير الفوتوغرافي واستعمال الراديو.

أما بالنسبة للمتدربين في قسم الإرهاب، فكان يتمّ إعدادهم لتولي "المهام الخاصة". وكان يتضمن البرنامج استعمال الأسلحة الخاصة والسموم، وهذا المنهج لا يستوعبه إلا العملاء الذين لديهم شيء من الخبرة وقاموا فعلاً بأعمال إرهابيّة "أوليّة". كما كان يدرس المرشح اللغات الحية والفنون والكيمياء والطبيعة والهندسة والاقتصاد والجغرافيا... فالمخابرات السوفياتيّة كانت تشترط أن يتولى مراكزها العليا رجال نالوا من العلم قسطًا وافرًا، وهذا التدريب كان يساعدهم على اكتساب الخبرة العملية حتى يتمكنوا من ممارسة عملية التجسس. وكان يُعتبر التدريب في المخابرات السوفياتية أوسع نطاقًا وأكثر نظامًا من أيّ نظام للتدريب في أيّ من المخابرات الغربيّة، بحيث كان هناك جزء آخر من التدريب يتعلق بغرس الأفكار السياسية وتلقين مبادئ "النشاط الثوري" حيث لا مثيل لذلك في المناهج الغربية.

وكان يتزوّد المرشحون بالمناهج التي تحتوي على الموضوعات التالية:

١ ـ معلومات سياسية عامة:

ـ مبادئ الماركسية والعلوم والمجتمع.

ـ تعاليم لينين وستالين.

ـ الاتحاد السوفياتي في الشؤون العالمية.

ـ تاريخ الحركة العمالية.

ـ تاريخ الحزب الشيوعي للإتحاد السوفياتي.

٢ ـ العدوّ الذي تحاربه:

ـ النظام السياسي للدول الرأسمالية وحكوماتها وإداراتها.

ـ واجب الأحزاب الشيوعية في حل الطبقات الحاكمة.

ـ أنواع التنظيم الصناعي.

ـ حالة العمال الصناعيين والفلاحين.

ـ القوّات المسلحة في الدول الرأسمالية.

ـ البوليس والهيئات المتطوعة الشبيهة بالعسكرية في الدول الرأسمالية.

ـ نظم الحكم الفاشية وشبه الفاشية.

٣ ـ مواضيع في الوسائل العسكرية الفنية وفي إثارة الخواطر وفي الدعاية

ـ الشعوب والهجرة واللغات والأديان.

ـ الأحوال الاجتماعية والاقتصادية في الدول غير الشيوعية.

ـ علم النفس والنظام الاجتماعي.

- مشاكل الزنوج وغيرهم من الشعوب المستعمرة.

- مشاكل اليهود.

- العلاقات الاجتماعية في الخارج ومع الأجانب.

- الاضطرابات والخلافات السياسية الصناعية.

- مشاكل التمرد المسلح.

٤ - مواضع فنية:

- الجغرافيا وقراءة ورسم الخرائط.

- الرموز والشيفرات - المراسلات ونقل المعلومات (حلقات الاتصال والوسطاء وصناديق البريد).

- الكتابة على الآلة الكاتبة والاختزال ونقل المعلومات بواسطة الآلات الكاتبة وإرسال البرقيات باللاسلكي واستعمال الكمبيوتر.

- التصوير الفوتوغرافي وعلاج الأفلام الدقيقة.

- تنظيم مراكز البحث في الخارج.

- العلاقات مع الدبلوماسيين الموفدين وعملاء الدول الصديقة.

- جوازات السفر ووثائق تحقيق الشخصية وتراخيص الدخول والخروج وتسجيل الأجانب وتصاريح العمل والتعليمات الخاصة بالأجانب في الخارج والمزايا الدبلوماسية.

- التصرف في أحوال الطوارئ في حالات القبض وفقد المستندات وحملات البوليس والتفتيش وكشف القناع عن شخصية العميل.

٥ ـ أعمال الميدان

- أنواع العمل المطلوب ومداه ونطاقه.
- الأهداف والتعليمات
- الالتفات للواجب
- المشاكل السيكولوجية
- اليقظة وحسن التصرف
- السلامة والتبصر
- حضور البديهة
- رباطة الجأش

ولم يكن البرنامج يقتضي من المتدربين الدقة والعناية فحسب، بل ويتطلب أيضًا أن يكونوا في مستوى مرتفع من الذكاء. وكان البرنامج التدريبي يهدف إلى تعليم الطلاب وتهيئتهم وجعلهم يقاومون المؤثرات والمغريات الناشئة عن مشاهدتهم حياة أكثر حرية من حياتهم في الداخل... وكان هناك اهتمام بمعرفة خصوصيّات الدول التي سيوفد إليها العميل، لنواحي الأخلاق والعادات والمشاكل السياسية والاقتصادية والاجتماعية والعامة وأزمة نظام الحكم والمعارضة... حيث قد يشترك بشكل فاعل في بذل النصائح للشيوعيين في الدولة التي يوفد لها ومساعدتهم، وكان إذا فشل في مهمته أو هرب من المواجهة يعاقب دون محاكمة عقابًا قد يصل إلى الإعدام.

وكان المرشّح يوقّع على تعهد يقر فيه بأن جزاء أي إهمال في تنفيذ التعليمات الخاصة بالأعمال السرية يتم خارج نطاق المحاكم.

وكانت المخابرات السوفياتية تقبل الطلبة المتزوجين حيث كانت تعتبر الزوجات والأطفال وغيرهم من الأقارب بمثابة رهائن عندها.

وكان المرشح يصبح عميلاً سريًا ويوفد في مهمة إلى الخارج في أثناء فترة التدريب، حيث لا أحد من الطلبة يعرف اسم زميله الحقيقي، فكل طالب يطلق عليه اسم آخر يضاف إليه اللقب حيث ممنوع على الطلبة أن يفشوا بأسمائهم الحقيقية لزملائهم. وكانت تسلّم لهم الخطابات المرسلة إليهم باليد بعد قراءتها من المشرفين دون مظروف... وكانت الرقابة تطّلع على كافة الخطابات التي ترسل منهم لأقاربهم. وكان يمنع عليهم مغادرة كلياتهم بمفردهم حيث كانت تفرض عليهم رقابة صارمة. وبالرغم من عزل الطلبة عن المجتمع أثناء فترة الدراسة إلا أنهم كانوا يلقون معاملة حسنة ووفق نظام دقيق للدراسة وقضاء فترات من الراحة.

بعد إتمام الدراسة، كان يلحق الخريج بوحدة داخلية ليقضي مدة اختبار في أعمال صغيرة، وكان يخضع لتجارب عديدة، وكثيرًا ما كان يستعان بالخدع في اختباره لمعرفة مدى الاعتماد عليه وما يتمتع به من ذكاء وفطنة.

بعد اجتياز فترة الاختبار بنجاح كان يقوم بأداء اليمين القانونية للخدمة والتوقيع على التعهد بقبوله شروط الخدمة، وكان يحذَّر من أنّ أي إهمال في واجباته أو انحرافه سيعرّضه للعقاب الشديد، وأنّه في هذه الأحوال ستتخذ الإجراءات للإنتقام من عائلته.

كانت تُخلع الأسماء الجديدة والمستعارة على الأشخاص الذين يتم تعيينهم في خدمة المخابرات، وكان يقترن الاسم الجديد بشخصية جديدة، بل كان يبتكَر من العلاقات ما لا وجود له، وتصطنع تواريخ للحياة مزيفة، ويتعامل مع العديد من القواعد ليتفادى اكتشافه... وكان العنصر الجديد يلقَّن عادات الشك والتآمر واتخاذ الاحتياطات التي كثير منها لا يكون ضروريًا... كما كان يحذر عليه الارتباط بأي أمر أو موضوع يتعلق بالحياة السابقة، حيث أن أعمال المخابرات لا يمكن أن تعيش في ضوء النهار بل تتولد وتزدهر خفية وفي الظلام. ولم تكن المخابرات السوفياتية تتأثر بعدم استخدام

طريقة واحدة فقط، بل كانت تستعمل مزيجًا من جميع الطرق والوسائل حيث لا يجب وضع كل الأماني ونتائج التوقعات في طريقة واحدة لأن الحياة معقدة جدًا ولهذا يجب استخدام كل شيء ممكن.

وكان عنصر المخابرات الذي أكمل مدة تدريبه يتعلّم من خبرة رؤسائه أكثر مما يتعلم من الدروس النظرية، حيث يلقى العديد من الاحتياطات التفصيلية والتي لا تبدو ضرورية، فمن الخير له أن يتخذ العديد من الاحتياطات التي لا تدعو إليها الضرورة من أن يثير أدنى شبهة حوله، وخصوصًا أن هناك نصائح لا بد من إدراكها والعمل بموجبها حتى يكون العميل السري في مأمن وبعيدًا عن أي مهددات قد تواجهه.

قد أدى الاهتمام المكثف في اختيار وتدريب عناصر المخابرات السوفياتية منذ بدأت قبضة الحزب الشيوعي السوفياتي القوية على منظمة "التشيكا" القيصرية وما تبعها من تنظيمات وأجهزة أمنية واستخباراتية تحمل أسماء متعددة لمواجهة التوسع في العمل الاستخباري الداخلي والخارجي على بناء عناصر تجيد العمل السري، استطاعت أن تحقق كثيرًا من الانجازات في المواجهة مع المعسكر الرأسمالي أثناء فترة الحرب الباردة التي أعقبت الحرب العالمية الثانية، وكذلك كان هناك إخفاقات متعددة حيث اكتشفت العديد من شبكات التجسس في الخارج نتاجًا للإختراقات الأجنبية لأجهزة المخابرات السوفياتية[١].

---

١ ـ صالح محمود عابدين، المخابرات والأمن والجاسوسيّة، ص٢٣٣ ـ ٢٣٨.

الـKGB في ثمانينات القرن العشرين

عندما تسلّم أندروبوف السكرتاريّة العامّة للحزب الشيوعي السوفياتي في ١٠ تشرين الثاني - نوفمبر ١٩٨٢ إثر موت سلفه ليونيد بريجينيف في ٢٧ تشرين الأول - أكتوبر من العام نفسه، كان أندروبوف شخصية مطمئنة وواعدة معًا. فموقفه تجاه المنشقين كرئيس للـ K.G.B لم يترك أيّ شك يحوم: لن يتساهل مع التخريب الإيديولوجيّ. لكنّه قاد أيضًا حملة ضد الفساد الذي بلغ حتى عائلة بريجنيف. كان ذلك وعدًا بحرب ضد عدم الفعاليّة الاقتصادية. وبدا أنّ أندروبوف نفسه يعتقد أنّ تنظيمًا أفضل للعمل وإلغاء للفساد يكفيان لإنعاش الاقتصاد السوفياتي.

في كانون الثاني - يناير ١٩٨٣، أعلن أندروبوف لعمّال مصنع "آلات - أدوات" في موسكو: "إنّ التنظيم لا يتطلّب أيّ استثمار رأسمالي لكن يمكن أن يعطي نتائج جيدة". أثار أندروبوف بمحاولته هذه حركة قصيرة لا إصلاحات دائمة.

لم يكد أندروبوف يصبح سكرتيرًا عامًا حتى تلقّى بعثة من "الكلية" (جهاز قائد) في الـ K.G.B بقيادة أحد معاوني رؤسائه، فيليب دينيسوفيتش بوكوف، وتضمّ المسؤولين عن المجالس الإدارية الرئيسية والمراكز الريفية في الـ K.G.B، اشتكوا جميعهم من غطرسة فيدورتشكو ممّا يجعل العمل معه مستحيلاً، وهدّدوا بالاستقالة إذا لم يرحل.

ترك فيدورتشوك سريعًا الـ K.G.B ليصبح وزيرًا للشؤون الداخلية برتبة جنرال في الجيش. كان خليفته في رئاسة الـ K.G.B بريجنيفيًا آخر هو معاونه فيكتور

ميخائيلوفيتش تيبلايكوف وعمره ٥٩ سنة وكان، بخلاف رئيسه السابق، محترمًا في المركز كمدير فعّال. بدأ تشيبريكوف حياته المهنية في جهاز الحزب وانتقل إلى الـK.G.B عام ١٩٦٧ كمسؤول عن المِلاك وكمعاون رئيس من ١٩٦٨.

لم يكن الـ K.G.B يرى حلاً للمشاكل الاقتصادية أو نهاية للمحاولات الغربية لاستغلالها إلاّ بتغيير في رئاسة البلاد. وبسبب عجزه عن الإدراك أنّ المشكلة تكمن في النظام نفسه، انتظر من غورباتشيف أن يبعث الحيوية والنظام الضروريين من أجل التغلّب على الجمود الاقتصادي وإقامة "توازن قوى" ثابت مع الغرب. في الأشهر التي سبقت موت تشيرنينكو المُنتظر منذ وقت طويل، في آذار ـ مارس ١٩٨٥، اهتم الـ K.G.B كثيرًا بتقويم غورباتشيف وكيفية تأثيره على باقي البوليتبورو بمعرفة للشؤون السوفياتية كما للشؤون العالمية، وهدفت علاقاته بمجموع البوليتبورو عمدًا إلى دعم حجج غورباتشيف. وإذا لم ينتج انتخاب هذا الأخير سكرتيرًا عامًا للحزب، في آذار ـ مارس ١٩٨٥، ـ لا بشكل كامل أو حتى أساسيّ ـ عن دعم الـ K.G.B، فإنّ هذا الأخير اعتبر هذا الانتخاب مع ذلك انتصارًا كبيرًا[1].

في نيسان ـ إبريل، أصبح تشيبريكوف الذي كان عضوًا احتياطيًا في البوليتبورو منذ كانون الأول ـ ديسمبر ١٩٨٣، عضوًا مثبتًا بينما بقي وزير الدفاع فقط احتياطيًا.

أثبت غورباتشيف سريعًا دعمه للـ K.G.B في الخارج كما في داخل الاتحاد السوفياتي. في السابق، حين كان يُطرد أعضاء في الاستخبارات السوفياتية من دول غربية، كانت موسكو تجيب عادةً بطرد عدد قليل ومتناسب مع العدد الضعيف للممثلين

---

١ ـ أندرو كرستوفر، غورديسكي أوليغ، الاستخبارات السوفياتيّة في العالم ١٩١٧ ـ ١٩٩١، ترجمة هنادي السمرا، رينا شربل، نادر عسيران (دار الحقيقة (بيروت،١٩٩١) ص٦٦٥ ـ ٦٦٦.

الغربيين في موسكو؛ هكذا، حين أرسل النروجيون ٦ ضباط استعلامات سوفيات بعد قضية هافيك عام ١٩٧٧، لم يطرد الاتحاد السوفياتي سوى ٣ نروجيين. رغم ذلك، في ١٩٨٥ ـ ١٩٨٦، اتخذ غورباتشيف موقفًا أشد حزمًا فعاملَ بالمثل في هذا المجال. حين طردت بريطانيا ٣١ عضوًا من ملاك الاستخبارات في أيلول ـ سبتمبر ١٩٨٥، طردت موسكو عددًا مماثلاً من البريطانيين. وحين طردت الولايات المتحدة حوالي ٨٠ عميل استخبارات من واشنطن، من نيويورك ومن سان فرنسيسكو في أيلول ـ سبتمبر وتشرين الأول ـ أكتوبر ١٩٨٦، أصبح من المستحيل عمليًا إيجاد نفس العدد من الأميركيين في وضع مشابه من أجل طردهم. لكن، وحسب اقتراح الـ K.G.B، منع الكرملن العاملين السوفيات في السفارة الأميركية في موسكو من متابعة عملهم، فتشوّش إلى حين سير المفوضيّة. بهذا الدعم المبكر للـ K.G.B، مذاك صار غورباتشيف بمستوى الرأي الشهير الذي أعطاه غروميكو فيه: رجل "ذو ابتسامة باهرة وأسنان فولاذية".

في بداية عهد غورباتشيف، وصلت الاستخبارات السوفياتية إلى نهاية عشرين عامًا من التوسّع المستمرّ. وكان النموّ الأكثر أهمية هو نمو شبكة التنصت والاعتراض التي امتدت إلى العالم أجمع. وبما أنّ هذه الشبكة تراقب بشكل أساسيّ أهدافًا عسكرية وبحرية، فقد كانت الوكالة السوفياتية للاستخبارات العسكرية هي المستفيد الكبير أكثر من الـ K.G.B. في وسط الثمانينات، كان الجيش السوفياتي يملك ٤٠ فيلقًا، ١٧٠ كتيبة وأكثر من ٧٠٠ وحدة تَنصُّت واعتراض. وجمعت الوكالة السوفياتية للاستخبارات العسكرية معلومات بفضل أكثر من ٢٠ نوعًا مختلفًا من الطائرات وأكثر من ٦٠ بارجة عائمة. في العشرين سنة التي تلت إطلاق Kosmos ١٨٦ عام ١٩٦٧، وَضَعَ الاتحاد السوفياتي أكثر من ١٣٠ قمرًا صناعيًا اعتراضيًا من أجل تأمين متطلّبات

المجلس الإداريّ للاستعلامات الفضائية في الوكالة السوفياتية للاستخبارات العسكرية، وقاعدته في فاتوتينكي على بعد ٥٠ كيلومترًا جنوب - غرب موسكو.

عرف انتشارًا سريعًا أيضًا المجلس الإداريّ السادس عشر مرتبطًا بالمديرية السادسة عشرة في الـ K.G.B (اعتراض - توضيح) رغم أنّه أقلّ أهمية من المجلس الإداريّ السادس (اعتراض - توضيح) الواسع في الوكالة السوفياتية للاستعلامات العسكرية. فبالإضافة إلى مركز قيادته العامّ في المبنى الرئيسي للـ K.G.B في ساحة دزرجنسكي، كان يملك مجموعته الاستعلامية الخاصة في وسط موسكو ومختبرًا واسعًا للبحث في كونتسيفو على بعد ١٥ كلم شمال - غرب إيازينيفو فوق الجادّة المستديرة الخارجية لموسكو. ومثل الوكالة السوفياتية للاستعلامات العسكرية (GRU)، يملك المجلس الإداريّ السادس عشر محطات في المهمات الدبلوماسية والتجارية في أكثر من ٦٠ بلدًا؛ معظمه لا يقوم بغير جَمْع المعلومات تاركًا لموسكو مهمة معالجة وتحليل المواد. في مواضع أخرى، يتقاسم الـ K.G.B والـ G.R.U إدارة محطات الإصغاء والاعتراض في بلدان أخرى من الكتلة أو في دول موالية للسوفيات. أكبرها محطة لورد في كوبا والمحطة الواقعة قرب عدن في جمهورية اليمن الجنوبية السابقة، ومحطة خليج كام رانه في فيتنام. رغم أنّ الـ G.R.U يهتمّ مبدئيًا بالاتصالات العسكرية وبالاستعلامات الإلكترونية بينما يركّز المجلس الإداريّ السادس عشر في الـ K.G.B على الاعتراض - التوضيح في ما يتعلق بالدبلوماسية وبالاقتصاد، كان هناك تداخلات مهمّة بين الوكالتين[1].

---

١ - Ball & Windern, *Soviet Signals Intelligence: Organisation and Management, Intelligence and National Security,* vol, V (1990), No. 1.

حين أصبح غورباتشيف سكرتيرًا عامًا، كان الـ K.G.B يشكّل أمبراطورية ضخمة مكرّسة للأمن والاستخبارات ومؤلفة من حوالي ٤٠٠ ألف ضابط داخل الاتحاد السوفياتي ومن ٢٠٠ ألف حارس حدود ومن شبكة واسعة من المخبرين. بالرغم من أهمية المواد المُعطاة بواسطة الإصغاء والاعتراض، لم يُمنح المجلس الإداري السادس عشر وضعية "المجلس الإداري العام". بقي الفرع الأكثر نفوذًا في الـ K.G.B فرع الاستعلامات الخارجية، الـ PDG الذي، رغم أنه خضع لقوانين الـ K.G.B الداخلية، فقد عرف انتشارًا واسعًا للغاية في العشرين سنة الأخيرة. عام ١٩٨٥، خُصّص له مبنى جديد من ١١ طابقًا في إيازينيفو دون اعتبار ملحق من ٢٢ طبقة في مجلس القيادة الذي بناه المهندس المعماريّ الفنلندي. إزداد عدد الـ PDG من ٣٠٠٠ شخص في وسط الستينات إلى ١٢ ألف في وسط الثمانينات. إتّسعت أيضًا دائرة عملياته؛ تقدّم اليابان ودول المحيط الهادئ سريعًا على جدول أهدافه الأكثر أهمية.

سُئل رئيس المديرية الثالثة، نيقولاي غريبين، في اجتماع للجنة الحزب في الـ PDG في خريف ١٩٨٤ شهده معظم الضباط الكبار، لماذا أعطى مِلاكه القليل من المعلومات حول الصين من أستراليا، وذلك بسبب أهمية تجمّع المهاجرين الصينيين الذين يعيشون فيها... أجاب غريبين بسؤاله محدّثه إذا ما كان يعلم حجم مقرّ الـ K.G.B في أستراليا، فأجاب هذا الأخير ـ كما كلّ الضباط الحاضرين ـ بلا. فأعلَمَهم غريبين أنّه يوجد ٧ ضباط فقط في وضع قانونيّ وفقط بعض "اللاشرعيين". وتَمَّ الاتفاق على دَعْم وجود الـ K.G.B... إزداد نشاط الـ K.G.B في أستراليا أيضًا بعد انتخاب حكومة دافيد لانج العمّالية في زيلاندا الجديدة على برنامج معادٍ للنووية عام ١٩٨٤، حتى ذلك الحين، كان وجود الـ K.G.B في زيلاندا الجديدة ضعيفًا لدرجة أنّ السفير المقيم نيقولاي ألكسندروفيتش شاتسكيخ، في نهاية عام ١٩٧٩، كان يستعدّ

للرحيل وكـان ضـابط آخر قد طُرد حديثـا، فتلقّـى السـفير ف. ن. سوفينسكي الأمـر بإعطاء الأموال سرًّا للحزب الاشتراكي الموحّد وهي مهمة يقوم بها الــ K.G.B عـادة. قُبض عليه وأُعلن أنّه شخص غير مرغوب فيه. إبتهـج الــ K.G.B عنـد انتخـاب لانـج وأعلن إلى مقرّ لندن أنّه يعلّق "أهمية كبيرة" علـى تنظيـم دعـم أوروبـيّ لقـرار رئيـس الـوزراء الجديد بإقصـاء البواخـر الأميركيـة المجهـزة بأسـلحة نوويـــة عـــن المرافـــئ النيوزيلندية ولسياسته المعادية للنوية بشكل عامّ.

باستثناء نموّ متواضع لتمثيله في الهادئ وفي بعض القنصليـات الجديـدة الأخـرى، لم يعرف الـ K.G.B، في عهد غورباتشيف، أيّ انتشار في الخارج. توقّع افتتاح مراكز في إسـرائيل، فـي كوريـا الجنوبيـة، فـي تشـيلي أو فـي أفريقيـا الجنوبيـة بعد إقامـة أو إصلاح العلاقات مع هذه البلدان. بشكل عـامّ، لـم يسـمح سقوط أسـعار النفـط واشتداد الأزمة الاقتصاديــة فـي الاتحـاد السـوفياتي بـامتلاك عمـلات صعبـة كـان بحاجـة إليهـا لاستمرار نموّه.

رغم ذلك، بقيت وظائف الــ K.G.B الوظـائف التـي تبحـث عنهـا أكـثر مـا تبحـث البيروقراطية السوفياتية. وجرت منافسة للغاية فـي سـبيل الــ ٣٠٠ مقعـد التـي يعطيهـا معهد أنروبوف كلّ عام.

تقليديّـا، تمـرّ الطريـق الكلاسيكية نحـو الــ PDG بعـدة معـاهد موسـكوفية محـــدّدة خاصـة معهـد الدولـة فـي موسـكو للعلاقـات العالميـة الـذي تخـرّج منـــه غورديفسـكي عام ١٩٦٢. واستفاد ليبيديف، رئيـس هـذا المعهـد، إذ كـان محاطًـا دائمًـا بضبـاط مـن الــ K.G.B يحـاولون توظيـف أولادهـم. ذات يـوم، طلـب مـن سـفير للــ K.G.B يحثّــه علـى التدخّـل لـتزويد ابنـه بقائمـة مصنـع ألمـاني غربـي لأسلحة الصيد واختـار منـــه بندقية مع منظار مكبّر. أهدى السفير السلاح وقُبل ابنه. رغم علاقات لهـا مكانتهـا فـي

اللجنة المركزية، لم يستمرّ ليبيديف إلاّ ١٨ شهرًا بعد وصول غورباتشيف ففُصِل في نهاية عام ١٩٨٦.

في وسط الثمانينيات، ازدادت الشكاوى أكثر فأكثر في الـ PDG، كان مرشّحون كُثُر من المعاهد المحدّدة في موسكو أبناء مدعوين من أهالٍ ذوي امتاز يديرون الأمور وفق مصالحهم. بنتيجة ذلك، جاءت نسبة أكبر من مجنّدي معهد أندروبوف من الريف. ودعا المركز دوريًا الأرياف إلى تعيين بعض من خيرة ضباطهم الشباب كمرشحين للمجلسين الإداريين العامَّيْن الأوّل والثاني. بعض الذين اختيروا لم يروا موسكو أبدًا قبل وصولهم إلى معهد أنروبوف.

منذ البداية، يجري انتخاب عرفيّ: لا يسمح لليهود بالعمل في الـ K.G.B، والاستثناءات الوحيدة حفنة من الرجال آباؤهم من غير اليهود، وأمهاتهم يهوديات اكتسبوا انتماءًا غير يهودي. أُبعدت أيضًا الأقليات المنفية إلى سيبيريا خلال الحرب العالمية الثانية (تتركْريمِة، الكلموك، التشيتشين، الإنغوش، إلخ...) بالإضافة إلى اليونانيين والألمان والكوريين والفنلنديين. من الملاحظ أيضًا عدم قبول أيّ بولونيّ في معهد يُزيَّن فيه كلّ يوم نُصب دزرجينسكي في إيازينيفو. في إيازينيفو، نُظِرَ بشكّ إلى الليتوانيين، الأستونيين والليتونيين الذين لعبوا رغم ذلك دورًا مهمًا سابقًا في تشيكا دزرجينسكي، لكنهم لم يُطردوا بالضرورة. الأرمن أيضًا كانوا مشبوهين لأنّ كثيرين منهم لهم أهالٍ في الخارج. خلال السبعينات، كان الضابط الوحيد للـ K.G.B في مالطة أرمنيًا اسمه مكرتشيان يعمل تحت غطاء مراسل لتاس. حين حاول الإنتقال إلى الولايات المتحدة اكتشف أنّ له عائلة فيها رفض الـ PDG طلبه. رغم ذلك، لم تكن أقليات أخرى كثيرة موضوع تمييز. وتدلّ الأرقام الداخلية على أنّ الجيورجيين والآزريين والأوزباكيين وأعضاء قوميات أخرى في آسيا الوسطى أهلٌ للثقة أكثر من

الروس والأوكرانيين. مارس المعهد أيضًا تمييزًا بخصوص الجنس والديانة. كان جميع الداخلين رجالاً (إلاّ بعض زوجات عملاء في الـ PDG يتبعن دروسًا خصوصية)، كما كانت كلّ ممارسة دينية ممنوعة.

عام ١٩٩٠، أعلن الـ PDG للمرة الأولى علنيًا المواصفات التي ينتظرها من القادم الجديد إلى معهد أندروبوف: "ما هو مطلوب طبعًا الصحة الجيدة والقدرة على اكتساب لغات أجنبية. كلّ عميل يتكلّم لغتين، كثيرون يتكلّمون ٣ أو أكثر... رغم ذلك، كان المطلب الرئيسيّ تجاه كلّ عملاء الاستخبارات في المستقبل وبدون استثناء الإخلاص المطلق والتفاني في سبيل القضية". أُعلن أيضًا أنّ على طالبي الوظيفة معرفة القفز بالمظلّة: "من يخيفهم ذلك ليسوا بمرشحين جيدّين". .

على الأرجح، تغيّر المعهد قليلاً منذ وسط الثمانينات، يعفى من موادّ دراسة على سنة أو سنتَين أو ثلاث سنوات حسب مستوى الداخِل السابق وتجربته. عند الوصول، يُعطى الداخلون هوية وسيرة حياة مزيفَيْن حيث يحتفظون بهما ويعطون أيضًا اسمًا يبدأ بأوّل حرف من اسمهم الحقيقيّ. يُوضع البريد المُرسل للطلاب من أهلهم بين يدي المِلاك الإداريّ لتأمين تخفّيهم تجاه الطلاب الآخرين. رغم أنّ لهم وضعًا عسكريًا، يلبس الطلاب ثيابًا مدنية. وعمل الذين يتبعون دراسة لمدة ٣ سنوات ٦ أيام في الأسبوع بمعدّل ٤٤ ساعة من الدراسة: ١٤ لتعلّم اللغات، ١٢ لدراسة التجسّس العمليّاتي، ٨ حول الشؤون العالمية والمساحات الكبيرة الجغراسية (أي الجغرافية السياسة)، ٤ لـ "الاشتراكية العلمية"، ٤ للرياضة وللتمارين الجسدية، ٢ للتدريب العسكريّ. للطلاب مكتبتان: مكتبة للاستعارة تحتوي على أعمال الكثير من الأدباء الأجانب الممنوعة في الاتحاد السوفياتي، ومكتبة للاستشارة فقط تحتوي على وثائق سرية للـ K.G.B وأطروحات مثل أطروحة ميخائيل

ليوبيموف حول "الخصائص المميزّة للطَبْع البريطاني الوطني واستعمالها في العمل العمليّاتي".

في وسط الثمانينات، كان مدراء الكليات الثلاث الكبيرة لمعهد أندروبوف كلّهم رجال أبدعوا أثناء عملهم في مقرّ لندن قبل الطرد الجماعيّ عام ١٩٧١: إيوري مودين، مسؤول عن الاستعلامات السياسية؛ إيفان شيشكين، مسؤول عن الجاسوسية المضادة، وفلاديمير باركوفسكي، مسؤول عن الاستخبارات العلمية والتقنية. أعطى بعض المحاضرات الأكثر قيمة "لا شرعيّون" متقاعدون يتحدثون عن تجاربهم الخاصة في الغرب (كونون مولودي الملقّب بغوردون لونسدال الذي علّم فيها بانتظام حتى مماته). أمّا كيم فيلبي الذي كان يمكن أن يكون المُحاضر الأكثر شعبية، فلم يُسمح له بالكلام. مثل كل المنشقين الغربيين، أُبعد حتى لو استخدم الـ PDG مواهبه.

كل ٦ أشهر، يُمضي الطلاب أسبوعًا في موسكو في "الفيلاً" وهو مركز تدريب عمليّاتيّ يقوده مدير له رتبة جنرال. تنتظرهم هناك سلسلة من التدريبات الفردية أو كمجموعات صغيرة: تجنيد عميل، مواعيد مع عملاء، مراقبة، اتصالات، استعمال صناديق الرسائل وتقنيات مهنية أخرى. أصعب ما عليهم تعلّمه هو المعرفة الحسية للغرب. بالنسبة لكثير من الطلاب، من الصعب إدراك مفهوم رائج في الحياة اليومية في الغرب مثل مفهوم الرهن العقاريّ. يتضمّن التدريب أيضًا دروسًا في قيادة السيارات. فغياب التمرين والخبرة لدى الضباط الشباب في الـ K.G.B في هذا المجال اعتُبر عنصرًا يفسّر نسبة الحوادث المرتفعة عند تعيينهم الأول في الخارج.

في الثمانينات، لم يكن المتخصصون في معهد أندروبوف يذهبون (ولا يذهبون ابدًا دون أيّ شكّ) إلى مجلس القيادة العامّ للـ PDG في إيازينيفو قبل البدء بالعمل. خلال أسبوعهم الأوّل أو أكثر، يتبعون في كلّ شيء ضابط الـ K.G.B الذي سيستلمون

منصبه فيستمعون إلى المخابرات الهاتفية، يتعلّمون تعبئة الصيَغ، فتح الملفات وطلب المستندات من الأرشيف. عند استلامه مهامه، يجب على الضابط الجديد أن يملأ صيغة خاصّة يعترف فيها بأنّه مسؤول عن الملفات المتعلقة بمنصبه. تصل برقيات المراكز في الخارج أولاً إلى المسؤول عن المديرية الذي يقرّر ما يجب إيصاله إلى مرؤسيه للمعالجة أو للتحليل. قبل تعيينه الأوّل في الخارج، يجب على الضابط الشاب في الـ PDG أن يخضع لعدد معيّن من الضغوط، فإذا كان لا يزال مرشحًا للدخول في الحزب، عليه أن يصبح عضوًا فيه بشكل كامل. عليه أيضًا أن يتزوّج إذ يرفض الـ PDG إرسال ضابط عازب إلى الخارج لأنّه يمكن لعلاقاته أن تشكّل خطرًا. على الرجال المختارين لمناصب في الخارج أن يعتادوا أيضًا تغطيتهم: بشكل عامّ كدبلوماسيّ، كصحافيّ، معضو في بعثة تجارية أو في مؤسسة نقل. على كلٍّ منهم أن يفرق تمامًا في "أسطورته"؛ يُخضعه "محامٍ للشيطان" لسلسلة سريعة من الأسئلة ليحاول إيجاد ثغرات في "سيرة حياته". أخيرًا يأتي موعد الامتحان الأخير. حتى ارتداد ستانيسلاس ليفتشينكو عام ١٩٧٩، كان على الضباط المؤهلين لمنصب في الخارج أن يحصلوا على توصية شخصية من ثلاثة من زملائهم - رُفع هذا الرقم في ما بعد إلى خمسة.

بعد امتحانه، يجب على كلّ ضابط أن يحضّر "برنامجه التدريبيّ الخاصّ قبل تعيينه" وأن يحصل على الموافقة عليه. يتحدث غورديفسكي عن حالة ضابط شاب في الخطّ PR في المديرية الثالثة (بريطانيا، غيرلندا، اسكنديفافيا، أوستراليا) عُيِّن في كوبنهاغن. بسبب إمكانيات القيام بعمليات ضد أهداف غير دانمركية، أمضى أكثر من أسبوع يدور بين المديرية الأولى (أميركا الشمالية) فرع الناتو في المديرية الخامسة (ناتو وأوروبا الجنوبية) والمديرية السادسة (الصين). بعد ذلك أمضى أكثر من شهر

في المجلس الإداري للاستخبارات ـ المعلوماتية، بضعة أسابيع في المجلس الإداريّ "ك" (جاسوسية مضادة)، ١٥ يومًا في المصلحة "أ" ("التدابير الفعّالة") وأسبوعًا في المجلس الإداري OT (دعم عمليّاتيّ وتقنيّ). بعدها تابع تدريبًا قصيرًا لتجديد معلوماته في ما يختصّ بالتقنيات العمليّاتية وأخذ دروسًا جديدة في السلوك. أخيرًا، كان عليه الإعداد لتغطيته المهنية: ٣ أو ٤ أشهر في وزارة الشؤون الخارجية لضباط في الـ K.G.B يتمتع بتغطية "ثقيلة"، وربّما ٦ أشهر في وكالة الصحافة نوفوستي حيث سيكون صحافيًا.

طوال فترة الإعداد هذه، يجب على ضابط الـ K.G.B أن يعمل كثيرًا ليتعلّم لغة البلاد التي سيُعيَّن فيها وليقرأ روايات وأعمالاً مرجعيّة. يجب على ضابط موظّف في لندن أن يقرأ ديكنز قبل رحيله؛ يمتدّ جدول المطالعات من كتاب "توم جونس" لفيلدينغ إلى جون لوكاريه الأخير. من بين المراجع، كانت الطبعة الأخيرة من كتاب "تشريح بريطانيا" لأنطوني سامبسون إجبارية تقريبًا مثل الأطروحة السرية لليوبيموف وكتاب مراسل قديم للبرافدا هو أوفتشينيكوف حول بريطانيا.

على زوجة الضابط أن تتبع تدريبًا لمدة ٣ أشهر بمعدل مساء واحد في الأسبوع وبالمصادفة في النهار، في مركز خاص للتدريب تأسس عام ١٩٨٠ في ساحة زوبوفسكايا في وسط موسكو، تحضر الزوجة محاضرات عن عمل الـ K.G.B وعن البلد الذي ستعيش فيه بالإضافة إلى نصائح بعدم الشكوى إذا اضطرّ زوجها لإمضاء سهرة ما في العمل. في آب ـ أغسطس ١٩٨٣، افتتح معهد أندروبوف دورات سنوية لزوجات مختارات بدقة يتوجّب عليهنّ العمل بإدارة أزواجهنّ في أغلب الأحيان فيشكلن معه فريقًا.

من الملاحظ أنّه، في السنوات الأولى من عهد غورباتشيف، كان للـ PDG في مواقع المسؤولية نساء أقل مما كان له في نهاية الفترة الستالينية، في الوقت الذي تملأ هؤلاء جهاز المدرّسين بمعدّل ٩٠٪ والمهندسين بمعدل ٣٠٪ (لكن ليس هذا هو الوضع في البلوليتبورو وفي السلك الدبلوماسيّ). حوالي ١٠٪ من مِلاك إيازينيفو هو من النساء، كلهنّ تقريبًا سكرتيرات، مستكتبات، إعلاميّات أو مستخدمات في المطعم وعاملات تنظيف، فالإلتقاء بإمرأة في أروقة المديريات الرئيسية حدث غريب. فإحدى الضباط النساء القلائل العضو في فرع فرنسا في المصلحة "أ" ("التدابير الفعّالة") تعرّضت دون انقطاع لطرائف جنسية ثقيلة؛ فالجميع يناديها بـ "السيدة الجالسة على فرنسا".

حين بدأ الـ K.G.B عام ١٩٨٨ حملة علاقات عامة، بدا مزعجًا غياب مِلاك نسائي رغم وجود بعض إشارات تغيير. أثناء برنامج تلفزيونيّ في موسكو في نهاية ١٩٨٩، سأل المقدّم خمسة ضباط كبار في الـ K.G.B من الرجال طبعًا: "هل يوجد نساء في الـ K.G.B؟ وإذا كان الجواب نعم، فكم هي نسبتهم وفي أيّ مناصب يعملن"؟ فأجاب الجنرال أناتولي بيتروفيتش بواندريف وهو محرج: "يوجد نساء في الـ K.G.B. وفي بعض القطاعات، لا يمكن استبدالهن. لكن، إذا كانت النسبة تقول شيئًا، فمن الصعب أن أحدّدها الآن. لم أنتظر سؤالاً كهذا، ولا أملك هذا النوع من الأرقام". ولم يبدُ أنّ أحدًا من زملائه يستطيع أن يعطي معلومات حتى بالنسبة للنساء المستخدمات في قطاعات لا يمكن "التخلي عنهنّ" فيها كالمطاعم والاستكتاب خصوصًا، عندئذٍ انتقل المقدّم إلى موضوع أقلّ إحراجًا.

في الخارج، كما في إيازينيفو، بقي روتين عمل الضباط نفسه تقريبًا منذ بداية عهد غورباتشيف.

يرتبط معظم ضباط الـ PDG في الخارج بأحد الخطوط الثلاثة: الخطّ PR للاستعلامات السياسية، الخطّ KR للجاسوسية المضادة وللأمن، أو الخطّ X للاستعلامات العلمية والتقنية. للمسؤول عن كلّ خطّ وضع معان للسفير المقيم في الكثير من المراكز، كانت نسبة الضباط بشكل عامّ هي التالية: PR ٤٠٪؛ KR ٣٠٪؛ X ٣٠٪. قبل وصولهم، يجب على الضباط الجدد حضور سلسلة من المحاضرات حول الخطر الدائم "لاستفزازات" المصالح الغربية. حسب تجربة غورديفسكي، بدأوا يشكّون بجيرانهم، بتجار الزوايا وحتى ببستانييّ المنتزهات التي يأمُّونها؛ إعتقدوا أنهم مراقبون بشكل دائم لكن معظمهم تخلّصوا تدريجيًّا من هذه المخاوف. يبدأ نهار العمل في المقرّ في الساعة الثامنة والنصف. يبدأ ضباط الخطّ PR نهارهم بقراءة الصُحُف. أمّا في لندن، فعليهم قراءة الأساسيّ في الجرائد اليومية والشهرية الرئيسية والمجلاّت الدورية الأخرى، ويبحثون بانتباه كبير على الأرجح في مجلتي الـ Economist والـ Private Eye. كلّ صباح، يأخذ رسميّو المقرّ محافظهم (بابكا) من الخزنة. هذه المحافظ أكبر من المحافظ العادية، فيها جيبان وتفتح بسحّاب. تحتوي بشكل أساسيّ على دفترة العمل (Rabochaîa Tetrad) وفيه ملاحظات عن كلّ الاتصالات العمليّاتية والعناصر الرئيسية للمراسلة مع المركز. يوجد دفتر آخر لكتابة البرقيات والتقارير إلى موسكو. لكلّ ضابط ختم يحمل رمزًا ورقمًا مميّزين معلّق عادة إلى علاّقة مفاتيحه. كل مساء، يقفل محفظته، يُسْخِمُ الشمع على السحّاب ويضع ختمه.

رغم أنّ السفارات ترسل تقاريرها إلى موسكو على ورق عاديّ، فمراكز الـ K.G.B تستخدم نيغاتيف ٣٥ مم. في البدء، يكتب المعلومات بشكل مرموز مُعْتَمد ثُمّ يصوّرها عميل من الـ OT أي الدعم العمليّاتيّ والتقنيّ في الـ K.G.B. وتصل الرسائل من المركز على أفلام تحمّض وتُقرأ على شاشة أفلام صغيرة. وفي بداية عهد

غورباتشيف، جرت العادة أكثر فأكثر على سَحْب نُسخ عن الفيلم الصغير للاتصالات المهمة. تبدأ البرقيات ـ التقارير للمركز بعبارة نموذجية، مثلاً:

"رفيق إيفانوف

١ـ ٧٧ ـ ٨١٩٠ ـ ٩١ ـ ١١١ ـ ١٢٦"،

وتُقرأ على هذا الشكل:

ـ "إيفانوف" هو الاسم الاصطلاحيّ للمديرية الموجهة البرقية إليها في المركز، مثل المديرية الأولى (أميركا الشمالية):

ـ "١" يعني أنّ البرقية تتعلّق بمعلومات لا بتدابير فعّالة أو بتفاصيل عمليّاتيّة تختصّ بعملاء؛

تعيِّن الأرقام المتتالية التي تبدأ بالرقم ٧ كيف كُتب النص؛ يعني الرقم ٧٧ أن النص صادر عن المقرّ، يعيِّن الرقم ٧٨ المصدر والرقم ٧٩ الترجمة من مصدر رسميّ؛

ـ يعيِّن الرقم ٨ سنة وشهر التقرير، هنا شهر تشرين الأول ـ أكتوبر عام ١٩٩٠؛

ـ يُعيِّن الرقم ٩ نوع المصدر: ٩١ عميل (كما في المثل)، ٩٢ إتصال خصوصيّ، ٩٣ دراسة الهدف "Razraborka"، ٩٤ إتصال رسميّ؛

ـ يحدّد الرقم ١١ إمكانية اشتغال الاستعلامات: ١١١ تعيِّن إمكانية الاشتغال (كما في المثل)؛ ١١٢: غير مؤكد؛ ١١٣: غير ممكن.

ـ يشير الرقم ١٢ إلى تَمَوْضُع المصدر: مثلاً، يعني الرقم ١٢١ مصدرًا حكوميًا/ الرقم ١٢٦ الشؤون الخارجية، ١٢١٣ الصحافة.

بحسب ذكريات غورديفسكي، كان الكثير من التقارير للـ K.G.B أقلّ دقّة.

بالطبع، لا تخترع المراكز إلاّ نادرًا تفاصيل حول عملاء شخصيين أو استعلامات أعطاها هؤلاء. لكن، في تقارير حول مواضيع خاصة، تنسب إلى عملاء غير محدّدين معلومات حصلت عليها من وسائل الإعلام، كما تخترع أحيانًا بعض التفاصيل التي تعتقد أنها ستروق للمركز.

كان هذا النوع من الممارسات لا يزال شائعًا في بداية عهد غورباتشيف. هكذا، في ٢٥ آذار - مارس ١٩٨٥، تلقّى مقرّ لندن طلب استعلامات طارئ حول ردود الفعل البريطانية على لقاءات غورباتشيف مع اللجنة الاستشارية في الأممية الاشتراكية. وبسبب عجزه عن الاتصال بمخبريه في الوقت المناسب، اخترع الخطّ PR للجاسوسية المضادة، ببساطة، سلسلة من الأجوبة المتملقة لغورباتشيف وأعطى مصادر اتصالات وهمية. في اليوم التالي، طُلب من المقرّ تقرير آخر مستعجل في موضوع المفاوضات حول دخول إسبانيا والبرتغال في المجموعة الاقتصادية الأوروبية. واكتفى ضابط الخطّ PR، ف. ك. زامورين، بإجراء تجميع من الصحافة البريطانية، وأعدّ تقريرًا ذَكَرَ فيه مرة أخرى مصادر خصوصية أو سريّة. بعد فترة قصيرة، أثّر في المقرّ مقال في الـ Economist Foreign Report يعدّد المجالات التي توصّل فيها الاتحاد السوفياتي إلى مواكبة التقدّم التقنيّ الغربيّ والمجالات التي فشل فيها. وبما أنّه يعلم أنّ "المركز" لن يهتمّ بهذه الأقوال لأنّه سيعتبرها معلومات خاطئة، لم يرسلها المقرّ إلى موسكو لكنه وضع تقريرًا مبنيًّا على المقال المذكور مدّعيًا أنّ التقرير مبنيّ على اتصالات المقرّ. وبما أنّ كثيرين من ضباط المركز قاموا بأخطاء كهذه، فإنهم نادرًا ما يعلنون شكوكهم في مصادر بعض التقارير التي يتلقّونها.

إنّ الاتصال بعملاء - هذا ما تعتبره كلّ المراكز الشكل الأهمّ للاستعلامات في ما يختصّ بجَمْع المعلومات - مهمة تتطلّب عملاً مكثفًا بالإضافة إلى الإجراءات المتكلّفة للمراقبة المضادة التي يقوم بها الـ K.G.B. فمن أجل موعد مع عميل في الساعة الرابعة، على الضابط عادة أن يترك المقرّ في الساعة الواحدة، أن يتبع طريقًا مقررًا سلفًا نحو موقف سريّ قرب مجموعة واسعة من الأبنية إذا أمكن؛ عليه أن يتجنّب التوقّف قرب منزل خاصّ حيث يمكن لرقم سيارته الدبلوماسية أن يثير الانتباه، أو في مكان يمكن أن تراقبه الشرطة. بعد أن يركن سيارته، يلتقي الضابط ضابطًا آخر يدور حول مكان اللقاء منذ ساعة ليتأكّد من أنّ المكان غير مُراقب. في هذا الوقت، يحاول الخطّ XR في السفارة اعتراض الاتصالات الإذاعية لفرق المراقبة في المصلحة المحليّة للأمن للتأكّد من عدم وجود أيّ شيء يوحي بأنّ الضابط أو العميل الآخر متبوعان. يُطلق علىهذا النشاط الاسم الاصطلاحي "اندفاع". يضبط وزميله مذياعي سيارتيهما على طوال موجات جهاز إرسال السفارة الذي يبثّ إنذارًا اصطلاحيًا: الترديد البسيط بالمورس لحرف من الألفباء (يُعيِّن الحرف المُختار ضابط الـ K.G.B الذي يتوجّه الإنذار إليه). في حوالي الساعة الثالثة، إذا لم تُكشف أيّة مراقبة، يترك الضابط سيارة زميله ويذهب سيرًا على الأقدام أو بواسطة النقل المشترك إلى موعده مع العميل في الساعة الرابعة.

رغم كلّ التبدّلات في الـ K.G.B منذ الخمسين سنة الأخيرة، لم تتبدّل أبدًا الأولوية العملياتية الرئيسية للاستعلامات الخارجية منذ تجنيد "الخمسة العظماء". ففي فرع "العمليات" في برنامج عمل عام ١٩٨٤ الموجّه إلى المراكز الخارجية، أعاد كريوتشكوف العبارة التقليدية: "يجب أن تتركز الجهود الرئيسية على تجنيد عملاء ذوي أهمية". حضّ البرنامج المراكز على اكتشاف وسائل جديدة لتجنيد عملائه،

"خاصة من بين الشباب الذين يملكون قدرات تسلّل إلى أهداف مهمّة بالنسبة لنـا"... مـا من شيء يشير إلى أنّ كريوتشكوف قد بدّل رأيه منذ أن أصبح رئيسًا للـ K.G.B عام ١٩٨٨.

منذ استلامه السلطة في آذار ـ مارس ١٩٨٥، رأى ميخائيل غورباتشيف أولويتين للعمليات الخارجية للـ K.G.B. كان مقتنعًا في البدء أنّ سياسة فعّالة تستوجب مصلحة استعلامات حيوية. فسلسلة المبادرات التي لا سابق لها والتي قام بها في الخارج جعلت من الضروري بمكان الحصول على معلومات كاملة قدر الإمكان عن طريقة تلقّيها في الغرب. وازدادت دون شك المتطلّبات من الخطّ PR وهي متطلّبات كانت واضحة قبل أن يهرب غورديفسكي في صيف ١٩٨٥.

في بداية التسعينات، ظهرت الأولوية الرئيسية للـ PDG بوضوح في اختيار ليونيد فلاديميروفيتش شيبارشين لخلافة كريوتشكوف في أيلول ـ سبتمبر ١٩٨٨.

مثل بانيوشكين، رئيس الـ PDG من ١٩٣٥ حتى ١٩٥٦، بدأ شيبارشين حياته المهنية كدبلوماسيّ فقط في الباكستان من ١٩٥٨ حتى ١٩٦٢ ومن ١٩٦٦ حتى ١٩٦٨. هناك بدأ بالتعاون مع مقرّ الـ K.G.B. بعد إقامته للمرة الثانية في إسلام آباد، انتقل إلى الـ K.G.B وبدأ العمل في إيازينيفو بعد إعداده في معهد أندروبوف. عُيّن عام ١٩٧١ في الهند حيث أدار الخطّ PR قبل أن يصبح سفيرًا رئيسيًا في نيودلهي من ١٩٧٥ حتى ١٩٧٧. ثمّ أصبح سفيرًا مقيمًا في طهران بعد سقوط الشاه عام ١٩٧٩، وطُرد منها عام ١٩٨٣، وحين ترك غورديفسكي الـ PDG، كان شيبارشين يعمل منذ عام كمعاون رئيس في المجلس الإداريّ RI الذي يحضّر تقارير الـ PDG للإدارة السوفياتية العليا.

أن يتقدّم هذا الدبلوماسيّ السابق على عدة مرشحين آخرين أكثر خبرة منه لخلافة كريوتشكوف عام ١٩٨٨، لدليل على أنّ تقاريره قد أثّرت كثيرًا في البوليتبورو. ولذلك وَجَبَ عليهم معالجة المشاكل الرئيسية التي تطرحها ردات فِعل الغرب على "التفكير الجديد" في عهد غورباتشيف. وكما ارتبط تعيين غورديفسكي كسفير مقيم في لندن باختصارات غورباتشيف في كانون الأول ـ ديسمبر ١٩٨٤، كذلك جاءت ترقية شيبارشين إلى رئاسة الـ PDG على الأرجح نتيجة ثقة القائد السوفياتي الجديد بتقديراته.

في التسعينات، سيستمرّ الـ K.G.B في تغذية افتتان الإدارة السوفياتية بالتقارير السريّة للغاية. كما في الماضي، استمرّ الـ K.G.B دون شك في تقديم بعض المعلومات التي يستقيها من مصادر عامّة على أنّها ثمرة عمل عملاء سريين. حدّد شيبارشين على الشكل التالي المهمة الرئيسية للـ PDG: "التأكّد من امتلاك الإدارة السوفياتية لمعلومات صحيحة ودقيقة حول الخطط الحقيقية ومشاريع الدول الغربية الكبرى المتعلقة ببلادنا، وحول أهمّ المشاكل العالمية".

منذ عدة سنوات، كان المجلس الإداريّ "ت" أحد أفضل الفروع التي كانت تعمل في داخل الـ PDG. فالمسؤول عنه، الحيويّ والطموح ليونيد سيرغيفيتش زايتسيف والذي بدأ بالتخصّص في التجسّس العلمي والتقني حين كان في مقرّ لندن في الستينات، حاول دون جدوى فَصْل مجلسه الإداريّ عن الـ PDG ليصبح مجلسًا إداريًا مستقلاً داخل الـ K.G.B. فكريوتشكوف لم يكن مستعدًا للسماح لأحد أفضل ما في أمبراطوريته بالتخلّص من مراقبته. وأكّد زايتسيف على أنّ مجلسه الإداريّ ليس فقط مستقلاً بل أنَّ قيمة المعلومات التي يحصل عليها تغطّي مجمل نفقات العمليات الخارجية للـ K.G.B. ورغم فشل محاولته للحصول على استقلاله، تصرّف المجلس

الإداريّ أكثر فـأكثر بمفرده. فصـار يتمّ إعداد ضباطـه فـي معهـد أندروبـوف بشـكل منفصل عن بقية المديريات كما تابعوا دروسًا خاصـة. معظمهـم تقريبًـا يملكـون ثقافـة علمية أو شهادة هندسة. وفي المركز في الخارج، لا يتعاطى أعضاء الخطّ X إلاّ قليـلاً نسبيًا مع زملائهم في الخطوط الأخرى.

رغم ذلك، كان المجلس الإداريّ "ت" جزءًا مهمًا فقط من جهاز أكبر بكثير هـو جهاز الاستعلامات العلمية والتقنية. فالمعلومات المجموعة في مجال الدفاع ــ الأولويـة المطلقة ـ نُسِّقت في بداية الثمانينيات بواسطة اللجنة العسكرية ـ الصناعية (VPK) التي رُفعت في عهد غورباتشيف إلى رتبـة لجنـة الدولـة للمجموعـة العسـكرية ـ الصناعيـة المكلّفة بمراقبة إنتاج الأسلحة. يرأس هذه اللجنة نائب رئيس الوزراء وهي تغطي عمل خمس وكالات: الـ GRU، المجلـس الإداريّ "ت" فـي الـ PDG فـي الــ K.G.B، لجنـة الدولة للعلوم والتكنولوجيا، وحدة سرية فـي أكاديميـة العلـوم ولجنـة الدولـة للعلاقـات الاقتصادية الخارجية. وتثبت الملفات المُعطاة من عميل التسلّل الفرنسي فـي المجلـس الإداريّ "ت" واسمه الاصطلاحيّ "فارويل" في بداية الثمانينات، أنّه، فـي عـام ١٩٨٠، أعطـى الـ VPK توجيهـات مـن أجل ٣٦١٧ "امتـلاك لمـواد علميـة وتقنيـة" مـن بينهـا ١٠٨٥ تحقّقوا خلال السنة لصالح ٣٣٩٦ مشروعًا سوفياتيًا[١]. فـي بدايـة الثمانينيـات، ٩٠٪ من الاستعلامات المعتبرة مفيدة كثيرًا في الـ VPK جاءت من الـ GRU ومن الــ K.G.B. رغم أنّ قسمًا كبيرًا من المعلومات العلمية والتقنيـة جـاء مـن مصـادر غربيـة غير سريّة (مؤتمرات علمية، مجلات تقنية)، فقد اعتُبر أنّ الاسـتعلامات السـريّة تملـك اسـتيرادًا مهمًـا. عـام ١٩٨٠، حصلـت الــ VPK علـى ٦١،٥٪ مـن معلوماتهـا

---

١ - Hanson Philip, *Soviet Industrial Espionage: Some New information,* (London,1987).

من مصادر أميركية لا تقع كلّها في الولايات المتحدة، على ١٠،٥٪ من ألمانيا الفدرالية، ٨٪ من فرنسا، ٧،٥٪ من بريطانيا و ٣٪ من اليابان.

يخضع أقلّ من نصف نشاط المجلس الإداريّ "ت" لتوجيهات الـ VPK. فمن بين ٥,٤٥٦ "اقتطاع" (أوليات، أجزاء،...إلخ) حقّقه هذا المجلس الإداري عام ١٩٨٠، ذهب ٤٤٪ إلى الصناعات الدفاعية، ٢٨٪ إلى الصناعة المدنية أي إلى لجنة الدولة السوفياتية للعلم والتكنولوجيا و ٢٨٪ إلى الـ K.G.B ووكالات أخرى. في السنة نفسها ـ ربّما غير نموذجية ـ جاء أكثر قليلاً من نصف معلومات المجلس الإداريّ "ت" من مصالح الاستعلامات الحليفة خاصة الألمانية الشرقية والتشيكية.

خلال عام ١٩٨٨، حيّا غورباتشيف بحرارة "العمل الحازم" لإدارة الـ K.G.B والـ GRU، "الهادف إلى تحسين نشاط هذه المؤسسات في الظروف التي أوجدتها المرحلة الحالية من نموّ مجتمعنا من التطوّر الديمقراطي"...

كانت أيام تشيبريكوف كرئيس للـ K.G.B معدودة وخَلَفَه في تشرين الأول ـ أكتوبر ١٩٨٨ كريوتشكوف... بقي في البوليتبورو ١١ شهرًا أيضًا قبل أن يترك منصبه لكريوتشكوف نفسه. فتعيين المسؤول عن مصالح الاستعلامات الخارجية في رئاسة الـ K.G.B يدلّ على نفوذ الـ PDG في عهد غورباتشيف وعلى الأهمية التي يعطيها القائد السوفياتي نفسه لتقارير هذه المصلحة. ألقى كريوتشكوف خطابًا عنوانه "رؤية موضوعية للعالم" بمناسبة استلامه مهامه في رئاسة الـ PDG أثناء اجتماع في وزارة الشؤون الخارجية. كان هذا الخطاب مزيجًا عجيبًا من التفكير القديم والجديد يسمح بالشك في مدى التغيير الحاصل في رؤية الـ PDG للغرب منذ العهد المتشائم للغاية للعملية RYAN أي منذ خمس سنوات. فالرؤية المعتمدة متفائلة بشكل عامّ: فتطوّرات نزع السلاح، لا سيّما "استبعاد خطر صراع عسكريّ كبير"، أصبحت هدفًا

"ممكن التحقيق". أضاف أنّ الصورة العالمية للاتحاد السوفياتي تحولت بسبب البيريسترويكا: "إنّ صورة "العدو"، صورة الدولة السوفياتية "التوتاليتارية"، صورة المجتمع النصف متطوّر هي على طريق الزوال، كما أنّ معارضينا الإيديولوجيين والسياسيين بدأوا يدركون الطبيعة العملية لإصلاحاتنا وأثرها الجيّد على السياسة الخارجيّة". بعد ذلك، راح مدير الـ PDG يقوم بهجوم تقليديّ ضدّ مصالح الاستعلامات الغربية "وخاصة الأميركية".

حين أصبح رئيسًا للـ K.G.B، هدأ قليلاً على الأقلّ علانية لأنّه انطلق في حملة علاقات عامة لا سابق لها، وأعلن: "يجب أن يكون للـ K.G.B، لا في بلادنا فقط بل في العالم أجمع أيضًا، صورة متناسبة مع الأهداف النبيلة التي نسعى إليها في عملنا، على ما اعتقد". في بداية ١٩٨٩، أصبح كريوتشكوف الرئيس الأول في تاريخ الـ K.G.B الذي يستقبل سفير الولايات المتحدة في مكتبه. خلال الأشهر التالية، أعطى، هو وضباط آخرون كبار في الـ K.G.B، مقابلات ومؤتمرات صحفية لمراسلين غربيين، وشارك في فيلم "الـ K.G.B اليوم" الذي بيعَ إلى التلفزيونات الأجنبية. واستقبل رئيس الـ K.G.B عدة مرات الصحافة والتلفزيون من أجل الشعب السوفياتي ومَثَلَ أمام مجلس السوفيات الأعلى أثناء جلسات سبقت الانتخاب الذي سيثبّته في مهامه، من أجل الإجابة على ٩٦ سؤلاً طرحها عليه النواب (رغم أنّه ثبّت في الرئاسة بأكثرية ساحقة، فقد كانت هناك ٢٦ ورقة بيضاء و٦ أصوات ضدّ).

خلال حملته للعلاقات العامة، لم تتغيّر أبدًا الرسالة الرئيسية لكريوتشكوف؛ "يحترم الـ K.G.B بدقة الشرعية السوفياتية" ويعمل "تحت الإشراف المشدّد للحزب" ويقبل بسرور، بل إنّه اقترح، أن تراقب نشاطاته اللجنة الجديدة لمجلس السوفيات الأعلى حول دفاع وأمن الدولة كما أنّه ابتعد جدّيًا عن فظائع ماضيه الستالينيّ ويقترح "نظامًا

كاملاً من الضمانات" من أجل التأكد من عدم عودة هذا الماضي... فتأكيده على أنّه "ليس للـ K.G.B عملاء سريّون لكن متعاونون معه" اصطدم مع ذلك بتجربة ملايين السوفيات. فقال له بوريس إيلتسين صراحة: "أولاً، ليس لمعظم المنظمات الكبيرة متعاونون بل شبكتهم الخاصة من العملاء في هيئات أمن الدولة، ممّا يسبّب لمجتمعنا أضرارًا معنوية كبيرة. إن ذلك غير محتمل بالنسبة لنا في فترة الدمقرطة"[1].

---

١ - أندرو وغورديسكي، الاستخبارات السوفياتيّة، ص٦٨٢ - ٧٠٤، ٧١٠، ٧١٢.

تأثير السلطات على هيكل الـKGB

ها هي شابّة في موسكو تقف في تمام الساعة التاسعة صباحًا من يوم الحادي والعشرين من شهر تمّوز - يوليو ١٩٨٣ على عتبة شقّة منزليّة.

هناك شيء غريب يحدث، إذ يفتح باب الشقّة على مصراعيه، وهذا عكس العادة الدارجة عند والديها...

تدخل الفتاة إلى الشقّة، ويبدو ظاهريًا أنّ كلّ شيء يسير بشكل طبيعي... ثمّ وفجأة، تتوقّف الفتاة مذهولة أمام جثّتَي والديها الممدّدتين على الأرض، إنّهما: العميد البحري "جورجي ن. كولستياكوف" وزوجته، اللذين وجدتهما مقتولين بضربات مطرقة.

أخذت الميليشيا السوفياتيّة تتفحّص الشقّة بدقّة، بعد وصولها مباشرة، حيث تمّ جمع كلّ شيء وتصويره. ولكن بدا الرفيق الوسيط المكلّف بالتحقيق متضايقًا ومتذمّرًا من هذه القضيّة...

إذًا... ماذا حدث في أمسية يوم ٢١ تمّوز - يوليو؟ ولمَ قُتل الرفيق العميد في البحريّة جورجي ن. كولستياكوف وزوجته؟ كانت القضيّة، بالتأكيد، شديدة الدقّة والتعقيد، إذ لا يكن يصادف أن يُقتل يوميًا رجل من السلطة وزوجته وسط مدينة موسكو...

زاد في تعقيد التحقيق اكتشاف أنّ السرقة لم تكن هي الهدف الأساسيّ من الجريمة... إذ كانت الأشياء الثمينة والمجوهرات ما زالت في مكانها. أي أنّه لم يُسرق

أيّ شيء تقريبًا... وكشفت الميليشيا النقاب عن فقدان بذلة المراسم العسكريّة للرفيق كولستياكوف، وهي بذلة رائعة الجمال مزدانة باثنتي عشرة ميداليّة.

أُعلن عن وفاة العميد البحري كولستياكوف بتاريخ الرابع والعشرين من شهر تمّوز - يوليو على صفحات صحيفة القوى المسلّحة السوفياتيّة "كرازنايا زفيزدا"... وبدأت الإعلانات التي تحمل أسماء الأعضاء الهامّين في أركان الجيش الأحمر بالظهور بدءًا من المريشال "ديمتري ف. أوستينوف" وزير الدفاع ورئيس الأركان...

توفّي العميد البحري كولستياكوف عن عمر يناهز الواحد وثمانين عامًا، بعد أن كان بطلاً من أبطال الحرب العالميّة الثانية، كما وكان يشغل منصب قائد الأسطول السوفياتي في المحيط الهادي...

لم يغب عن نظر المراقبين لدى قراءة الصحيفة عدم التطرّق لا إلى الطريقة التي توفّي بها العميد البحري كولستياكوف ولا إلى وفاة زوجته ولا إلى ظروف حادث القتل.

بدأت الأقاويل تزداد في موسكو، حيث بدأ كبار الاختصاصيّين العسكريّين يتساءلون حول حادث وفاة الأميرال البحري وزوجته، وحول الأسباب التي دفعت الكرملين إلى تغيير شكل الحقيقة... إذ أخذ زملاء كولستياكوف يتحدّثون عن حوادث قتل سياسيّة.

في السابع عشر من شهر كانون الأوّل - ديسمبر من العام نفسه، ردّت صحيفة الإزفستيا على هذه الأقاويل والشائعات من خلال نشرها مقابلة مطوّلة جرت مع واحد من رجال الشرطة، شهد استجواب قاتلَي الأميرال البحري كولستياكوف منذ توقيفهما... ولكن لم يدلِ رجال الشرطة بأيّ معلومة حول تاريخ الجريمة، وظروف

حدوثها وأسبابها، كما تناسوا مرّة أخرى ذكر إسم قاتل السيّدة كولستياكوف بحجّة أنّه أمر سرّي... وهكذا أصبحت الرسالة المطلوب تبليغها واضحة بالنسبة للقارئ السوفياتيّ العاديّ: وهي إعتراف الكرملين بمقتل الأميرال البحري كولستياكوف... ولكنّهم اعتمدوا إظهار حادث القتل على أنّه عادي، وليس عقابًا سياسيًّا نتيجة حدوث سوء تفاهم...

في الوقت نفسه، تمّ تسريب إشاعة أخرى تقوم على أساس تعرّض الأميرال كولستياكوف لحادث القتل على أيدي سارقين لا يبغون، ولا يطمحون، إلاّ سرقة لباسه الرسميّ!

قد تبدو هذه الشائعة غير مقبولة في أيّ بلد عدا الاتّحاد السوفياتيّ، وذلك لوجود سوق سوداء في موسكو خاصّة ببيع ميداليّات ونياشين العسكريّين الرائعة، حيث تمتلئ الغابة التي تغطّي هضبات لينين في ضاحية العاصمة السوفياتيّة بهؤلاء التجّار ليجعلوا منها سوقًا تجاريّة في أيّام العمل التي تسمح بذلك، ويمكن أن نميّز هناك وجود مجموعات صغيرة سريّة من الأشخاص الذين يتجادلون بصوت منخفض... ولم يكن من النادر إمكان الاقتراب من واحد من هؤلاء البائعين الغرباء الذين يفتحون معطفهم ليعرضوا ميداليّاتهم الذهبيّة والفضيّة وهي معلّقة في بطانة المعطف، تلك الميداليّات التي تهتزّ متلألئة بشرائطها الملوّنة.

بين تلك الميداليّات، ميداليّة بطل الاتّحاد السوفياتي التي وصل ثمنها إلى ٥,٠٠٠ روبل، ثمّ تلك الخاصّة بنظام "بانيير" الأحمر التي بيعت بـ ٢,٥٠٠ روبل... أمّا اللباس الرسمي للأميرال البحري كولستياكوف فقد بيع بحوالى ١٥ ألف روبل داخل هذه السوق السوداء. وهذه ما أثار فكرة وجود قاتل آخر... ويبقى هذا الافتراض بمثابة شائعة.

قامت الميليشيا بإعطاء تفاصيل دقيقة حول حادث مقتل الأميرال البحري كولستياكوف وزوجته، وذلك بهدف دعم فكرة هذه الشائعة... وتتلخّص هذه التفاصيل بأنّ الرجل والمرأة المتّهمين الموقوفين بتهمة تنفيذ جريمتَي قتل يعودان في أصلهما إلى منطقة "فرونيج"، التي تبعد مسافة ٦٠٠ كلم عن العاصمة موسكو. ولكنّ هذا التفصيل لم يُفِد إلاّ في مواجهة موقّتة لفكر المشبوهين، إذ كان من الصعب في بلد يستحيل الانتقال فيه من مكان إلى آخر دون إذن خروج، مغادرة الوجين "فورنيج" إلى موسكو، وفي حال إمكانيّة حدوث مثل هذا الأمر، فليس معروفًا أبدًا كيفيّة حصول القاتلين على عنوان الأميرال البحري كولستياكوف، باعتبار أنّه لا يوجد دليل هاتف عموميّ في الاتّحاد السوفياتيّ... أضف إلى ذلك أنّه يصعب تصوّر مخاطرة صغار تجّار بالذهاب لقتل أميرال يعمل في الأسطول السوفياتيّ البحري، وبطل حرب، مقابل فقط ١٥,٠٠٠ روبل، هي ثمن اللباس الرسميّ، وتركهم أشياء تزيد قيمتها كثيرًا على هذا المبلغ...

ثمّ ها هو واحد من أقرب المقرّبين من الأميرال البحري كولستياكوف وزوجته، واسمه "يوري ليفيتان"، يموت أيضًا بعد مرور أسبوعين على مقتل الأخيرَين.

يوري ليفيتان، كان مذيعًا في الراديو ذائع الصيت طيلة مدّة الحرب العالميّة الثانية، أضف إلى أنّه كان واحدًا من أهمّ أعضاء الدونيّين الذين يحكمون في موسكو. لذا، فمن المستحيل معرفة أيّ شيء حول حادث اختفائه، وقد ظلّ أمر وفاته أكثر غموضًا من وفاة الأميرال البحري كولستياكوف... ومع ذلك ما لبثت الشائعات أن جمعت بمنتهى السرعة بين موته ومقتل الزجين كولستياكوف... فعاد المسرح السياسيّ للتحرّك والتحقيق من جديد.

من المناسب أيضًا الإشارة إلى أنّ موسكو كانت في خلال تلك الحقبة تعيش حالة من الاضطراب وعدم الاستقرار... حيث توفّي "ليونيد بريجينيف" خلال شهر تشرين

الثاني - نوفمبر ١٩٨٢، وبذلك عرف الكرملين واللجنة المركزيّة للحزب الشيوعي السوفياتي PCUS مرحلة من التنقّلات وعدم الاستقرار، ستنتهي بوصول زعيم المخابرات السوفياتيّة KGB السابق "يوري أندروبوف" إلى خلافة بريجينيف.

بذلك لم يعد المجال مفتوحًا للتغنّي بالإطراءات والمديح على مكان يشغل منصب السكرتير الأوّل للّجنة المركزيّة للحزب الشيوعي السوفياتي PCUS منذ تشرين الأوّل - أكتوبر ١٩٦٤، تاريخ إبعاد "خروتشيف" عن مركزه... وهكذا انتهى عهد بريجينيف.

كان الأميرال البحري المغدور جورجي كولوستياكوف واحدًا من الأصدقاء القلائل لليونيد بريجينيف، ويبدو أنّه قام، قبل فترة قليلة من مقتله، بمشروع كتابة مذكّراته، بمساعدة صديقه المذيع السابق المغدور يوري ليفيتان...

كان يعلن عن الكتاب العتيد وكأنّه قصيدة تتغنّى بمجد ليونيد بريجينيف...

وهنا، جاء التساؤل:

ترى، ألهذا قُتل هذان الرجلان؟

ولكن، يبقى هناك أمر واحد مؤكّد، وهو أنّ اختفاءهما يدلّ على بداية العهد القصير جدًّا لأندروبوف... وظلّ هناك عدد لا بأس به في موسكو، ممّن يعتقدون بوجود بصمات الـ KGB على حوادث الموت المشتبه بها تلك.

كان يُعتبر كلّ تغيير يطرأ على السلطة في الاتّحاد السوفياتيّ على أنّه بمثابة فرصة متاحة لإثارة الاضطرابات، حيث يتوقّف بعض الأوساط فجأة، ودون أيّ تفسير مسبق، عن الظهور على مسرح الأحداث. وهكذا تصبح حكاية الخلافة في المناصب في الكرملين مناسبة لحوادث اختفاء شخصيّات رفيعة المستوى بشكل غامض، أمثال الأميرال البحري جورجي كولوستياكوف وزوجته وليفيتان.

يعود تاريخ مثل هذه الاضطرابات إلى أول رئيس للاستخبارات السوفياتيّة... ويرتبط تغيير السكرتير العام، في جميع الأحوال، وعلى نطاق واسع، بالتبدّلات والتغيّرات التي تطرأ على المخابرات السريّة. وهذا ما دفع رئيس الـ NKVD خلال الفترة الواقعة بين عامي ١٩٣٨ و١٩٥٣ "لافنتري ب. بيريا" الشخصيّة المتفانية في سبيل ستالين، إلى عدم إنقاذ رئيسه... حيث تمّ توقيفه والحكم عليه بالإعدام خلال نفس العام الذي توفّي فيه رئيسه.

في عهد "نيكيتا خروتشيف"، عُهد بجهاز الاستخبارات من جديد إلى وزارة الداخليّة MVD، وعاد كلّ شيء كما كان قبل عام ١٩٤٥، أي عندما قام ستالين بحلّ استخبارات الـ MVD بهدف تركيز السلطة بشكل رئيسيّ بين يدي بيريا. وأخذ الجنرال "كروكلوف" يدير الـ MVD في عهد خروتشيف. ثمّ ألّفت اللجنة المركزيّة خلال شهر آذار ـ مارس ١٩٥٤، لجنة مصغّرة تختصّ بأمن الدولة، لم تلبث أن ذاع صيتها وشهرتها في جميع أنحاء العالم عبر حروفها الثلاثة: KGB. أمّا وصف هذه اللجنة بكلمة "مصغّرة"، فكان يشير خلال تلك الحقبة إلى أنّ البوليس السرّي المتعرّض لأشدّ الانتقادات، لم يكن يستحق أبدًا لقبًا أكثر أهميّة من عبارة "لجنة مصغّرة"...

وعُهد بإدارة الـ KGB إلى الجنرال "سيروف"، وهو رجل الشرطة الذي وضع فيه خروتشيف كامل ثقته. ولكن كان لسيروف ماض زاخر بالمشاكل، خاصّة في بلاد البلطيق، حيث أخذ يطبّق النظام السوفياتيّ هناك مستخدمًا الترهيب والتخويف ليُنقَل بسرعة، وخلال عام ١٩٥٨، لتسلّم إدارة الاستخبارات العسكريّة GRU.

وهكذا اتّخذت اللجنة المركزيّة، بعد ذلك التاريخ، قرارًا حذرًا يقضي بتكليف الرجال السياسيّين بإدارة بوليسها السرّي عوضًا عن رجال الشرطة العاديّين الذين بإمكانهم التملّص من الرقابة، في حال رغبتهم بالخروج عن الطريق السليم

والابتعاد عن أن يكونوا الرجال المخلصين لواحد أو لعدد من أعضاء اللجنة المركزيّة...

وهذا ما حدث مع واحد من أهمّ مخبري ستالين: "ألكسندر شابلين"، الذي وصل به الأمر خلال سنة ١٩٦١ إلى حدّ تقديم تقرير سرّي حول جرائم ستالين إلى الصحافيّين الأجانب!... عندئذ أُجبر شابلين على تقديم استقالته، وتسلّم مكانه الرفيق "سيميتشازني"، ليصبح سكرتيرًا للجنة، ثمّ عضوًا في المكتب السياسيّ.

ثمّ جاء وصول ليونيد بريجينيف إلى السلطة خلال عام ١٩٦٤، ليهزّ طموحات شابلين... التي أخذت تتراجع تدريجيًا منذ عام ١٩٦٥... ثمّ جاء تسليم بريجينيف عوضًا عن خروتشيف ليثير تيّارًا شديدًا من التبدّلات الجديدة في إدارة الـ KGB.

جاء يوري أندروبوف خلال شهر آذار ـــ مارس عام ١٩٦٧ ليحلّ مكان سيميتشازني في منصبه، ثمّ إنّه لم يترك منصبه كرئيس للاستخبارات السوفياتيّة KGB إلاّ مع حلول شهر أيّار ـ مايو ١٩٨٢، لينتسب إلى سكرتاريّة اللجنة المركزيّة. ويبدو مع ذلك عدم رغبة بريجينيف ورجاله في تسليم منصب رئاسة الـ KGB لأندروبوف، إذ كان هذا الأخير يعتبر في بداية حياته العمليّة أنّه حامي "كوزينين"، عضو المكتب السياسي الذي كان يريد ستالين تأسيسه في فنلندا. وتسلّم أولى أسلحته من خلال وزارة الخارجيّة حيث عيّن سفيرًا للاتّحاد السوفياتيّ في هنغاريا خلال المدّة الواقعة بين ١٩٥٤ و١٩٥٧، كما وأنّه حذّر موسكو من ثورة ١٩٥٦ الدمويّة، قبل حدوثها بحوالي الشهرين. وأعاد الأمور إلى ما كانت عليه في حكومة "جانوس كادار"، الذي يُعتبر مثالاً يحتذى بالنسبة للكتلة الشرقيّة، وذلك بعد الانتهاء من حوادث بودابست.

هذا النجاح سيزيد من شهرة أندروبوف لمدّة طويلة، لدرجة أنّه سيجري الحديث خلال عام ١٩٨٢ عمّا يماثل إجراء أندروبوف الذي اتّخذه في بولونيا.

أخذ أندروبوف، بعد الانتهاء من عمله في هنغاريا بالتوجّه نحو تحسين علاقاته مع الأحزاب الشيوعيّة التي تصل إلى السلطة في كلّ من الصين وجنوب شرق آسيا وكوبا وفي دول أوروبّا الشرقيّة أيضًا. وبذلك نجد أنّ أندروبوف يمثّل دبلوماسيًّا تولّى إدارة الـ KGB خلال عام ١٩٦٧.

بالمقابل، لم يكن بريجينيف يثق به أبدًا. لذا قام، من باب الحذر، بتسليم منصب إدارة الـ KGB إلى صديقه القديم الجنرال "سيمون تسفيكون"، خلال نفس العام، ذاك الجنرال سيصبح بمنصبه هذا واحدًا من نوّاب رئيس الـ KGB الخمسة.

كان تسفيكون يعمل كرجل شرطة ضمن تنظيمات أمن الدولة منذ عام ١٩٣٩، أضف إلى أنّه يتمتّع بميزة صلة قربى بسكرتير اللجنة المركزيّة السوفياتيّة PCUS باعتبار أنّه تزوّج أخت زوجة بريجينيف. ثمّ أصبح، في ما بعد، النائب الأوّل لرئيس الـ KGB، أي الشخصيّة الثانية بعد أندروبوف، عام ١٩٧٨، برتبة جنرال في الجيش.

تعتبر مهمّة تسفيكون بمنتهى البساطة، وتقوم فقط على أساس "مراقبة تحرّكات أندروبوف"، لدرجة أنّ الأقاويل في موسكو بدأت تعلن خلال عام ١٩٨١ عن احتمال حدوث سوء تفاهم بين أدروبوف وبين تسفيكون، ولكن أخذ المرض يشتدّ على المدافع عن تسفيكون وحاميه: بريجينيف، ليصبح الجنرال بعد مرور فترة بسيطة من المجد، مهدّدًا بسوء التفاهم...

جرت العادة في موسكو على انتظار موت السكرتير العام قبل التحدّث عن قضاياه العائليّة وعن أجداده وأولاده... وهكذا بدأت نهاية عهد بريجينيف تشير إلى حالة استثنائيّة من الفصل... إذ بدأت القصص والحكايات التي تثير تعاسته تظهر مع نهاية عام ١٩٨١.

فقد برز في البداية تساؤل، على سبيل المثال، حول العلاقة الخاصّة التـي حصلت بين راقصة الليدو في باريس وبين إبن بريجينيف "يوري ليونيدوفيتش"... كما ازداد الحديث حول الأمسيات الخاصّة التي تجمع بين ابنة بريجينيف "غالينا ليونيدوفيتش" وبعض الشخصيّات من سيرك موسكو.

لم تكن هذه التساؤلات حتّى ذلك الحين، إلاّ إشاعات فقط، مع عدم وجود أدنى شكّ لدى المراقبين في أنّ يوري أندروبوف والـ KGB كانا وراء هذه الحملة من الشائعات التي ستؤدّي في ما بعد إلى إحداث عمليّة تطهير حقيقيّة حيث بدأت، آنذاك، تظهر أوّل موجة من حوادث القتل المشتبه بها، التي ستصل إلى أوجها مع عمليّات اختفاء الأميرال البحري كولوستياكوف وزوجته وصديقهما يوري ليفيتان.

في الثاني والعشرين من شهر كانون الثاني ـ يناير ١٩٨٢، ظهر إعلان وفاة الجنرال "تسفيكون"، مفسرًا الحالة التي أدّت إلى وفاته... بجملة مفادها "نتيجة فترة طويلة وعصيبة من المرض".

لم يكن هناك في هذا الإعلان أيّ عامل يدعو إلى الشكّ أو إلى طرح أيّ تساؤل حول هذه الوفاة، ولكن علينا ملاحظة أنّ هذا الإعلان أدّى إلى طرح بعض التساؤلات التي بدت، في بادئ الأمر من خلال إعلان الوفاة رقم ٢ الصادر عن المخابرات السوفياتيّة KGB، الذي يحمل توقيع ليونيد بريجينيف، قريبه وحاميه منذ ما يزيد عن الثلاثين عامًا، ثمّ من خلال دفن الجنرال على عجل، رغم انتسابه وارتباطه بنخبة من التدوين السوفياتي. ولم تكن أجوبة هذه التساؤلات موجودة لا في جدار الكرملين ولا في مقبرة الراهب "نوفوديفيتشي" في موسكو، المخصّصة، بشكل عام، للشخصيّات الهامّة. وهكذا فقد دُفن الجنرال في مقبرة "فاكتانكوسفكوا" العاديّة ودون أيّ مراسم.

لم يصدّق أحد، ولا حتّى في موسكو، أنّ وفاة الجنرال تسفيكون كانت طبيعيّة. حيث بدأت الأقاويل تتحدّث بين رجال الدولة حول وجود سبب آخر وراء اختفاء قريب بريجينيف الذي فشل في أداء مهمّته في أنّه لم يتمكّن من مراقبة رئيس الـ KGB وفق الصورة المطلوبة. وهكذا عُلم، في ما بعد، بأنّ الـ KGB كانت تحضّر للوقوف في وجه هذه الادّعاءات من خلال توقيف بعض ممّن يحيطون بعائلة سكرتير اللجنة المركزيّة PCUS بتهمة الاشتباه بهم... إذ ربّما يكون الجنرال قد قام مذعورًا بتحذير "ميخائيل آ. سوسلوف"، سكرتير اللجنة المركزيّة والشخصيّة السوفياتيّة الحقيقيّة رقم ١ منذ بداية مرض بريجينيف، وربّما تكون المحادثات قد فشلت بسرعة وتخاصم الإثنان مع بعضهما البعض. فما كان من سوسلوف إلاّ أن نصح الجنرال بأن ينتحر... وهكذا لقي الجنرال حتفه بعد مرور عدّة أيّام... ليأتي السبب في الوفاة، حسب ما قاله صحافيّ سوفياتيّ، بأنّ موت تسفيكون سببه الانتحار عن طريق تناول السمّ. في حين عرضت الصحافة السوفياتيّة، بعد مرور ثلاثة أيّام، سبب وفاة سوسولوف نتيجة إصابته بأزمة قلبيّة. وما يزال من المستحيل الحديث عمّا إذا كان حادث وفاة سكرتير اللجنة المركزيّة طبيعيًا أو مفتعلاً. ولكن ما هو مؤكّد تمامًا، أنّ هذا الأمر أوصل إلى تسمية "يوري أندروبوف"... وتعيينه في الرابع والعشرين من شهر أيّار - مايو كرئيس للمخابرات السوفياتيّة KGB مكان سوسولوف...

هذا في حين أوكل منصب "تسفيكون" للجنرال "جورجي تسيني"، البالغ من العمر ٦٤ عامًا، والمساعد السابق للشخصيّة رقم ٢ في الـ KGB وصديق بريجينيف. ثمّ تمّ نقله بشكل سريع ليعيّن في منصب آخر أشدّ غموضًا، وليتمكّن معه من الإحساس بالسعادة في خروجه دون أيّ ملاحظات حوله. وذلك باعتبار أنّ المعسكر المعارض لبريجينيف بدأ، منذ ذلك التاريخ

فصاعدًا، التوسّع في مجال عمله. وهكذا بدأت ساعة الخطر تدقّ بعد أولى حوادث القتل المشتبه بها.

قامت المخابرات السوفياتيّة KGB بعد موت الجنرال تسفيكون بحملة واسعة ضدّ الفساد وانحلال الأخلاق، تلك الحملة التي تجلّت بعشرات من الاعتقالات، منها اعتقال "بوريس بورياتيا" المدعو "تسيغان" بتهمة "التجارة بالمجوهرات والنقود الأجنبيّة" بما فيها المتاجرة بالدولارات...

كان بوريس، أو تسيغان، مقرّبًا من إبنة ليونيد بريجينيف حيث اعتاد الإثنان على اللقاء معًا في مطعم راق خاصّ بطبقة مسرح "بان - يونيون" بشارع "غوركي" في موسكو. ثمّ تتالت الشائعات بعد ذلك حول وفاته الغامضة، في السجن. ومن الممكن الاعتقاد بأنّه تمّ إطلاق سراحه مقابل أن يعيش مختبئًا في الاتّحاد السوفياتيّ...

تميّز عمل الـ KGB في انشغاله بالقضاء على قضايا الفساد هذه في جميع الأوساط. تلك القضايا التي تشغل، بشكل طبيعيّ، قسم وزارة الداخليّة MVD والمطلق عليه إسم OBKHSS، وهو المكتب الخاص بالنضال ضدّ قضايا الاختلاس بين عناصر الطبقة الإشتراكيّة. ولكن كان أندروبوف قد ورّط بذلك الـ KGB في الكثير من "قضايا الفساد الضخمة". وأصبح قول هذه الجملة الأخيرة في الاتّحاد السوفياتيّ يعني، بشكل تلقائيّ، شخصيّات سياسيّة من النظام الحاكم. وكان معظم هذه الشخصيّات المتورّطة آنذاك، أصدقاء بريجينيف.

إذ لم يكن هناك أيّ كلمة أمام "أبناء العمّ الصغار" التابعين للـ MVD، حسب ما يدعوهم عملاء الـ KGB، خلال التحقيقات، فإنّه لن يكون، في المقابل، من النادر اهتمامهم بالمظهر الماديّ للعمليّة. لذا ها هم "أبناء العمّ الصغار" يقومون في السابع والعشرين من شهر شباط - فبراير بتنفيذ طلب الـ KGB بتوقيف "أناتولي أ.

موليفاتوف" مدير سيرك موسكو ونائب وزير الثقافة والصديق الودود لـ"غالينا" إبنة بريجينيف و"بوريس بورياتيا". كما حصلت الـ KGB في مركزها على ما يزيد عن ملايين الدولارات من المجوهرات والنقود الأجنبيّة.

وهكذا، عادت حالة الاضطراب إلى موسكو... إذ بدأت حملة جديدة من الشائعات والأقاويل تدور حول إبن سكرتير اللجنة المركزيّة PCUS، وحول استفادته من منصبه كنائب لوزير التجارة الخارجيّة في سرقة مال الدولة وتحويله لشراء مجوهرات وفرو للراقصة الباريسيّة. في حين لم يرتكب نائبا وزير التجارة الخارجيّة أي خطأ يذكر، وهذا ما زاد من جذع "يوري بريجينيف" الذي أخذ ينتظر تتمّة توالي الأحداث.

وفي المرحلة نفسها تمّ توقيف مدير أشهر مخزن للأغذية في موسكو "يوري ك. سوكولوف" الذي يُعتبر صديقًا قديمًا لعائلة بريجينيف التي ثابرت باستمرار على التردّد إلى مخزنه في شارع "غوركي" هذا، وقد كشفت المخابرات السوفياتيّة KGB لديه عن وجود مجوهرات ونقود وأشياء أخرى مسروقة يصل ثمنها إلى أربعة ملايين دولار. وهكذا تمّ إلقاء القبض على سوكولوف بتهمة الفساد حيث أُعدم رميًا بالرصاص خلال شهر تمّوز من عام ١٩٨٦...

أخذت الجبهة التي فتحها رئيس المخابرات السوفياتيّة KGB ضدّ المقرّبين من بريجينيف تزداد وتتطوّر من نضال بين "أبناء العمّ الصغار" التابعين للـ MVD والـ"أخوة الكبار" التابعين للمخابرات السوفياتيّة KGB، حيث أصبحت جميع أنواع الضربات مباحة. وبالتالي ازداد عدد الضحايا على نطاق واسع، حيث نجد من بينهم اللواء في الشرطة "إريك س. أبراموف" البالغ من العمر ٥٢ عامًا، وهو الذي شغل منصب المدير العام لـ"النظام الشعبي" التابع لوزارة الداخليّة في الاتّحاد السوفياتي MVD، أضف إلى أنّه كان رئيسًا للشرطة السوفياتيّة. وقد أكّد إعلان وفاته، الذي نُشر

في صحيفة البرافدا مع بداية شهر آذار ـ مارس ١٩٨٢، على أنّ حادث الوفاة حصل فجأة ودون ذكر أيّ تفاصيل أخرى. وهكذا لم يعد هناك لتصفية الحساب إلاّ خطوة واحدة... على زعماء الكرماين تخطّيها.

من غير المعروف ما هو عدد ضحايا هذه الحرب الداخليّة التي جرت بين كلّ من المخابرات السوفياتيّة KGB ووزارة الداخليّة السوفياتيّة MVD، إلاّ أنّه يبدو أنّ هناك خسائر أخرى تمسّ واحدة منها بطريقة أو بأخرى الاستخبارات الفرنسيّة، وذلك نظرًا لوجود من يسمّى "فارويل"، وهو جندي للاستخبارات في الـ KGB الذي منح فرنسا نظام المعركة الكامل الخاصّ بالإتحاد السوفياتيّ من خلال مادّة التجسّس الصناعيّة والعلميّة والتقنيّة، حيث تمّ، حسب الـ DST، إعدام فارويل رميًا بالرصاص، لقيامه هو نفسه عام ١٩٨٢ بقتل شرطيّ متحمس من الـ MVD كان يحقّق في قضيّة تفشّي الفساد داخل الـ KGB...

ويتساءل باحثون: تُرى هل كان ذلك حقيقة أم كذبًا؟ ويجيبون: قد نكون لا ندري شيئًا حول هذا الموضوع، ولكن من المؤكّد أنّ فارويل سقط ضحيّة حرب الاستخبارات. كما وأنّه من المحتمل أيضًا استقالة الـ DST من حقبة اضطراب حدثت في تاريخ مجموعة الاستخبارات السوفياتيّة وهدفت إلى خلط الأمور وحماية مصير عميلها ثمّ جاء موت بريجينيف ووصول يوري أندروبوف إلى السلطة، خلال شهر تشرين الثاني ـ نوفمبر ١٩٨٢، ولكن لم يخفّف هذا من الاضطراب والقلق الذي حدث... حيث أبعد الرئيس السابق للـ KGB، بحكم صلاحيّاته الجديدة، جميع المتعاملين مع بريجينيف، بدءًا من وزير الداخليّة "نيقولاي شنتشليكوف"، الذي أبعد عن تنفيذ أيّ من صلاحيّاته منذ تاريخ السابع عشر من شهر كانون الأوّل ـ ديسمبر ١٩٨٢.

ظلّ شنتشليكوف يدير الـ MVD و"أبناء العمّ الصغار" التابعين للـ KGB مدّة ١٥ سنة، حيث أنّه تعرّف خلال الثلاثينات على سكرتير اللجنة المركزيّة، أثناء دراستهما معًا في معهد علم المعادن في "دنيبروبيتروفسك" في أوكرانيا، ويعتبر شتشليكوف واحدًا من الذين تمّ إيقافهم بتهمة الفساد ومن المحيطين ببريجينيف والتابعين له، حيث عثر رجال الشرطة في منزله على كميّة لا بأس بها من المجوهرات والأشياء الثمينة، ملفتة للنظر وداعية لفتح ملفّات التحقيق معه حول عدد من قضايا الفساد الهامّة التي كانت تمسّ، آنذاك، كلّ من يتعامل مع بريجينيف، وخاصّة مع ولديه يوري وغالينا، وأقدمت السيّدة شتشليكوف على الانتحار بعد فصل زوجها وطرده من عمله.

هكذا فقد عهد أندروبوف بمنصب شنتشليكوف إلى "فيتالي فيدورتشوك"، الذي ظلّ يعمل في الشرطة بمنصب مساعد أندروبوف في سلك الاستخبارات السوفياتيّة KGB لمدّة سنوات عدّة. وها هو فيدورتشوك يتسلّم منصب أندروبوف في رئاسة الـ KGB بعد أن تخلّى عنه أندروبوف، خلال شهر أيّار - مايو ١٩٨٢.

بعد وضعه الرجل المقرّب منه تحت إمرة قيادات وزارة الداخليّة السوفياتيّة MVD، سعى أندروبوف إلى تسليم "فيكتور تشيبريكوف" إدارة المخابرات السوفياتيّة KGB، وهو الذي كُلّف منذ عام ١٩٦٨ بالتركيز على إدارة كوادر الـ KGB، وهو الدور الأساسيّ الذي أتاح أمامه المجال لتحويل المخابرات السوفياتيّة KGB إلى مجموعة استخبارات حديثة وأكثر فعالية ونشاطًا، بعيدة عن الأنظار والعيون... كلّ ذلك من خلال تطبيق معلومات ومقترحات أندروبوف نفسه.

مع مرور الوقت، بدأت جميع المناصب المسؤولة في جهاز الدولة تتحوّل شيئًا فشيئًا ليشغلها رجال مقرّبون من أندروبوف ضمن جهاز الاستخبارات السوفياتيّة KGB، من أمثال "فاسيلي ليجيبيكوف" النائب السابق لرئيس الـ KGB، و"كوريل ب.

فوستريكوف" المسؤول هو أيضًا في جهاز الاستخبارات السوفياتيّة KGB، ليشغلا منصب اثنين من بين ستّة من نوّاب وزير الداخليّة السوفياتيّة MVD. أضف إلى ذلك "غيدر أليف" من جهاز الاستخبارات السوفياتيّة KGB الذي شغل منصب واحد من أوائل مساعدي رئيس الوزراء... وسيزداد نموّ هذه السياسة في ترفيع رجال جهاز الاستخبارات السوفياتيّة KGB مع وصول "غورباتشيف" إلى السلطة خلفًا لأندروبوف.

كان أندروبوف يتابع حملته ضدّ الفساد والانحلال، تلك الحملة التي تظهر بين الحين والآحر، من خلال عدد من حوادث الوفاة الغريبة.

وفي خلال شهر آب ـ أغسطس ١٩٨٣، أعلن رجال الشرطة عن القيام بالعديد من عمليّات التطهير والتمشيط، وهي الحقبة نفسها التي اغتيل فيها الأميرال البحري كولوستياكوف وزوجته...

لقد أدّى تسليم منصب أندروبوف إلى تشيرنيكوف "الصديق المخلص" لبريجينيف إلى تهدئة اللعبة ولو لفترة موقّتة، ولم يقاض وزير الداخليّة السابق شتشيلوكوف الذي أحيل منذ شهر حزيران ـ يونيو ١٩٨٣ على أن يكون عضوًا في اللجنة المركزيّة. بل إنّهم أوجدوا له وظيفة في مكتب التفتيش العام التابع لوزارة الدفاع. تلك الوظيفة التي لم تستمرّ إلاّ فترة قصيرة جدًّا وذلك لإعادة فتح ملفّ التحقيق معه، ولكن توفّي شتشيلوكوف في السادس عشر من شهر كانون الأوّل ـ ديسمبر ١٩٨٤... قبل افتتاح هذا الملفّ... ووضعت جثّته، بخلاف العادات، داخل تابوت مغلق، حيث دفن دون أيّ مراسم. وهذا ما زاد من الشبهات والإشارات إلى الاعتقاد بأنّه مات منتحرًا، وربّما بواسطة رصاصة أصابت رأسه.

لم يكن حتّى تاريخه قد تمّ القضاء على جميع المقرّبين من عائلة بريجينيف. بل ظلّ هناك عدد من الناجين من براثن العقاب، منهم الفريق "يوري م. شوربانوف" البالغ

من العمر خمسين عامًـا، والـزوج الثـالث لـغالينا إبنـة بريجينيـف، الـذي ظـلّ محتفظًـا بمنصبـه كنـائب أوّل لوزيـر الداخليّـة السـوفياتيّة MVD خـلال شـهر تشـرين الأوّل ـــ نوفمبر ١٩٨٤.

لقد أتاح منصبه فـي الـ MVD وسـهولة طاعتـه المجـال أمـام شـوربانوف ليشـغل المنصب الذي طالما تمنّاه، وهو المساعد الأوّل لـ"شتشيلوكوف"، ثمّ جاء زواجـه لـيزيد من ارتقائه السلّم الوظيفـيّ، لدرجـة أنّ الخـبراء لـم يـتردّدوا فـي إطـلاق إسـم "ارتقـاء مخيف" في وصف حالته.

تمّ فصل شوربانوف في شهر كانون الأوّل ـ ديسمبر من عام ١٩٨٤، بعـد سلسـلة من أحوال القلق والاضطراب بدت عليه منذ دعم سـلطة غورباتشـيف. ثـمّ مـا إن جـاء شهر كانون الثاني ـ يناير ١٩٨٧، حتّى تمّ توقيف الحارس الشـخصيّ والـزوج الحـاليّ لغالينا بنت بريجينيف بتهمة الفساد.

في نفس الحقبة، كان الشعب السوفياتي يشهد أوّل تحقيق يجري مع المسؤولين من جهاز الاستخبارات السوفياتيّة KGB بتهمة الفساد... في حين يُلفَت النظر بالمقابل إلـى وجود دعم للمكانة السياسيّة للمسؤولين النشيطين والأكفاء السـابقين والحـاليّين التـابعين لـ KGB، وضمـن جميـع المؤسّسـات، وهكـذا بـدأ نظـام غورباتشـيف بالاسـتقرار فـي الاتّحاد السـوفياتيّ اسـتقرارًا ملحوظًـا... ولـم يعـد هنـاك أيّ حـوادث وفـاة غريبـة فـي موسكو خلال تلك الحقبة من التاريخ[1].

---

١ ـ كـالفي فابريسـيو وشـميدت أوليفـر، تعريـب ريمـة الفـوّال، التـاريخ الأسـود للاسـتخبارات السـريّة (دار الجيل،بيروت١٩٩٨)؛ Baron John, *KGB The Secret Work of Soviet Secret Agents* (New York,1974); Corson William & Crowely Robert T., *The New KGB: Engine of Soviet Power*; Barron John, *KGB Today The Hidden Hand* (New York,1983).

التفكّك

لم يستطع الـ K.G.B أن يتوقّع لا سرعة ولا تاريخ تفكّك السيطرة الشيوعية في أوروبا الشرقية والتي بدأت عام ١٩٨٩. لكن يمكن أن يكون أوّل وكالة استخبارات تشعر أنّ هذه الكتلة، الموجودة منذ نهاية الحرب العالمية الثانية، مقضيٌّ عليها.

في بداية وفي منتصف الثمانينات سيطر في المركز سخط متزايد ممزوج بحتمية حول مستقبل أوروبا الشرقية. وصل هذا الشعور إلى ذروته في نهاية العقد. ومنذ بداية عهد غورباتشيف، سمع غورديفسكي شكاوى أكثر قوة حول عدم إمكانية استمرار الأنظمة الشيوعية وهيجانات من نوع: "من الأفضل لنا أن نتبيّن سياسة تهدف إلى جَعْل الاتحاد السوفياتي "قلعة" والتخلّي عن معظم هذه الأنظمة". رغم أنّها غير خطرة، لم تكن هذه الملاحظات إلاّ ترّهة من القش في عاصفة التغيير الذي أدّى، عام ١٩٨٩، إلى استبدال "نظرية بريجنيف" بنظرية سُمّيت بسخرية "نظرية سيناترا" (حسب عنوان أغنية May way: طريقتي) التي تسمح لدول أوروبا الشرقية "باتّباع طريقها الخاصّ".

شكّلت ٣ دول في أوروبا الشرقية، لأسباب مختلفة، بواعثَ قلق جدية بالنسبة "للمركز" وذلك حين خَلَفَ غورباتشيف تشيرنينكو كأمين عامّ للحزب الشيوعي في آذار - مارس ١٩٨٥. أوّل دولة هي بولونيا. فقد اهتزّ الــ PDG بقسوة من الظهور والانطلاق الرائع "لتضامن" في ١٩٨٠ - ١٩٨١. ورغم أنّه أُعجب ببراعة الجنرال ياروزلسكي والجيش البولوني ومصلحة الأمن البولونية في ضربتهم العسكرية وسحقهم

"تضامن" في كانون الأول ـ ديسمبر ١٩٨١، كان يعي أكثر من معظم المراقبين الغربيين أنّ الأمر لا يعدو الهدنة.

كان المصدر الرئيسي لقلق "المركز" هو تضاؤل السلطة المعنوية للحكومة بشكل واضح أمام سلطة البابا في بولونيا. فمنذ وقت طويل لم يحاول أيّ قائد سوفياتي استعادة السؤال المزدري لستالين في نهاية الحرب العالمية الثانية: "البابا، كم انشقاق؟"

بالمقابل، مال الخبراء في المسألة البولونية في "المركز" إلى تحديد أصل الأزمة في انتخاب الكاردينال كارول فوجتيلاّ الذي اختار يوحنا بولس الثاني في تشرين الأوّل ـ سبتمبر ١٩٧٨.

حين ذهب البابا إلى بولونيا بعد ٧ أشهر، تجمّع حوالي ربع الشعب من أجل رؤيته وسماعه؛ طبعًا شهد بقية البولونيون بفضل التلفزيون على رحلة انتصاريّة.

في نهاية تطوافه في البلاد، وبينما هو يودّع مدينته السابقة كراكوفيا، "التي يحبّ كل حجر وكلّ قرميدة فيها"، على حدّ قوله، بكى الرجال والنساء دون تحفّظ من الفرح في الشوارع. وظهر واضحًا للعيان التناقض بين انهيار النظام السياسي وبين سلطة الكنيسة المعنوية[١].

إنقسمت الآراء داخل المركز حول احتمال ضلوع الـ K.G.B في محاولة اغتيال البابا عام ١٩٨١. كان حوالى نصف من تكلّم معهم غورديفسكي مقتنعين أنّ الـ K.G.B لا يستطيع التورّط في "مسألة مبلّلة" من هذا النوع حتّى ولو بطريقة غير مباشرة بواسطة البلغاريين. مع ذلك، شكّ النصف الآخر في ضلوع المديرية ٨ في

---

١ ـ بخصوص زيارة البابا هذه إلى بولونيا راجع: Ascherson Neil, *The Struggle for Poland,* Michael Joseph (London,1987), pp. 198-199, 226.

المجلس الإداريّ S المسؤول عن "العمليات المبلّلة"؛ بعضهم أعلن لغورديفسكي أسفه فقط لعدم نجاح المحاولة.

ظهر غياب سلطة الحكومة الشيوعية مرة أخرى في بولونيا حين عاد إليها يوحنا بولس الثاني عام ١٩٨٣ داعيًا معارضي النظام إلى الانضواء تحت حماية الكنيسة.

في تشرين الأول ـ أكتوبر ١٩٨٤، أصبح للكنيسة البولونية شهيد جديد حين خطفت مديرية المسائل الدينية في مصلحة الأمن البولونية وقتلت كاهنًا من أنصار "تضامن" هو جرزي بوبياليزكو. شارك نصف مليون شخص في مأتمه. أعلن فاليسا أمام نعشه: "تضامن حيّة لأنّك أعطيت حياتك لها". وفي محاولة يائسة لتبرئة نفسه من هذه الجريمة، أعطى ياروزلسكي الأمر بتنظيم دعوى عامة للمجرمين ممّا أدّى إلى موجة جديدة من القلق في الـ PDG.

في نهاية عام ١٩٨٤، أَمَرَ منشور من "المركز" لعام ١٩٨٥ سلسلة من التدابير الفعّالة تهدف إلى إزالة الثقة في هذا البابا "الرجعيّ"...

أمّا قلق "المركز" بخصوص ألمانيا الشرقية فمختلف.

رغم أنّه لم يخدع نفسه حول شعبية النظام الشيوعي، لم يتصوّر الـ K.G.B، في بداية عهد غورباتشيف، أنّه في طريقه إلى فقدان السيطرة على الوضع. وتركّز قلقه بالأكثر على النفور المتزايد للقائد الألماني الشرقيّ إيريك هونكير من اتباع توجيهات موسكو. حين تقاعد والتر أولبزخت عام ١٩٧١ عن عمر ٧٨ عامًا، تمنّت موسكو أن يخلفه رويلي ستوف، حين اختير هونيكر أمينًا عامًا للحزب الشيوعي لألمانيا الشرقية، حذّر ستوف الحزين موسكو من أنّ قومية هونكير تهدّد مستقبل العلاقات بين الاتحاد السوفياتي وألمانيا الشرقية. وهذا ما حصل.

فالتصرّف المتسلّط للدبلوماسيين السوفيات وضباط الـ K.G.B الذي كان يحتمله أولبرخت، أدّى مع هونيكر إلى سلسلة من الحوادث...

بعد توقيف ضابط سوفياتي من مجلس القيادة العامّ في كارلشورست لمسلكه وهو سكران وذلك في وسط السبعينات، اشتكى جنرال الـ K.G.B أناتولي إيفانوفيتش لازاريف من "استخدام وسائل نازية ضد بلد شقيق".

وتشكّى هونيكر بدروه بشكل أقوى من لازاريف الذي استُدعي إلى موسكو.

أمام إلحاح القائد الألماني، استُدعي السفير السوفياتي، بيوتر أندرييفتش أبراسيموف، أيضًا عام ١٩٨٣ بعد شكاوى مشابهة من هونيكر حول تصرّفه الجديد بنائب ملك (عند عودته إلى موسكو، كُلِّف بالسياحة). وأكّد كلّ من إيريك مليكه، وزير أمن الدولة الألماني الشرقيّ، وماركوس وولف، الرئيس المحنّك لوكالة استعلامات ألمانيا الشرقية، "للمركز"، على أنّ هونيكر يمسّ بالتعاون الكبير السوفياتي ـ الألماني في ما يختص بالاستعلامات. تعقّد الوضع أيضًا إذ كان مليكه وولف نفساهما في موقع ضعيف. وجرت في المركز مناقشات لا نهاية لها ـ شارك غورديفسكي في بعض منها في مكتب فروتشكو، حول وسيلة تقوية مليكه وولف تجاه هونيكر، ومنعهما من الوقوع بين يديه.

عام ١٩٨٥، مع ذلك، لم يكن "المركز" يتوقّع أن تضيف البيريسترويكا عنصرًا آخرًا من التوتر في العلاقات مع ألمانيا الشرقية.

كان "المركز" يعتقد في بداية عهد غورباتشيف أن الدولة الأوروبية الشرقية المهدّدة كثيرًا بالانهيار هي الديكتاتورية النيوستالينية الفاسدة والمتعاظمة لنيقولاي تشاوشيسكو في رومانيا، وهو بلد نصف منفصل عن حلف وارسو.

عام ١٩٨٣، اعتبر تقويم طويل للمديرية الحادية عشرة في الـ PDG (أوروبا الشرقية) أنه يوجد، في بلد على طريق الانهيار، خطر حقيقي من كارثة اقتصادية في السنوات القادمة... إنّ فقدان السيطرة على النظام يمكن أن يقود رومانيا إلى الاتجاه نحو الغرب. وفي الوقت الذي خَلَفَ فيه غورباتشيف تشيرنينكو، أخذ هذا الاحتمال على محمل الجدّ. خلال سنتيه الأخيرتين كمعاون سفير وكسفير في لندن، تلقّى غورديفسكي عدة طلبات استعلامات من المركز حول المواقف الغربية تجاه رومانيا. في النهاية، كانت ديكتاتورية تشاوشيسكو آخر ديكتاتورية تنهار في مدّ الثورات الديمقراطية عام ١٩٨٩ رغم أنّ النهاية، حين جاءت، كانت أسرع وأقسى منها في البلدان الأخرى في حلف وارسو.

حين بدأ النظام الشيوعي بالانهيار في أوروبا الشرقية عام ١٩٨٩، استسلم "المركز" إلى تفكّك ما سمّته مستنداته الداخلية "الكومنولث الاشتراكيّ". لكنّ هذا التفكّك هدّد بكَسْر الشبكة المتكاملة من التعاون الاستخباراتيّ التي أُنشئت منذ أوّل سنوات الحرب الباردة. ففي كل بلد من أوروبا الشرقية، يعتبر الشعب مصلحة الأمن المحليّة، وهي نسخة مطابقة للـ K.G.B، إحدى وسائل الضغط الرئيسية. لذلك أصبحت فورًا أحد الأهداف الأساسية للإصلاحات الديمقراطية. في بداية عام ١٩٩٠، حُطِّم معظمها. وفي معظم هذه البلدان، فَدَأَبُ مصالح التجسّس في الخارج، التي كانت حتى الآن، مثل الـ PDG داخل الـ K.G.B، جزءًا مكمّلاً من مصالح الأمن، على أن تصبح وكالات مستقلة لكي تحاول الاستمرار.

منذ بداية عام ١٩٩٠، لم يعد يستطيع الـ K.G.B أن يعتمد تلقائيًا مثل السابق، على مساعدة وكالة استخبارات ألمانيا الشرقية في عملياته ضد الناتو وضد ألمانيا الغربية؛ وعلى مصلحة الأمن التشيكية ومصلحة الأمن البلغارية ضد يوغوسلافيا، تركيا

واليونان. ونُقض التحالف مع ألمانيا الشرقية في ما يختصّ بالاستخبارات. ففي ألمانيا الموحّدة، لم تعد مصلحة الأمن الألمانية الشرقية موجودة. وسيكون تفكّك جهاز الـ K.G.B في كارلشورست مشروعًا ضخمًا؛ بضربة واحدة، سيخسر الاتحاد السوفياتي أكبر قاعدة استخبارات خارجية له، بالإضافة إلى تهديد انتهاء التحالف السوفياتي ـ الألماني الشرقيّ المخابراتي لبعض العمليات الخاصّة بالـ K.G.B. ويعمل الصندوق المركزيّ للمركز (SOUD = جهاز معطيات عملياتيّة ومؤسساتيّة) على كومبيوتر ألمانيّ شرقيّ. وحتى الآن، كانت مصالح الاستخبارات الكوبية ودول حلف وارسو قادرة على الوصول إليه.

هدّد انهيار الكتلة السوفياتية أيضًا تحالفات الـ K.G.B في أميركا اللاتينية. فرغم أنّ كاسترو كان لا يزال ثابتًا، فإنه بات يبدو أقل تهيّؤًا من هونيكر سابقًا تجاه "التفكير الجديد". ففي عام ١٩٨٧، اشتكت لجنة الارتباط في الـ K.G.B في هافانا من أنّ مصلحة التجسّس الكوبية تستبعدها. واعتبر المركز الوضع جدّيًا لدرجة ذهاب تشيبريكوف بنفسه إلى كوبا لكي يحاول إصلاح التحالف... ومن غير المحتمل أنّه توصّل إلى ذلك. كما أنّ هزيمة الساندينيين في نيكاراغوا في انتخابات شباط ـ فبراير ١٩٩٠ ـ على غير توقعات الـ K.G.B دون شك ـ هدّدت أيضًا مستقبل محطات الاعتراض ـ التوضيح الأربعة السوفياتية الموجودة في هذا البلد. بالإضافة إلى أنّ احتمالات بقاء كاسترو غير الأكيدة أكثر فأكثر كلّما انخفضت المساعدة السوفياتية الضخمة، باتت تلقي بشكوك حول مستقبل أكبر محطة اعتراض ـ توضيح، هي محطة لورد في كوبا.

إنّ أعظم تهديد للـ K.G.B يكمن في ماضيه. فمن مركز قيادته في ساحة دزرجنسكي، قاد خلال العهد الستالينيّ أكبر اضطهاد نُظّم في زمن السلم وأوسع

معسكرات اعتقال في التاريخ الأوروبيّ. أعلن النائب والبطل الرياضي أيوري فلاسوف عام ١٩٨٩ أمام نواب مجلس الشعب: "ليس الـ K.G.B مصلحة بل أمبراطورية حقيقية تحت أرضية لا نعرف بعد أسرارها إلاّ إذا فتحنا القبور".

ودلّ تهيّج المركز الضخم من فكرة كشف محتوى أرشيفاته إلى أنّه وعى التهديد الذي تمثّله هذه الأخيرة. وضمن احتمال استقلال ليتوانيا عام ١٩٩٠، كان من أهمّ أولويّات تدابير الـKGB نقل عشرات الآلاف من الملفّات المحرجة. وقال راديو فيلنيوس بأنّ رئيس الـ K.G.B الليتوانيّ، إدرياردا س إيسمونتناس اعترف بأنّ معظم أرشيفاته أُتلفت أو نُقلت إلى موسكو. وبعد فترة قصيرة، استقال.

تتعلّق الملفات التي تسبّبت بأكبر إحراج للـ K.G.B بعملياته الخارجية. في نهاية الثمانينات، قاد حربًا مؤخرة طويلة، دون أمل، من أجل أن يتجنّب الاعتراف بمسؤوليته في مذبحة الضباط البولونيين بواسطة مفوّضية الشعب الداخلية (عهد ستالين) في كاتين خلال الحرب (العالمية الثانية). في آذار ـ مارس ١٩٨٩، تسلّحت آخر حكومة شيوعية في بولونيا بكلّ شجاعتها وأعلنت مسؤوليّة الـKGB عن المذبحة. ونشرت الصحافة البولونيّة مستندات وُجدت في جيوب الضباط المقتولين تثبت أنّهم كانوا سجناء مفوّضية الشعب الداخلية عند إعدامهم. رغم ذلك، خلال عام أيضًا، استمر مكتب الصحافة في الـ K.G.B باتهام الألمان ورفض "استباق" النتائج الآتية من لجنة سوفياتية ـ بولونية.

وحين تحدّت جريدة "أنباء موسكو" الـ K.G.B "ليؤكد أو يطعن" في مسؤوليته، تلقّى رئيس تحريرها تهديدات. وأعلن قدماء في مفوّضية الشعب الداخلية الذين يملكون معلومات حول مذبحة كاتين لهذه الجريدة أنّ الـ K.G.B أمرهم بعدم الكشف عن الحقيقة... يجب انتظار نيسان ـ إبريل ١٩٩٠ ـ حين أعطى الرئيس غورباتشيف

لنظيره البولوني، الجنرال ياروزلسكي ملفًا يثبت دور مفوضيّة الشعب الداخلية في مذبحة الضباط البولونيين - لكي يقبل الـ K.G.B بالمحتوم ويعترف بمسؤوليته. خلال الأشهر التالية، أُظهرت مدافن عظام أخرى عديدة.

تشكّل قصة الدبلوماسيّ السويديّ راؤول والنبرغ مثلاً رائعًا على مخاوف "المركز" تجاه صعوبات محتملة بينما لا يعدو الأمر كونه حالة تابع أجنبيّ بسيط. حين كان في وظيفته في بودابست في عامي ١٩٤٤ ـ ١٩٤٥، أنقذ حياة عدة آلاف من اليهود بإعطائهم الحماية الدبلوماسية السويدية؛ بعد فترة قصيرة من احتلال الجيش الأحمر لهنغاريا، اختفى بشكل غامض. بعد هذا الاختفاء فورًا، لم تكف الحكومة السويدية وعائلة والنبرغ وجمعية راؤول والنبرغ عن الضغط على موسكو لتقول الحقيقة حول ما جرى له. أثار رفض الـ K.G.B فتح الملف إشاعات ملحّة كلّها غير صحيحة مع الأسف، وبحسبها لا يزال والنبرغ حيًّا في مكان ما في الفولاغ. عام ١٩٥٧، أعطى أندريه غروميكو، نائب وزير الشؤون الخارجية آنذاك، مذكرة إلى سفارة السويد في موسكو تؤكد على أنّ الدبلوماسيّ مات إثر نوبة قلبية في سجن سوفياتي عام ١٩٤٧ - لا تزال السلطات السوفياتية تعتبر هذه الكذبة "حدثًا لا يُجادل". في تشرين الأول - أكتوبر ١٩٨٩، أُجريت محاولة رغم ذلك لإيقاف الضغط العالمي الهادف إلى إجبار الـ K.G.B على فتح ملفّ والنبرغ. ودُعي إلى محادثات في موسكو ممثلون عن جمعية راؤول والنبرغ من بينهم أخت الدبلوماسي نينا لاجير غرين وأُخوه غي فون دارديل. استقبلهم فاديم بيتروفيتش بيروجكوف، معاون رئيس الـ K.G.B، وفالنتين ميخائيلوفيتش نيكوفوروف، نائب وزير الشؤون الخارجية، الذي أعطاهم جواز سفر والنبرغ، وبعض الأغراض الشخصية وشهادة وفاة مزوّرة بتاريخ ١٧ تموز - يوليو ١٩٤٧ موقّعة من الطبيب المسؤول عن سجن لوبيانكا. وعبّر

بيروجوكوف ونيكوفورف عن "أسفهما العميق" لعدم وجود أيّ مستند آخر رغم الأبحاث "المعمّقة" في أرشيفات الـ K.G.B. وأعرب جهارًا أندري ساخاروف، من بين آخرين، عن شكّه: كيف يمكن أن يختفي ملفّ مهمّ في الـ K.G.B حول والنبرغ. في الواقع، بعد فترة قصيرة من وصول الجيش الأحمر إلى بودابست، حاولت مفوّضية الشعب الداخلية تجنيده كعميل. رفض السويديّ بشكل واضح فخشيت المفوّضية أن يذكر هذه المحاولات فأوقفته وأبعدته إلى الاتحاد السوفياتي. في موسكو، فشلت محاولات أخرى لجَعْله عميلاً. ولتشويش الأمور، استدعى الـ K.G.B عام ١٩٨٩ أحد محنّكيه الرئيسيين في التدابير الفعّالة، رادومير بوغدانوف، وكان آنذاك معاون مدير معهد أكاديمية العلوم لدراسة الولايات المتحدة وكندا، ونائب رئيس اللجنة السوفياتية للسلام، حين كان سفيرًا في نيودلهي من ١٩٥٧ حتى ١٩٦٧، لعب دورًا رئيسيًا في جَعْل الهند أحد أهم مراكز التدابير الفعّالة السوفياتية. خلال ربيع ١٩٨٩، بدأ بوغدانوف بإعلام الزوّار الأجانب والصحافيين في موسكو أنّ والنبرغ عمل كوسيط من أجل مفاوضات سرية عام ١٩٤٤ بين بيريا ورئيس مصلحة الأمن في ألمانيا النازية، هملر. تابعت الصحفية الموسكوفية "الأزمة الجديدة"، المستخدمة سابقًا كاتّجاه للتدابير الفعّالة، حملتها التشنيعيّة التي تُظهر والنبرغ كإنسان لعوب وزير نساء وصديق لأدولف إيخمان، المدير الرئيسيّ للحلّ النهائي...

رغم ذلك لم يعد الـ K.G.B سيد أسراره لمدة طويلة. فالثورة الديمقراطية في أوروبا الشرقية واجهته باحتمال مزعج هو رؤية بعض أسراره تُفْشَى، كما خلال ربيع براغ عام ١٩٦٨، من أرشيفات خلفائه السابقين في الكتلة.

وإنّ ملفّ مصلحة الأمن البلغارية في صوفيا حول مقتل الكاتب البلغاريّ في المنفى جيورجي ماركوف في تشرين الأوّل - أكتوبر ١٩٧٨ هو دون شك أحد الملفات

التي شغلت كريتشكوف كثيرًا. فمنذ عدة أشهر، طلب أمين عامّ الحزب الشيوعي البلغاري، تودور جيفكوف، مساعدة الـ K.G.B لإسكات المهاجرين الذين، مثل محميّه السابق ماركوف، يهاجمونه في وسائل الإعلام الغربية. وضع المركز تحت تصرّفه وتحت تصرّف مصلحة الأمن البلغارية مصادر مختبر سريّ للغاية، وريث الكاميرا Kamera في السنوات الستالينية ومرتبط بالمجلس الإداريّ OTU (للدعم العمليّاتيّ والتقنيّ) وتحت السلطة المباشرة لرئيس الـ K.G.B، ووافق كريوتشكوف شخصيًا على اقتراح الجنرال سيرغي ميخائلوفيتش غولوبيف من المجلس الإداريّ K (أمن ومصالح الاستعلامات العدوّة) في الـ PDG، باستخدام سموم ـ بالتعاون مع مصلحة الأمن البلغارية ـ ضد المهاجرين البلغاريين صنعها مختبر الـ K.G.B (بعد ٧ سنوات، كان على غولبيف أن يراقب إعطاء غورديفسكي مخدّرات آتية من نفس المختبر لحمله ـ دون جدوى ـ على الاعتراف). عام ١٩٧٨، ذهب غولوبيف مرتين أو ثلاث مرات إلى صوفيا للمشاركة في وَضْع خطّة عملية ضدّ المهاجرين.

كان الهدف الأوّل مهاجرًا يعيش في انكلترا. فحين كان هذا الأخير في عطلة على الشاطئ، دهنت مصلحة الأمن البلغارية جدران غرفته بسمّ يقضي على الإنسان بعد أن يمتصه الجلد ولا يترك أيّ أثر. ورغم أنّ الضحية مرضت بشكل خطير إلاّ أنّها عاشت. وبالاتفاق مع كريوتشكوف، عاد غولوبيف إلى صوفيا ليَضَع خطة جديدة. وبطلب منه، اشترى المقرّ الرئيسيّ للـ K.G.B في واشنطن عدة مظلات وأرسلها إلى المركز. واستخدم المجلس الإداريّ OTU رأسها ليتمكّن من حقْن الضحية بكرة صغيرة من المعدن تحتوي على سمّ قويّ مستخلص من حبوب الخِرْوَع. وأحضر غولوبيف المظلاّت إلى صوفيا ليعلّم منفِّذًا من مصلحة الأمن البلغارية طريقة استخدامها. كان ماركوف الضحيّة الأولى وكان يعمل آنذاك في الفرع البلغاريّ من

"خدمة العالم" في المؤسسة البريطانية للإرسال. قبل أن يموت في السمتشفى، تمكّن من إخبار الأطباء أنّ مجهولاً دفعه بقوة على ويستمنستر بريدج واعتذر لأنّه ضربه دون قصد بمظلّته. وقد وُجِدَ أثر صغير لوخزة وأجزاء كرة أكبر بقليل من رأس الإبرة على فخذه الأيمن، لكن، حين شُرِّحت الجثة، كان الخِرْوَع قد تحلَّل.

بعد أسبوع، فشلت محاولة اغتيال أخرى في باريس ضد مهاجر بلغاريّ آخر هو فلاديمير كوستوف. هذه المرة، لم تتفتّت كرة المعدن وسُحبت قبل أن يخرج الخروع منها. بعد توقيف تيودور جيفكوف في نهاية ١٩٨٩، ذهبت أرملة ماركوف إلى صوفيا لتحاول معرفة المسؤولين عن موت زوجها. وحتى لو أُتلفت أو أُرسلت إلى موسكو ملفات مصلحة الأمن البلغارية حول حالة ماركوف، يوجد دون أيّ شك ضباط من هذه المصلحة يعرفون الحقيقة. كلّما تقدّمت بلغاريا نحو الديمقراطية، يمكن أن يحاولوا الاعتراف...

رغم جملة علاقات عامّة لا سابق لها، فالـ K.G.B هو، عمليًا، المؤسسة الوحيدة التي لم تتغيّر في الاتحاد السوفياتي الغورباتشيفيّ. ورغم كلّ جهوده لتغيير صورته، فإنّ كريوتشكوف خالف ماضٍ لا ثقة فيه. وكان معاونوه الرئيسيّون فلاديمير بيتروفيتش بيروجوكوف، فيليب دينيسوفيتش بوبكوف، جيني إيفجينيفيتش آجيف وفلاديمير إياكوفليفيتش ليجيبيوكوف، يشغلون كلّهم مناصب ذات مسؤولية كبيرة خلال عهد بريجنيف. ثمّ بات يقوم الـ K.G.B بكلّ ما بوسعه من أجل الابتعاد عن الإرهاب الستالينيّ وعن جرائم ـ أخفّ ـ "سنوات الركود". وبما أنّ تاريخ كلّ إرهاب يطفو على السطح، أضحى المواطنون السوفيات يتساءلون ما إذا كانت منظمة كهذه قابلة للإصلاح حقًا. لقد حاكمت شعوب أوروبا الشرقية مصالحها الأمنية المبنية على صورة الـ K.G.B. وعاجلاً أم آجلاً، سينكر المواطنون هذا الأخير أيضًا. فالسهرة على ضوء

الشموع التي جرت حول المقرّ العامّ للـ K.G.B عام ١٩٨٩ لتحية ضحاياه المليون تدلّ على بداية هذا الإنكار.

مثل كل دولة عظمى حديثة، احتاج الاتحاد السوفياتي إلى مصلحة أمن داخلية ووكالة استخبارات خارجية. ولكي يمتلك مصلحة استخبارات يستحق احترام مواطنيه، كان عليه الانتهاء من الـ K.G.B والبدء من جديد على قواعد أخرى[1].

---

١ ـ أندرو وغورديسكي، الاستخبارات السوفياتيّة، ص٧٢٣ ـ ٧٣٠.

الـ KGB من البداية إلى النهاية

سوف يبقى مشهد عشرات الآلاف من سكّان موسكو الذين احتشدوا في أحد ميادينها يتابعون نشوة إزالة تمثال فيليكس دزرشنسكي البولندي الأصل، الأرستقراطيّ النشأة والشهير كمؤسّس لجهاز أمن الدولة السوفياتيّة KGB، حسب السمعة، محفورًا في ذاكرة تاريخ ٢٢٥ مليونًا من البشر هم مجموع عدد سكّان الجمهوريّات السوفياتيّة الخمس عشرة السابقة، وإلى الأبد.

فبعدما يقرب من الأربعة والسبعين عامًا يأتي أبناء الجيل الثالث في موسكو ليضعوا بأنفسهم، بإزالة التمثال الرمز، نهاية لحقبة طويلة سيطر فيها الرعب ومختلف أنواع القمع التي مارسها جهاز أمن الدولة السوفياتيّة KGB... وبعد أن أصبحت كفّة الجماهير أكثر رجوحًا وقوّة وسيطرة من القدرات التي امتلكها ذلك الجهاز وعشرات الآلاف الذين عملوا في منظّماته الداخليّة، وشبكات عملائه في الخارج، وآذانه وعيونه التي واصلت التنصّت والمتابعة لأدقّ تفاصيل وهمسات الملايين من مواطني جمهوريّات الأمبراطوريّة التي تتفتّت أركانها بسرعة تفوق سرعة السكّين في قطعة الزبد الروسيّة.

كان من الممكن أن يصبح عشرات الآلاف من الجماهير التي احتشدت في ميدان دزرشنسكي تشهد سقوط تمثاله الذي يزن ١٤ طنًا، وتزأر أصواتها بصيحات واحدة: "الموت للخونة... لتسقط الـ KGB"... قبل أيّام ثلاثة من تلك الليلة التاريخيّة... كان

من الممكن أن تسحق عظامها دبّابات ومدرّعات أجهزة أمن الدولة السوفياتيّة مع غيرهم ممّن تجرّأوا على الخروج إلى الشارع العام في بقيّة المدن الكبرى للجمهوريّات الخمس عشرة، في ما ولو نجح انقلابيّو الإثنين الأسود ١٩ من آب - أغسطس ١٩٩١، في إحكام قبضتهم على الدولة وأجهزتها، وبدأوا في تطبيق مناهج الرعب التقليديّة وإدارة حمّامات الدماء التي ورثوا مفاهيمها وتلقّنوا مبادءها منذ عام ١٩١٧، وراحوا يطبّقونها حتّى ساعات من إخفاق انقلابهم صباح الأربعاء في ٢١ آب - أغسطس ١٩٩١.

في لحظات استجاب "سرجي ستانكيشيتش"، نائب عمدة موسكو، لصيحات الجماهير، وأصدر أوامره إلى فريق من العمّال الذين طوّقوا تمثال فيليكس دزرشنسكي بالأسلاك الحديديّة ورفعوه بمساعدة رافعة عملاقة ليستقرّ على ظهر حاملة انطلقت به بعيدًا إلى وادي التاريخ!

كان سقوط "الرمز" الخطوة الأخيرة في إسدال الستار على حقبة استمرّت ٧٤ عامًا من تاريخ أبشع وأشرس أجهزة أمن الدولة البلشفيّة، ونهاية لعصر تأخّر كثيرًا في جرجرة آخر أذياله من الساحة الروسيّة وبقيّة الجمهوريّات التي أسهم النظام الشيوعيّ وأجهزته في سحق إرادة شعوبها طوال العقود السبعة السابقة.

في الماضي، قال "بلزاك": "في الثورات كما في العواصف البحريّة العاتية، تبتلع الأعماق أكثر مظاهر الصلابة والعنف، وتخلف في النهاية ومضات من البريق قبل أن يفرش الأمل أجنحته على رؤوس المعذّبين"...

لكنّ كلمات بلزاك وتوقّعاته أخفقت بالنسبة للثورة البلشفيّة، وطالت السنون قبل أن يشرق وميض الأمل في نفوس ملايين المقهورين من شعوب الأمبراطوريّة السوفياتيّة وهم يشهدون، مساء الأربعاء الحزين، أبرز مظاهر الصلابة والعنف... تلك

التماثيل... تسقط في الميادين العامّة، ورجال قيادات تآمر من زعامات الحرس القديم ينكمشون داخل زنزانات القيادة العامّة لأجهزة أمن الدولة السوفياتيّة KGB وحصن الأبراج المدبّبة الكئيب الشهير بمبنى الكرملين...

***

فيما امتدّت أذرع جهاز أمن الدولة السوفياتيّة KGB إلى خارج حدود الأمبراطوريّة البلشفيّة وعبر شبكات من العملاء والمتآمرين والقتلة وجامعي المعلومات، احتفظ الجهاز السوفياتي بسيطرته القويّة على عملائه في الخارج، وكان توجيههم أشبه بتوجيه الدمى على قطعة شطرنج تحتلّ أكبر المساحات على سطح كوكب الأرض، وتضمّ عملاء من مختلف الجنسيّات متغلغلين في هياكل المجتمعات الغربيّة وبلدان العالم الثالث على حدّ سواء. تشرف على عمليّاتهم وتخطّط لها وتتابع تنفيذها "إدارة العمليّات الخاصّة" التي أنشئت في شهر كانون الأوّل ـ ديسمبر ١٩٣٦، وتضمّ دائرتين: "دائرة التخطيط والمتابعة"، و"دائرة المجموعات المتحرّكة"، ويتولّى أفرادها تنفيذ مهام عمليّات الاغتيال والاختطاف...

إحدى هذه المجموعات، وبمساعدة محليّة، تمكّنت من تهريب الجاسوس البريطاني "جورج بليك" من سجن "وورم ووب سكراب" غرب لندن ومن ترحيله إلى خارج بريطانيا، إلى ألمانيا الشرقيّة ثمّ إلى موسكو في عام ١٩٦٦ بعد قضائه خمسة أعوام من عقوبة السجن التي كانت مدّتها ٤٢ عامًا وهي الصادرة عن محكمة الجنايات البريطانيّة العليا ـ الأولدبيللي.

هذه الدائرة هي نفس الدائرة التي تمكّنت أيضًا من تهريب أشهر الجواسيس البريطانيّين الثلاثة: "جاك بيرجيس" و"دونالد ماكلين"، و"كيم فيلبي"، في مطلع ستّينات القرن العشرين على التوالي من لندن وبيروت. وبينما واصلت إدارة العمليّات الخاصّة ووحدات المجموعات المتحرّكة تطوير أساليبها التخريبيّة من الخارج، سواء باستخدام السموم أو الأسلحة والمعدّات الخاصّة ضدّ عملاء سابقين للمخابرات السوفياتيّة أو عناصر نظيرة في أجهزة المخابرات الغربيّة طوال عقدين سابقين، فقد خفت، وخلال نفس الحقبة، موجات الرعب والاعتقال التي كانت تمارسها الـ KGB ضدّ المواطنين داخل الاتّحاد السوفياتيّ، بعد أنّ أصبح إحدى القوّتين العظميين في العالم، وأصبحت قناعة المسؤولين عن أمن الدولة تحويل أنشطتهم إلى الساحة الخارجيّة وتدعيم جماعات الإرهاب الدوليّ وحشد أكبر شبكات من العملاء الأجانب لتنفيذ العمليّات الخاصّة التي يخطّط لها جهاز المخابرات السوفياتيّة.

كان من أبرز قواعد هذا التحوّل لجوء الـ KGB في عام ١٩٦٠ إلى تأسيس جامعة "باتريسيا لومومبا" في موسكو، وتقديمها المنح الدراسيّة للآلاف من طلاّب بلدان العالم الثالث للإلتحاق بها وغسل عقولهم بالمناهج التي يعدّها ويشرف على تدريسها داخل قاعات محاضراتها وبطريقة مباشرة ضبّاط وأعضاء بارزون في جهاز المخابرات السوفياتيّة. وعلى نفس الصعيد، وفي مجال تدعيم ورعاية جماعات الإرهاب الدوليّ التي واصلت الـ KGB ممارستها، ومنذ عام ١٩٦٤، اعترف "فيكتور ساخاروف"، أحد ضبّاط المخابرات السوفياتيّة السابقين واللاجئ في إحدى الدول الغربيّة بأنّه عندما كان يعمل في إحدى العواصم العربيّة حيث كانت تتجمّع على مكتبه يوميًّا التقارير الخاصّة عن أنشطة العملاء، وخاصّة في منطقة الخليج، تبيّن له

حجم التغلغل الذي بلغته الـ KGB وخطورة العمليّات التخريبيّة التي كان يقوم بها العملاء، من مختلف شرائح العاملين في هذه المنطقة...

ويضيف ساخاروف في اعترافاته: "إنّه ممّا ساعد على تصعيد العمليّات الخارجيّة للمخابرات السوفياتيّة في منطقة الخليج أنّها تضمّ خليطًا من مختلف الجنسيّات غير العربيّة والتي كانت تسهّل عمليّات التجنيد والتدريب.

في كلّ ثورات العنف الدمويّة التي شهدتها البشريّة، تبرز نماذج منفردة لجلاّديها، لعلّ الثورة البلشفيّة كانت أكثر هذه الثورات المعاصرة التي قدّمت للملايين من أبناء الشعب الروسي قائمة من الأسماء التي تضمّ أنماطًا من البشر، تفوّقت على غيرها في ابتكار أساليب القمع وإزهاق أرواح الملايين في أقّل من سبعة عقود.

كان فيليكس دزرشنسكي أبرز هذه الأنماط التي قفزت إلى مسرح أحداث العنف الروسيّ في عام ١٩١٧، مع اندلاع الثورة البلشفيّة.

ولد فيليكس دزرشنسكي في ١١ أيلول ـ سبتمبر ١٨٧٧، في مدينة "فيلينيوس" عاصمة ليتوانيا التي أصبحت في ما بعد جزءًا من الأمبراطوريّة السوفياتيّة وإحدى جمهوريّاتها الخمس عشرة، لعائلة بولنديّة تتحدر من أصول أرستقراطيّة، وإن لم تتمتّع بحيازة الكثير من الثروة.

في شبابه، تطلّع فيليكس إلى الانخراط يومًا في سلك رجال الدين من طائفة الروم الكاثوليك، ولكن وبعد إتمام دراسته الثانويّة ما لبث أن انضمّ إلى إحدى جماعات الاشتراكيّين الديمقراطيّين حيث وجد في صفوفها متّسعًا من الوقت لممارسة أنشطة التطرّف التي قادته إلى مواجهة السلطة القيصريّة... وإلقاء القبض عليه وإيداعه في أحد المعتقلات.

عندما اندلعت الثورة البلشفيّة في عـام ١٩١٧، تـمّ الإفـراج عنـه بعد قضائـه سـتّة أعوام كانت دافعًا كبيرًا للإسراع بانضمامه إلى صفوف الشيوعيّين حيـث شـقّ طريقـه إلى عضويّة اللجنة المركزيّة لحزبهم، وقيادة اللجنة العسكريّة الثوريّـة فـي بيتروغراد (لينينغراد في ما بعد) التي حاصرت في مطلع الثـورة مركـز البريد والـبرق والهـاتف واستولت عليه.

كان تأييده الكبير وصداقته الوطيدة مع زعيم البلاشفة فلاديمير إيليتش لينين، أكـبر عامل ساهم في تكليفه بالمهام الصعبة، وعندمـا تـمّ حـلّ اللجنـة العسكريّة الثوريّـة فـي بيتروغراد عقب نجـاح الثـورة واستيلاء البلاشفة علـى موسكو، أسندت إليـه رئاسـة اللجنة الاستثنائيّة لمكافحة التخريب وعملاء الثورة المضـادّة التـي عرفـت فـي مـا بعد باسم "تشيكا"، في كانون الأوّل ـ ديسمبر ١٩١٧ حيث واصـل، عـبر هـذه اللجنـة ومـن خلال العناصر التي ضمّهم إليها، وهم من أكثر البلاشفة شراسة، إشاعة أكـبر موجـات الإرهاب الدمويّ الـذي أغـرق بـه الحيـاة الروسيّة طـوال سـتّة أعـوام تاليـة. وبعـد أن استقرّت الثورة وأنجز دزرشنسكي مهامّه فـي ثـورة تشـرين الأوّل ـ أكتوبـر الدمويّـة، تطلّع إلى القيام بدور آخر يقود به تنفيذ السياسات الاقتصاديّـة البلشـفيّة، وبنفـس النمـط الذي قاد به تنفيذ أعمال اللجنة الاستثنائيّة لمكافحة التخريب وعملاء الثورة المضـادّة ـ تشيكا، وعلى حساب أرواح عدّة ملايين من الفلاّحين الروس. وبالفعل تمّ تعيينه رئيسًا للمجلس الأعلى الاقتصاديّ السوفياتيّ فـي شـهر شـباط ـ فـبراير ١٩٢٤، إلـى جـانب احتفاظه برئاسة تشيكا. غير أنّه في ٢٠ تمّوز ـ يوليو ١٩٢٦، وعقب إصابته المفاجئـة بذبحة صدريّة، لفظ أنفاسه الأخيرة بعد أن أسهم، ومنذ عام ١٩١٧، في إطلاق عمـلاق الرعب من تجاويف خبثه ودهائه ومزاجه الساديّ، جهاز أمن الدولة السـوفياتيّة، الـذي سيعرف في ما بعد بالإسم الرمزي KGB.

ويسجّل التاريخ الحافل لذلك الجهاز السوفياتي إسم "فياتسلاف رود لوفونيش ميترنسكي"، ثاني الرجال الذين تولّوا منصب رئاسة الـ KGB في أعقاب وفاة مؤسّسه دزرشنسكي عام ١٩٢٦. وإن كان ميترنسكي نموذجًا آخر للشخصيّات الباهتة التي أحيطت بالغموض أكثر ممّا عرف عنه من مظاهر الخبث والدهاء اللذين تميّز بهما سلفه دزرشنسكي، رغم أنّه عمل في كنفه مساعدًا ومنفّذًا للكثير من حملات الرعب التي شنّها جهاز الـ KGB طوال ستّة أعوام منذ إنشائه.

ولد فياتسلاف رود لوفونيش ميترنسكي في ٣١ آب ـ أغسطس عام ١٨٧٤ في مدينة سان بيترسبورغ (لينينغراد) لأب كان يعمل معلّمًا، وعلى النقيض من دزرشنسكي ، كان ميترنسكي ميّالاً للدراسة والتفوّق في دراسة القانون في جامعة سان بيترسبورغ التي حصل فيها على درجته العلميّة في عام ١٨٩٨.

أثناء دراسته الجامعيّة احترف ممارسة النشاط السياسيّ في صفوف الحركات الثوريّة حيث انضمّ إلى الحزب الروسي الاشتراكي الديمقراطي عام ١٩٠٢، غير أنّه عقب انعقاد المؤتمر السنويّ للحزب استقال من عضويّته وانضمّ إلى صفوف الحركة البلشفيّة، إلى أن أُلقي القبض عليه في عام ١٩٠٦، غير أنّه استطاع الإفلات والهرب إلى باريس بعد عام من اعتقاله، حيث واصل نشاطه السياسيّ الثوري كصحافي مهاجر. وظلّ مقيمًا في باريس حتّى عاد إلى روسيا في شهر تمّوز ـ يوليو عام ١٩١٧، عقب سقوط القيصر وأثناء حكومة "كيرنسكي" الانتقاليّة.

إلتحق ميترنسكي بمنظّمة بيتروغراد العسكريّة محرّرًا في صحيفة "الجندي" في الوقت الذي بدأ يخفّف فيه من نشاطه في إحدى خلايا البلاشفة وحتّى اندلاع الثورة في تشرين الأوّل ـ أكتوبر من نفس العام، ليستدعى لتولّي منصب الكوميسار المالي الشعبي للجنة الثوريّة العسكريّة.

ورغم تندّر زعماء البلاشفة آنذاك على كفاءة ميترنسكي وعدم إثبات مقدرته في أداء الكثير من المهامّ التي عهدت إليه ومعارضته "ليون تروتسكي"، وشكّه في الثقة التي منحت له، إلاّ أنّ دزرشنسكي، رئيس اللجنة الاستثنائيّة لمكافحة التخريب وعملاء الثورة المضادّة - تشيكا"، أصرّ على تعيينه نائبًا له، ومنحه كافّة صلاحيّات العمل في تنفيذ المهامّ الدمويّة التي كانت تقوم بها هذه اللجنة في أنحاء روسيا.

عندما تولّى ميترنسكي منصب رئاسة "تشيكا" في أعقاب وفاة دزرشنسكي، لم يعترض ستالين، وإن دفع بـ"جينيرج غريغورفيتش ياغودا" في منصب النائب الثاني لمنظّمة تشيكا، وأصبح فعليًّا الرئيس الفعلي الذي يحوز ثقة ورضا ستالين في قيادة أشرس أجهزة الشرطة السريّة في جميع أنحاء الاتّحاد السوفياتي حتّى عام ١٩٤٣.

ولد جينيرج غريغورفيتش ياغودا من أسرة يهوديّة فقيرة في مدينة "تيزني نوفوغرود" عام ١٨٩١، ولم تستطع أسرته توفير استكمال تعليمه، فهجر صفوف الدراسة في العاشرة من عمره، ليعمل في إحدى المطابع، ثمّ في أحد معامل الجلود بعد أن توسّط له أحد معارفه من أبناء أسرة ياكوف اليهوديّة. غير أنّه، وأثناء عمله، قام بسرقة بعض أدوات دباغة الجلود، ولاذ بالفرار إلى إحدى القرى الصغيرة المجاورة ليبدأ عمله المستقلّ في صناعة وتصليح الأحذية.

في تلك الحقبة، استهواه العمل في صفوف إحدى الخلايا الشيوعيّة السريّة حيث لفت انتباه دزرشنسكي، مؤسّس منظّمة الشرطة السريّة أو اللجنة الاستثنائيّة لمكافحة التخريب وعملاء الثورة المضادّة، الذي قام بإلحاقه بعضويّة اللجنة في عام ١٩١٩.

في مطلع عام ١٩٢٠، منحه دزرشنسكي ترخيصًا كـ"مدير أعمال"، حتّى يتسنّى له مزاولة مهنة الصيدلة التي لم يكن يعرف منها غير خبرته في صناعة السموم... الأمر الذي قرّبه، ووطّد صلاته مع ستالين بعد أن لفت انتباهه... وتشير سجلاّت أجهزة أمن

الدولة السوفياتيّة KGB إلى حادثة مميّزة في حياة ياغودا، عندما قام ستالين بإرساله في ٢٠ كانون الثاني - يناير ١٩٢٤، عشيّة وفاة لينين، بصحبة طبيب الكرملين إلى مدينة غوركي حيث كان لينين يتلقّى العلاج في أحد المصحّات...

في الصباح التالي، كان ياغودا يقوم بإبلاغ ستالين بوفاة لينين، كما تمّ العثور على زجاجات عقاقير خالية بجوار فراش الموت لم يستطع أحد ممّن أشرفوا على نقل الجثمان تفسير وجودها أو الموادّ التي كانت تحتويها...

أيًّا كان دور ياغودا في وفاة ستالين، فقد استطاع توطيد علاقته بالسكرتير الشخصي لجوزيف ستالين، ومن خلاله تمكّن من شقّ طريقه إلى أرفع المناصب في المكتب السياسي للحزب الشيوعي السوفياتي إلى جانب قيادته للشرطة السريّة KGB، إلاّ أنّه ألقي القبض عليه فجأة سنة ١٩٣٨، وقُدّم للمحاكمة بتهمة العمل ضدّ مصالح الدولة السوفياتيّة مع أحد عشر عضوًا قياديًّا بارزًا من بينهم "ريكوف" و"بوخارين" و"كريستنسكي" و"روزبغولتز"... وصدر الحكم بإعدامه مع الآخرين عقب محاكمات سريّة لم تستغرق ثلاثة أيّام.

غير أنّ أخطر القيادات التي هيمنت على أجهزة المخابرات السوفياتيّة وصنعت منها أسطورة للرعب بين ٢٢٥ مليون مواطن سوفياتي كان "لافرنتي بافلوفيتش بيريا" الذي اعتُبر الرجل الثاني في قمّة الزعامة السوفياتيّة في الحقبة التي تولّى فيها رئاسة هذه الأجهزة.

ولد لافرنتي بيريا في قرية صغيرة بالقرب من مدينة "سوخومي" في جورجيا في ٢٩ آذار ـ مارس ١٨٩٩، وتشير السطور المسجّلة لسيرته الذاتيّة في الموسوعة السوفياتيّة إلى أنّه ولد لعائلة أحد المزارعين الفقراء، إلاّ أنّ ذلك لم يحل دون تلقّيه العلم في إحدى المدارس الثانويّة بمدينة سوخومي عام ١٩١٥، الأمر الذي أهّله

للالتحاق بالدراسة في الكليّة الفنيّة بمدينة باكو. وفي آذار - مارس ١٩١٧، وأثناء تلقّيه الدراسة، التحق بصفوف الحزب البلشيفي، إلاّ أنّه بعد ثلاثة أشهر، استُدعي للخدمة العسكريّة على إحدى الجبهات مع رومانيا. وعقب انتهاء خدمته عاد إلى الكليّة الفنيّة في باكو لاستكمال دراسته وحصوله على درجته العلميّة في عام ١٩١٩ ولينخرط في صفوف أجهزة الدعاية البلشفيّة... ومع استيلاء الجيش السوفياتي على أذربيجان عام ١٩٢٠، تمّ إرساله إلى جورجيا ليعمل مع المجموعات المناهضة للبلشفيك إلى أن أُلقي القبض عليه وأرسل إلى المنفى.

غير أنّه عقب هربه وعودته إلى روسيا، سرعان ما انضمّ إلى عضويّة "تشيكا" في نيسان – إبريل ١٩٢٠، وطوال الأعوام العشرة التالية انخرط في عمليّات التجسّس في مناطق القوقاز، وفي عام ١٩٣١ تمّ ترفيعه إلى منصب السكرتير الأوّل للجنة المركزيّة للحزب الشيوعيّ السوفياتيّ في جورجيا والقوقاز، إلى أن أسند إليه ستالين رئاسة أجهزة أمن الدولة السوفياتيّة في عام ١٩٣٨.

عقب انتهاء سنوات الحرب العالميّة الثانية، أصبح بيريا عضوًا في المكتب السياسي للحزب الشيوعي السوفياتي. وفي ٧ آب – أغسطس ١٩٤٦، وهو اليوم التالي لإلقاء القنبلة النوويّة على هيروشيما من قبل الأميركيّين، كلّفه ستالين الإشراف على برامج التسلّح النووي السوفياتي، وإلى أن توفّي ستالين في عام ١٩٥٣، ازدادت طموحات بيريا وأصبح يتطلّع إلى السيطرة على الدولة وتنصيب نفسه في قمّة الزعامة. وكما سجّلت أحداث العام الأخير في حياة بيريا، أُلقي القبض عليه وتمّت محاكمته سرًّا ونُفّذ فيه الإعدام بالرصاص على أيدي مجموعة من ضبّاط الـ KGB نفسها.

قائمة الذين تولّوا قيادة أجهزة أمن الدولة السوفياتيّة تضمّ، إلى جانب هذه الأسماء، عددًا آخر من القيادات التي امتلأت حياتها وحقب تولّيها منصب رئاسة هذه الأجهزة بالكثير من موجات العنف والإرهاب وحكايات الرعب التي سيطرت على الملايين من المواطنين في الاتّحاد السوفياتي طوال أكثر من سبعة عقود، ومع المعاول التي دقّتها الجماهير الروسيّة في تماثيل ورموز هذه القيادات وتوالي قرارات رئيس الدولة ميخائيل غورباتشوف ورئيس الجمهوريّة الروسيّة يلتسن... وتنطوي حقبة عاصفة في حياة شعوب الأمبراطوريّة السوفياتيّة التي تفتّتت وانهارت بأسرع ممّا تفعل حركة السكّين في قطعة الزبدة الروسيّة[1]...

---

١ ـ الجزائري سعيد، المخابرات والعالم، دار الجيل (بيروت،١٩٩٧) ٥: ٥٠٩ ـ ٥١٩.

المخابرات السوفياتيّة وغورباتشوف في قمّة السلطة

مع تفاقم الصراع السياسي بين الاتّجاهات والتيّارت التي كانت متناحرة في الاتّحاد السوفياتي، أخذ مفهوم "البيروسترويكا" يتقلّص لمصلحة العودة إلى الأساليب التقليديّة في إدارة الصراع، وتعاظم دور جهاز المخابرات السوفياتيّة المعروف رمزًا بالـKGB فيه، بل وربّما استعمال الـ KGB كأداة أساسيّة في ممارسة الضغوط على الخصم بين الأطراف المتنازعة، وفي التدخّل بشكل ظاهر في الشؤون الاقتصاديّة والسياسيّة.

تجلّت العودة في حينه من قبل الزعيم السوفياتي "ميخائيل غورباتشوف" في الاتّكال على هذا الجهاز بشكل أساسي بعد كلام كثير على تقليص دوره في إطار تجديد الهيكليّة السياسيّة والإداريّة السوفياتيّة، نتيجة تفاقم الصراع السياسيّ بين التيّارات المختلفة على الساحة الداخليّة، هذا الصراع الذي أشار غورباتشوف إلى أنّه على وشك تفتيت البلاد وشرذمتها وإدخالها في أتون الحروب الأهليّة، وتحويلها من قوّة عظمى إلى مرتبة أدنى بكثير من ذلك بسبب تزايد النزاعات الانفصاليّة والتوترات القوميّة والعرقيّة.

كانت أولى بوادر عودة الـ KGB إلى الساحة علانية قيام رئيس المخابرات "فلاديمير كريشكوف" قبل أسابيع قليلة من بداية عام ١٩٩١ باتّهام حركات المعارضة السوفياتيّة وخصوصًا الراديكاليّين، بأنّها تتلقّى دعمًا من قوى خارجيّة، وقد أشار كريشكوف في حديث للتلفزيون السوفياتي حينئذ إلى أنّ الديمقراطيّة والمكاشفة

تصبحان كلمات جميلة إذا كان هناك قانون ونظام في المجتمع، وأضاف "إنّ تضخّم بعض الحركات الراديكاليّة ليس نتيجة للمصادفة وإنّما هو أمر مخطّط وبعضها يحظى بمساعدة ماليّة من الخارج".

كذلك أوضح رئيس الـ KGB في مجال آخر بأنّ "جهات متعدّدة تشنّ حربًا خفيّة على السلطات السوفياتيّة"، وأشار إلى أنّ المهمّة الرئيسيّة هي تطبيق قرار البرلمان في شأن مكافحة التخريب الاقتصادي والرقابة على استخدام المنتجات المستوردة عبر القنوات الشرعيّة.

وعندما أطلق الزعيم السوفياتي غورباتشوف بعدئذ أيدي أجهزة المخابرات والشرطة، بإعطائها صلاحيّات واسعة عبر مرسوم رئاسي، سمح لهم بدخول الدوائر والمكاتب والمؤسّسات العامّة والخاصّة، باستثناء البعثات الدبلوماسيّة، وتفتيشها ووضع اليد على أموالها حتّى في غياب مالكيها. كما سمح بالحصول على معلومات من المصارف في شأن العمليّات النقديّة والنشاط الاقتصادي الخارجي، ومنع التصرّف بالأموال والوثائق في حيازة المؤسّسات بما فيها المختلطة التي يساهم فيها رأسمال أجنبي.

عندما فعل غورباتشوف ذلك، في الاتّجاه إلى سياسة التشدّد، لاقت تدابير الزعيم السوفياتي ردود فعل رافضة ومستنكرة ومنتقدة من قبل الراديكاليّين والليبراليّين على السواء. فالليبراليّون الذين يسيطرون على مجلس مدينة موسكو، اعتبروا هذه التدابير بمثابة إعلان لحال الطوارئ وتطاولاً على صلاحيّات الهيئات المنتخبة شرعيًا في الجمهوريّات والمدن المتعدّدة، ورفضوا القرار وطالبوا البرلمان الروسي بإلغائه، فيما علّق أحد أبرز الراديكاليّين، وهو الجنرال "كوميساروف"، الصديق المقرّب لـ"بوريس يلتسين"، ومدير شرطة موسكو، بأنّ الرئيس غورباتشوف فشل في التغلّب على الأزمة

الحاليّة التي تمرّ بها البلاد والتي يتحمّل مسؤوليّتها الحزب الشيوعيّ وكلّ عضو فيه.
وأعلن كوميساروف "أنّه سيجري إصلاحات جذريّة في مديريّة شرطة العاصمة السوفياتيّة من بينها تعليق عضويّة عناصرها في الأحزاب، بما فيها الحزب الشيوعي، وحلّ كلّ منظّماته في دوائر الشرطة في العاصمة".

ولكن ربّما كان أبرز ردّ فعل في روسيا الاتّحاديّة التي يرأسها يلتسين على تدابير غورباتشوف في إطلاق يد المخابرات اتّخاذ البرلمان الروسي لقرار بتشكيل لجنة خاصّة لأمن الدولة، أي جهاز مخابرات خاصّ بروسيا، حيث وجّه عدد كبير من النوّاب الروس نقدًا شديدًا لخطاب رئيس المخابرات السوفياتيّة كريشكوف الذي سبق وألقاه عبر التلفزيون السوفياتي، واعتبروه تجاوزًا لصلاحيّات الـ KGB.

في الواقع، أنّ "حربًا إستخباريّة" قد دارت بين الأجنحة المختلفة في الـ KGB، عبّرت عن الصراع السياسيّ بين الرئيس غورباتشوف والتيّارات المناوئة له، حيث أعلن عن تورّط رئيس وزراء روسيا "إيفان سيلايف" ونائبه "غينادي فيلشين" في صفقة سريّة لمقايضة ١٤٠ بليون روبل بـ ٧,٧ بليون دولار أميركي، علمًا بأنّ الدولار يعادل رسميًّا نصف روبل، وحيث تمنع القوانين السوفياتيّة تداول الروبل خارج البلاد، مما أضفى بعدًا سياسيًّا على الصفقة وجعلها ورقة أخرى في الصراع بين المركز وروسيا الاتّحاديّة.

وكان قد أعلن في وقت سابق أنّ الطرف السوفياتي في هذه الصفقة يمثّله "ألكسندر سفيريدوف"، وهو عضو في حركة "روسيا الديمقراطيّة" المساندة لبوريس يلتسن، فيما الطرف الثاني هو البريطاني "كولن غيينس" الذي أوضح التحقيق أنّه مطلوب من الأنتربول... وقد أبلغ "ألكسندر سيبويف" رئيس قسم التحقيقات في النيابة العامّة صحيفة "روسيا السوفياتيّة" أنّ صفقة كانت أعدّت في ظروف السريّة التامّة، ولكنّه

أشار إلى "أنّ عددًا من الوثائق المتعلّقة بها، يحتمل أن تكون سرقت من البرلمان الروسي". وأضاف أنّ مجهولين تقف وراءهم قوى منظّمة واسعة النفوذ وجّهوا تهديدات إلى فرق التحقيق.

بالمقابل، لم تنفع إيضاحات وزير التجارة في روسيا "فيكتور كوزلوف" بأنّ الحكومة الروسيّة كانت قرّرت شراء "بضائع ضروريّة" للشعب بمبلغ ١٤٠ بليون روبل، وهو قيمة الصفقة، والذي أبلغ صحيفة "المنبر" أنّ شركات أجنبيّة قدّمت عرضًا لبيع البضائع بسعر للدولار يراوح بين ٢٢ و٢٥ روبلاً، ثمّ خفض السعر إلى ١٨ روبلاً، حيث ذكر أنّ المقصود لم يكن تبديل عملة بأخرى، مضيفًا أنّ الصفقة كانت تلزم الشركات المذكورة باستثمار الروبلات في روسيا لبناء مؤسّسات صناعيّة برأسمال مشترك، ومن ثمّ تسويق منتجاتها في الخارج.

على أيّ حال، إنّه الصراع السياسيّ في الاتّحاد السوفياتي، وقد تحوّل إلى صراع مفتوح وفضائحي، وقد أطلقت فيه أيدي المخابرات بأجنحتها المختلفة المتواجهة كأدوات، في دراما قديمة إسمها: السلطة[1].

١ ـ الجزائري سعيد، ملفّ التسعينات عن المخابرات، دار الجيل (بيروت، ١٩٩٧) ١: ٢٥٧ ـ ٢٦٠.

الشَّبكة السوفياتيَّة على الأراضي السويسريَّة

بالرغم من طابع "الحياد" الذي تتميز به سويسرا إلا أنها لم تفلت من قبضة المخابرات السوفياتية التي وجدت فيها حقلاً خصبًا لتغلغل شبكة تجسسية اعتبرت من أهم الشبكات خلال الحرب العالمية الثانية، سواء من حيث كمية المعلومات التي حصلت عليها أو قيمتها أو مدى تغلغل مصادرها في الأوساط الحكومية والعسكرية الألمانية. وإذا كان هناك كثير من شبكات الحلفاء التي مارست نشاطًا متزايدًا ضد ألمانيا من داخل أراضيها أو من الدول المجاورة لها، كالشبكات الإنكليزية في البلاد الواطئة والدانمارك وسويسرا والشبكة الأميركية في سويسرا وبعض الدول التي خضعت للإحتلال الألماني، فإن الشبكة السوفياتية بسويسرا تأتي في المرتبة الأولى بالنسبة لها من حيث مدى أهمية إنجازاتها بصفة عامة ومساهمتها خاصة في الانتصارات الحربية التي حققتها الدولة التي تنتمي إليها، وهو نشاط هائل وكبير بالفعل.

رغم عدم وجود علاقات دبلوماسية بين الاتحاد السوفياتي وسويسرا حيث قطعت العلاقات بينهما منذ عام ١٩٢٢ ولم تستأنف إلا في أعقاب الحرب العالمية الثانية، وبالتالي عدم توافر هيئات أو أفراد تابعين لموسكو يتمتعون بالحصانة الدبلوماسية ويمكن أن يقوموا مباشرة بإنشاء وتشغيل شبكات للجاسوسية أو حتى القيام بدور مساعد لها، وقد اتضح بعد ذلك مدى أهمية تواجد هؤلاء الأفراد والمنظمات في سويسرا لتقديم المساعدات المالية والفنية والحيلولة دون انهيار الشبكة في وقت مبكر

نسبيًا.. رغم ذلك، حرص المسؤولون في المخابرات السوفياتية على أن تكون سويسرا في مقدمة مراكز نشاطهم في أوروبا نظرًا للعوامل التالية:

أولاً: وجود حدود مشتركة بينها وبين ألمانيا والدول الأخرى التي سيطرت عليها (فرنسا ـ النمسا مثلاً) مما يساعد شبكاتها على سهولة استقبال المعلومات التي ترد من مصادرها في هذه الدول أو البحث عن مصادر جديدة فيها.

ثانيًا: توافر مصادر معلومات غزيرة داخل سويسرا نفسها من جانب الألمان المعادين للنازية أو الموالين للشيوعية أو الجواسيس المأجورين أو غيرهم.

ثالثًا: الحياد الذي تمتعت به وعدم توافر احتمالات مؤكدة لهجوم ألمانيا عليها نظرًا للظروف الدولية والداخلية التي كانت سائدة حينئذ.

رابعًا: عدم وضعها لقيود مشددة على نشاط شبكات الجاسوسية التابعة لدول الحلفاء بعكس الشبكات الألمانية التي قيدت نشاطها بالمقارنة مع شبكات الحلفاء.

خامسًا: ما لمسه المسؤولون السوفيات بعد ذلك من تعمد إمداد سويسرا للشبكة السوفياتية بمعلومات حيوية عن ألمانيا لاعتقادها أن ذلك يخدم المصلحة العليا السويسرية حيث كانت الحكومة السويسرية تخشى من انتهاك ألمانيا لحيادها والإستيلاء على الأقاليم التي يقطنها المواطنون السويسريون الذين يتكلمون اللغة الألمانية. وأدركت، لذلك، أن تأخر انهيار الاتحاد السوفياتي وتحول مجرى الحرب لصالحه سيحول دون شروع ألمانيا في تنفيذ مخططاتها تجاهها.

يمتد تاريخ وجود الشبكة السوفياتية في سويسرا إلى ما قبل نشوب الحرب العالمية الثانية، ولم تأخذ شكلها الكبير الذي عرفت به إلا بعد قيام الحرب وبروز ألمانيا التوسعية واتجاهها لتنفيذ مخططاتها لغزو الاتحاد السوفياتي.

رغم ارتباط النشاط الحقيقي للشبكة بالظروف التي مرت بها العلاقات الألمانية السوفياتية، إلا أنه ارتبط أيضًا بشكل أساسي بوجود ثلاثة أشخاص يعملون على رأس الشبكة حركوا أحداثها وصنعوا إنجازاتها وتسببوا بصفة جوهرية في النجاح الذي وصلت إليه وهم: "ألكسندر رادو" المدير المقيم لها، و"رودولف روسلر" أهم مصادر المعلومات للشبكة، و"ألكسندر فوت" الرجل الثاني لها. وهنا لا بد من الإشارة إلى هذه الشخصيات وإنجازاتهم وتأثيرهم على أعمال الشبكة ومهماتها.

فأول ما يجدر ذكره عند الحديث عن "ألكسندر رادو" هو أنه لم يكن جديرًا بمنصب المدير المقيم للشبكة واحتلاله بالتالي للمركز الأول بين أعضائها، وذلك على ضوء القواعد الأساسية لفن المخابرات ودقة اختيار الأجهزة السوفياتية لعملائها. فرغم اتجاهاته الشيوعية ونشاطه المبكر في خدمتها حيث كان أحد قادة الثورة الشيوعية في المجر عام ١٩١٨ وهجر إلى موسكو في أعقابها، وكُلف بالقيام بمهام كبيرة لصالح الحزب والمخابرات في السويد والنمسا وألمانيا وفرنسا، فإنه لم يرتقِ إلى المستوى الذي يحتمه عليه مركزه في الشبكة وطبيعة العمل السري الذي يجب أن يغلف معظم أوجه نشاطه المتعلق بها إن لم يكن يجمعها، ويدل على ذلك:

- إسرافه في إنفاق أموال الشبكة بغير تدبّر مما أسفر أولاً عن جذب اهتمام أجهزة مقاومة الجاسوسية الألمانية والسويسرية إليه، وثانيًا إلى التعجّل بوقوع الشبكة في أزمة مالية كانت من بين الأسباب الرئيسية التي أدت إلى توقف نشاطها في وقت تعذر فيه إمدادها بأيّ مساعدات من جانب موسكو أو الحزب الشيوعي السويسري.

- احتفاظه بقوائم مصروفات الشبكة التي تكشف بوضوح تفاصيل نشاطها المالي.

- سهولة تقبله للإثارة وعدم قدرته على السيطرة على شعوره في الأوقات الحرجة.

- تورطه في إقامة علاقة مع إحدى عميلات الشبكة والتي كانت من أهم الأسباب التي أدت إلى كشف نشاط الشبكة وإدانة أعضائها.

- عقد اتصالات بينه وبين زعماء الحزب الشيوعي السويسري ومخالفة بعض إجراءات الأمن الأخرى.

رغم كل ذلك، فإن هذا لا يعني انعدام الفوائد التي حصلت عليها الشبكة من رئاسته لها أو انتقاء وجود جميع شروط العميل الناجح فيه، حيث اتخذ ساترًا جيدًا لتغطية نشاطه كأحد مديري وكالة متخصصة في الموضوعات والخرائط الجغرافية، مما أتاح للشبكة مصادر هامة للمعلومات.

أمّا "رودولف روسلر" فإنه يعتبر من أهم العملاء الذين عملوا في ميدان المخابرات خلال الحرب العالمية الثانية بصفة خاصة، وجميع المراحل التاريخية السابقة بصفة عامة، سواء من حيث كمية المعلومات التي حصل عليها أو ارتفاع مستوى المصادر التي حصل منها على هذه المعلومات أو التقارب الزمني لإمداداته منها حتى وصلت أن تكون يومية في بعض الأحيان.

ولا بد هنا من الإشارة إلى ما ذكره كبار الكتاب والجواسيس عن روسلر في هذا المضمار. وقد أشار "لاديسلاس فارغو" مؤلف كتاب "حرب الدهاء" إلى "أنه من النادر أن يكون لجاسوس بمفرده أثر حاسم على مجرى التاريخ. ولكن رودولف روسلر كان ذلك الرجل". كما أوضح "رونالد سيث" مؤلف كتب: فن الجاسوسية، تاريخ الجاسوسية اليابانية، الجاسوسية على المشرحة" بأنه "ليس من المبالغة في شيء إذا قيل بأن الاتحاد السوفياتي مدين بالنصر الذي أحرزه على ألمانيا لروسلر أكثر من أي شخص آخر بما في ذلك ستالين نفسه".

وعلى هذا الأساس أشار "دافيد دالن" في كتابه "الجاسوسية السوفياتية" إلى "أن روسلر لم يؤدّ فقط أعمالاً هامة في الجاسوسية السوفياتية لعدة سنوات، ولكنه كان أيضًا من بين كبار الجواسيس". وكذلك كتب "ألكسندر فوت"، الرجل الثاني في الشبكة السويسرية ومؤلف كتاب "الموجز للجواسيس" أنّ "أعمال روسلر هي التي مكنت الاتحاد السوفياتي من الانتصار على ألمانيا، حيث أرسل إلى موسكو معلومات عن موقف القوات الألمانية في الجبهة الشرقية يومًا بيوم".

لم تقتصر الدوافع التي وقفت وراء قيامه بالدور الملموس في كسب الاتحاد السوفياتي للحرب ضد ألمانيا على عامل واحد فقط، بل امتزجت عوامل عديدة تمثل في النهاية دوافعه التي تفسّر موقفه هذا ومنها على سبيل المثال:

- يعتبر عداؤه للنازية العامل الأساسي الذي دفعه للعمل ضدها. وقد اتخذ ذلك صورًا عنيفة في وقت مبكر نسبيًا حيث كان يهاجمها باستمرار في إحدى الصحف المحلية، وهاجر إلى سويسرا بعد استيلاء قادتها على الحكم عام ١٩٣٣، وأنشأ دارًا للطباعة في "لوزيرن" تخصصت في إصدار المطبوعات المناهضة للنازية.. وذلك بعكس كثير من الألمان الآخرين الذين تبلورت ميولهم العدائية تجاه النظام بعد تعرض الجيوش الألمانية للهزيمة، وظهور احتمالات عدم كسبها الحرب وبالتالي تعرض مستقبل الأمة الألمانية برمتها للخطر.

- لا يستطيع أحد أن ينفي أن رغبة روسلر الشديدة في الحصول على المال هي الدافع الثاني والهام الذي حرك أعماله. وتدلنا المبالغ الشهرية الكبيرة التي حصل عليها من الاتحاد السوفياتي (١٧٠٠ دولار) على حقيقة هذا الرأي.

إلا أن ما يجب الاعتراف به أن أعمالاً كتلك التي قام به روسلر كانت تفرض بمبالغ طائلة كمستلزمات وضرورات لا بد منها.

- يحرص بعض الكتاب الغربيين باستمرار على تأكيد أن نشاط روسلر لصالح الشبكة كان بناء على أوامر وتحت إشراف السلطات السويسرية، إلا أن انضمامه لعضوية جمعية كاثوليكية يسارية وحصوله على مبالغ طائلة من النقود، فضلاً عن قبض السلطات السويسرية عليه مرتين بتهمة الجاسوسية، يدل على أن هذا الرأي لا ينطبق على الواقع بشكل كامل، بل يوضح أن هذا الإشراف كان ضمن الإطار العام الذي غلف موقف المسؤولين السويسريين تجاه أجهزة المخابرات التابعة للحلفاء ويتماشى رأي "ألكسندر فوت" مع هذا الاتجاه الأخير حيث لم يؤيد الرأي السابق بل أوضح أن روسلر ظل مخلصًا للمسؤولين السويسريين وللروس. وأنه نظرًا لحسن حظه لم تتعارض مصالح كلتي الدولتين.

والجدير بالذكر أن المعلومات التي حصل عليها روسلر فاقت جميع ما حصل عليه الأعضاء الآخرون، مما أعطى له أهمية خاصة بينهم وجعل المشرفين على الشبكة في موسكو يحرصون باستمرار على كسب وده بمختلف الوسائل.

كذلك الحال بالنسبة لشخصيّة "ألكسندر فوت" وأعماله التي حظيت بعناية خاصة من جانب المؤلفين الغربيين الذين تناولوا أعمال الشبكة السوفياتية في سويسرا سواء من حيث تخصيص حيز كبير نسبيًا لأعماله في عدد كبير من كتب الجاسوسية أو وصفهم له بأكمل الصفات (كان استاذاً في الجاسوسية ويتمتع بالصفات اللازمة للجاسوس الناجح وبقدرة فائقة على العمل المتواصل - يعتبر جاسوسًا ممتازًا من الطبقة الأولى، يحسن التصرف والتفكير ولديه مقدرة كبيرة على استخلاص النتائج ومراعاة إجراءات الأمن...).

والسؤال الذي يطرح نفسه في هذا الشأن هو: هل يرجع السبب الأساسي في ذلك إلى تمتعه بالجنسية البريطانية وعدم تورطه في عمل مضاد لبلاده أو

لأي من حلفائها؟ أم أن تلك الصفات التي أسبغوها عليه تجد لها أساسًا من الواقع والحقيقة؟

لا شك في أن التتبع الواعي لما كتب من أعمال وشخصية "فوت" وتفاصيل التجائه إلى السلطات البريطانية بعد انتهاء الحرب، يوضح أن الاتجاه الذي سار فيه الكتاب الغربيون يجد تفسيرًا له في كلَي الأمرين معًا، أي أنّه كان بالفعل من الجواسيس السوفيات الذين يعتمد عليهم. وإن عدم تورطه في أي عمل ضد أمن بلاده كان له أيضًا أثره الواضح في أن تتسم الصورة التي أعطيت له بهذا الكمال، وألا يقلل من قيمة بعض الأعمال التي قام بها كما حدث بالنسبة لأشخاص آخرين ألمان وفرنسيين وأميركيين وبريطانيّين.

كان الساتر الذي اتخذه فوت لتغطية حقيقة نشاطه هو شخصية رجل أعمال إنكليزي متيسر الحال مقيم بسويسرا لا يجيد سوى الراحة والاستجمام، وقد انحصر العمل الرئيسي الذي قام به في تحويل الرسائل العادية التي ترسلها الشبكة إلى موسكو إلى أخرى مشفرة، ثم إرسال معظمها عن طريق جهاز اللاسلكي الذي يخفيه في مسكنه... وفي تدريب عملاء الشبكة الجدد... والحصول على معلومات من بعض المصادر.

نجح "فوت" إلى حد كبير في مراعاة القواعد الأساسية للشخصية التي تقمصها إلى الدرجة التي أدهشت كل من اتصل به أو تعامل معه من سويسريين أو أجانب بعد الإعلان عن حقيقة نشاطه بواسطة سلطات الأمن السويسرية.

كما نجح في أن يكون عامل اللاسلكي الأول بالنسبة للشبكة رغم وجود جهازين آخرين للإرسال... فقد أرسل نحو ستة آلاف رسالة إلى موسكو.

وقبل التطرّق لإنجازات الشبكة وتأثيرها على تغيير مجرى الحرب لصالح الاتحاد السوفياتي، هناك جانب هام تجدر الإشارة إليه، وهو موقف السلطات السويسرية من نشاط الشبكة. ويثار حول طبيعة هذا الموقف في الواقع كثير من التساؤلات كما تتسم بعض جوانبه بالتناقض. فيلاحظ أن بعض المصادر الغربية ترجح العامل الأساسي في نجاح الشبكة إلى الخدمات التي قدمتها السلطات السويسرية لها، كإمدادها بمعلومات كثيرة عن طريق روسلر، وغض النظر عن نشاط الشبكة داخل أراضيها لفترة طويلة نسبيًا... ويتفق في هذا الرأي كل من "دافيد دالن" و"رونالد سيث". إلاّ أن هذا الاتجاه إذا كان واقعيًا في بعض جوانبه، فهو يبالغ في تصوير المساعدات السويسرية للشبكة السوفياتية وفي تقليل الامكانيات الحقيقية لأجهزة المخابرات السوفياتية التي أثبتت كفاءتها وقدرتها على العمل في دول وظروف عجزت أكفأ الأجهزة الأخرى عن العمل فيها. كذلك نشأت التناقضات المشار إليها من موقف كل من السلطات العسكرية بقيادة الجنرال "جيسان"، القائد الأعلى للجيش السويسري والذي كان له دور بارز في الشؤون الداخلية والخارجية لبلاده طوال فترة الحرب، وسلطات الأمن الداخلية تجاه نشاط الشبكة. فبينما كان جيسان وزملاؤه يسمحون لها بحرية العمل ويمدونها في نفس الوقت بمعلومات وافرة عن القوات الألمانية بطريق غير مباشرة وللأسباب السابق شرحها، سعت الأخرى في إطار ممارسة نشاطها العادي إلى محاولة الكشف عن حقيقة نشاط الشبكة السوفياتية والقبض على أعضائها، ويمكن إلقاء بعض الضوء على أسباب هذا التناقض بالنظر إلى:

- تطرق عمل الشبكة إلى الشؤون الداخلية والخارجية الخاصة بسويسرا وعدم اقتصار نشاطها على ما يتعلق بألمانيا فقط، مما دفع أجهزة الأمن إلى التحرك للقبض على أعضائها.

- إلحاح المسؤولين بسفارة ألمانيا ببرن على هذه الأجهزة للقيام بذلك وتقديمهم لكثير من الأدلة التي تثبت إدانة أعضاء الشبكة، ومنها كتاب الشيفرة الذي يستخدمونه مثلاً.

- التنافس القائم بين أجهزة مقاومة الجاسوسية التابعة لكل من المخابرات الحربية السويسرية وأجهزة الأمن الأخرى والذي دفع الأخيرة إلى المبادرة باكتشاف نشاط الشبكة دون التنسيق مع المخابرات الحربية.

على أيّ حال، فإذا كانت الشبكة السوفياتية باليابان قد نجحت في الحيلولة دون هزيمة السوفيات أمام ألمانيا، والمساهمة في تحقيق الانتصار النهائي في الحرب، فإن إنجازات الشبكة السوفياتية في سويسرا قد جعلت من هذا الانتصار حقيقة واقعة، وإذا تصورنا أن القادة العسكريين لدولة ما على دراية كاملة بمعظم الخطط التكتيكية والاستراتيجية لقوات الدولة المتحاربة ضدهم، فيمكن أن ندرك قيمة وشمول المعلومات التي حصلت عليها الشبكة السويسرية ومدى استفادة القوات السوفياتية منها، ومن أهم الانجازات التي حققتها تلك الشبكة:

أولاً: إبلاغ موسكو بالتاريخ المحدد لغزو ألمانيا للأراضي السوفياتية (٢٢ حزيران - يونيو ١٩٤١).

ثانيًا: معرفة الكثير من الخطط الاستراتيجية والتكتيكية للقيادة الألمانية العليا.

ثالثًا: الحصول على معلومات تفصيلية عن قوة وتشكيل وتحركات القوات الألمانية بأسلحتها الثلاثة الرئيسية.

رابعًا: الإسراع بتلبية الاحتياجات العاجلة التي ترسلها المخابرات السوفياتية عن بعض الشؤون المحددة.

إلى جانب ذلك، لم يقلّ نشاط أحد أكبر الجواسيس الروس في سويسرا عن نشاط تلك الشبكة السوفياتية هناك، وهذا الجاسوس هو "ليف مويزيوفيتش باكاريوف".

كان باكاريوف هذا قد تدرب في معهد "براخوفكا" ويدير شبكة جاسوسية ناجحة في سويسرا وبالتحديد في جنيف وبال وبرن مدعيًا أنه رجل أعمال نمساوي. وكان مجال عمله في "المخابرات الدبلوماسية والحكومية". وقد زود موسكو بمعلومات سرية ذات قيمة كبيرة لمندوبي الكرملين في المؤتمرات الدولية. وقد ورد ذكره في مجلة "البريد الدبلوماسي" الروسية التي امتدحت بشكل مباشر الجاسوس المقيم في سويسرا إذ قالت: "وردت معلومات من جنيف مكنت المندوب السوفياتي في الأمم المتحدة من أن يفضح خطط اعتداء سرية يعدها الأميركيون".

وهكذا يتضح أن "الحياد" لا مكان له في قاموس الجاسوسية حتى ولو كان في عاصمة الحياد ذاتها في سويسرا[1].

---

١ ـ زهر الدين د صالح، ملف الاستخبارات السوفياتيّة، المركز الثقافي اللبناني (بيروت،٢٠٠٣) ص٩٣ ـ ١٠١.

المخابرات السوفياتيّة وتغلغلها في الدولة الفرنسيّة

إحتلّت فرنسا مكانة هامّة عبر تاريخها الطويل حتّى الحرب العالميّة الثانية، التي انتقلت بعدها زعامة العالم إلى الجبّارين المتمثّلين بكلّ من الولايات المتّحدة الأميركيّة والاتّحاد السوفياتي. إلاّ أنّ الأمبراطوريّة الفرنسيّة كانت الحقل الجيّد والواسع لكي يمارس فيه الاتّحاد السوفياتي جاسوسيّته المتفوّقة والمتطوّرة، وخصوصًا بعد الحرب العالميّة الثانية، حتّى أصبحت تحتلّ المرتبة الأولى في اهتمام المخابرات السوفياتيّة على أساس مناهضتها المبكرة للنظام السوفياتي بعد ثورة تشرين الأوّل ـ أكتوبر الإشتراكيّة عام ١٩١٧، وكذلك تمتّعها بمكانة دوليّة كبيرة في حقبة ما بين الحربين، الأمر الذي دفع موسكو إلى تركيز نشاط أجهزة مخابراتها فيها معتمدة في ذلك بصفة أساسيّة على الحزب الشيوعي الفرنسي الذي يتمتّع بنفوذ واسع في الداخل، وعلى عملاء آخرين استغلّت الوسائل المعروفة في تجنيدهم. ورغم تحوّل الاهتمام الأساسيّ للأجهزة السوفياتيّة من فرنسا إلى ألمانيا بعد تولّي الحزب النازي للحكم عام ١٩٣٣، فقد استمرّت الأجهزة السوفياتيّة في اهتمامها بالساحة الفرنسيّة والإبقاء على نشاط عملائها فيها. وهنا لا بدّ من الإشارة إلى الدور الذي لعبه رئيس هذه الشبكة الجاسوسيّة التي عُرفت بالأوركسترا الحمراء، وهو "ليوبولد تريبار"، الذي يعتبر دماغ هذه الشبكة ومحرّكها دون إنكار الدور الهام لبقيّة أعضائها الآخرين.

كان ليوبولد تريبار يهوديًا من بولندا، ويمتدّ تاريخ انضمامه للمخابرات السوفياتيّة إلى ما قبل نشوب الحرب العالميّة الثانية بوقت طويل، وقد تميّز بذكائه وحسن تصرّفه وقدرته على مواجهة الظروف الطارئة. وقد أكسبه ولاؤه للشيوعيّة ثقة المسؤولين في الحكومة والحزب والمخابرات السوفياتيّة إلى الحدّ الذي دفعهم إلى تعيينه مديرًا مقيمًا لكافّة الشبكات الاستخباريّة السوفياتيّة في دول غرب أوروبّا.

تُعتبر سياسة الحكم النازي المعادية لليهود علنًا أحد الدوافع التي حرّكت جهود تريبار للعمل ضدّ ألمانيا حيث وقفت على قدم المساواة مع الدوافع الأخرى، إن لم تكن تفوقها، بعد أن ضاعف نشاطه للحصول على المعلومات التي تكفل في النهاية هزيمة ألمانيا والقضاء على النظام النازي فيها، كما سعى إلى تجنيد كثير من اليهود من جنسيّات مختلفة وضمّهم إلى الشبكة للعمل على تحقيق الهدف نفسه.

تميّزت بعض أعمال تريبار بالجرأة والابتكار. ومن أبرز الأمثلة على ذلك قيامه باستغلال صلاته بقنصل المجر في بلجيكا، وكانت العلاقات بين ألمانيا والمجر طيّبة، في اصطحابه خلال قيامه بتفقّد أحوال رعايا بلاده في فرنسا بعد إقناعه بأنّ متابعة فروع شركة الملابس الواقية من المطر هناك يقتضي ذلك، وقد تمّ بالفعل تنظيم رحلة مشتركة إلى المناطق التي تدور فيها المعارك بين القوّات الألمانيّة والفرنسيّة. وخلال هذه الرحلة قام تريبار بتعطيل السيّارة المدنيّة التي كان يستقلّها مع مرافقيه وانتقل إلى سيّارة ألمانيّة قامت بالانتقال عبر الخطوط الألمانيّة ومراكز الحشود الخاصّة بها... وقد تمكّن تريبار خلال هذه الجولة من كتابة تقرير مطوّل عن استراتيجيّة هتلر في الحرب الخاطفة وعن طرق تعزيز القادة الألمان لقوّاتهم وكيفيّة إدارتهم للمعركة والدور الذي كانت تقوم به قوّات العاصفة للقضاء على الدفاع المضادّ للمدرّعات المعادية.

إتّخذ المدير المقيم للشبكة "تريبار" من فرنسا مقرًّا رئيسيًّا لشبكته نظرًا لأهميّتها وموقعها الجغرافيّ في وسط دول غرب أوروبّا، التي تُعتبر المجال الأساسي لتحرّك الشبكة. وقد اعتمد في تنظيمها على كثير من العملاء الذين كانوا مجنّدين بالفعل لصالح الاتّحاد السوفياتي وينتمون إلى الشبكات المختلفة التي كانت تمارس نشاطها في ذلك الوقت، فضلاً عن العملاء الذين قام بتجنيدهم بالتعاون مع الأعضاء الرئيسيّين للشبكة.

أمّا في ما يتعلّق بالسواتر التي اتّخذها أعضاء فرع الشبكة في فرنسا، لتغطية حقيقة نشاطهم، والعمل من خلالها على تحقيق الأهداف المحدّدة، فقد انحصرت بصفة أساسيّة في النشاط التجاري والعمل الصحافي. وكان الساتر الأخير يستخدم بكثرة في حقبة ما قبل الحربين العالميّتين، نظرًا لما يتيحه من مرونة وتغطية مناسبة لمن يمارسه. وقد قامت المخابرات السوفياتيّة بالفعل بإيفاد عدد كبير من العملاء إلى فرنسا ليعملوا كمراسلين صحافيّين، كما قامت بتجنيد عدد من الروس البيض الذين هاجروا إليها للعمل في نفس الميدان مستغلّة استمرار ارتباطهم بالوطن الأمّ وعطف بعضهم على النظام الشيوعي الجديد، خاصّة بالنسبة للجيل الثاني من المهاجرين.

إستمرّ بعض العملاء في استخدام السواتر المختلفة بما فيها العمل الصحافيّ بعد أن تولّى تريبار الإشراف على نشاطهم. إلاّ أنّه لجأ إلى التوسّع في استخدام النشاط التجاري كساتر رئيسيّ نظرًا لما يتيحه من إشراك أكبر عدد ممكن من العملاء فيه، فضلاً عن كفالة حريّة الحركة والانتقال إلى المدن والدول المختلفة لمباشرة الإشراف على فروع الشبكة (الشركات) فيها وتنفيذ أهدافها الكثيرة، وقام تريبار لذلك بالتعاون مع زملائه بتأسيس "شركة سيمكس" للاستيراد والتصدير والتي اتّخذت مقرًّا لها في شارع الشانزيليزيه بقلب باريس، كما قام بفتح عدّة فروع لها في مرسيليا وعدّة مدن أخرى.

قامت هذه الشركة بالتعامل مع السلطات الألمانيّة في فرنسا بتنفيذ بعض الأعمال الخاصّة بالقوّات الألمانيّة. كما تمكّن تريبار وبعض العملاء الآخرين من الحصول عن طريقها على تصريحات رسميّة لدخول المناطق الألمانيّة المحرّمة والتي تشمل تحصينات ومبان سريّة، الأمر الذي أتاح لفرع الشبكة في فرنسا الحصول على معلومات هامّة عن تحرّكات ومواقع القوّات الألمانيّة في الأراضي الفرنسيّة وخططها التكتيكيّة والاستراتيجيّة فضلاً عن بعض الإنجازات الأخرى.

كان من بين مجموعات العملاء السوفيات التي انتظمت تحت إشراف تريبار بعد تولّيه لمنصبه الجديد، مجموعة "هنري روبنسون" الذي كان مؤسّسًا لجمعيّات الشباب الشيوعي في فرنسا ورئيسًا للقسم السرّي في الكومنترن. وكذلك "فاسيلي وآنا ماكسيموفيتش" وهما شقيقان أرستقراطيّان من الروس البيض هاجرا إلى فرنسا مع والدهما حيث اعتنقا الشيوعيّة وعملا لصالح المخابرات السوفياتيّة. وقد قامت هذه المجموعة بوضع عملائها من السياسيّين وموظّفي الحكومة والعمّال الفرنسيّين والألمان في خدمة تريبار الذي تمكّن مع هذه المجموعة وباقي أعضاء الشبكة من إمداد موسكو بمعلومات هامّة عن ألمانيا وبريطانيا والولايات المتّحدة وفرنسا وذلك على النحو التالي:

- إشتغال فاسيلي ماكسيموفيتش كمترجم لأحد قادة الألمان المتواجدين في فرنسا وقيامه بنقل كلّ ما يراه أو يسمعه أو يصوّره إلى تريبار.

- عقد فاسيلي ماكسيموفيتش خطوبته على إحدى الألمانيّات العاملات بمقرّ القيادة العليا الألمانيّة في باريس وحصوله منها على جميع الوثائق السريّة الخاصّة بالقوّات الفرنسيّة والألمانيّة في فرنسا وسياسة الحكومة الفرنسيّة في الداخل والخارج واتّجاهات الرأي العام الفرنسيّ.

ـ كانت آنا ماكسيموفيتش تعمل كطبيبة للأمراض النفسيّة لإحدى العيادات في المنطقة التي تقع بين الأراضي الفرنسيّة المحتلّة وغير المحتلّة، وقد اتّخذت هذه العيادة مقرًا لاجتماع العملاء وتزويد من ليس لديه بطاقات تموينيّة بالمواد الغذائيّة. وقد تمكّنت الشبكة بهذه الوسيلة من الحصول على معلومات هامّة عن القوّات الألمانيّة في فرنسا وغيرها، وكان من بين مصادرها بعض الضبّاط الألمان الذين كانوا يترددون على هذه العيادة وإحدى الطبيبات التي تعمل فيها، وكان أخوها يشغل منصب مدير شؤون اليهود في فرنسا.

ـ تعيين إحدى الألمانيّات، وهي "كاث فولكيز"، التي كانت تعمل راقصة، وقامت بزيارة موسكو بعد إفلاسها حيث جنّدت في المخابرات السوفياتيّة وتمّ تدريبها وإرسالها إلى فرنسا، تعيينها في منصب سكرتيرة لأحد المسؤولين الألمان، وقد استطاعت عن هذا الطريق تزويد الشبكة بمعلومات هامّة عن القطاع الذي كانت تعمل فيه، وعن اتّصالات ومحادثات رؤسائها وزملائها.

ـ تغلغل الشبكة في بعض الأوساط الألمانيّة والفرنسيّة الهامّة وتمكينها من تعيين وتجنيد بعض الموظّفين والفنّيين في تلك الأوساط ومن بينهم:

١ ـ عميلان في السنترال الألماني بباريس، وقد أمدّا الشبكة بكثير من نصوص المحادثات التي أجريت بين برلين وباريس.

٢ ـ أحد المهندسين العسكريّين الألمان وكان معاديًا للنظام النازي وقد أمدّ تريبار بمعلومات هامّة عن الهجوم الألماني على الأراضي السوفياتيّة.

٣ ـ إثنان من المترجمين كانا يعملان في هيئة موظّفي القيادة الألمانيّة في باريس، وقد قاما بتحقيق مكاسب كبيرة للشبكة خاصّة في ما يتعلّق بالأنباء المتّصلة بتسليح القوّات الألمانيّة وتحرّكاتها ومواقعها.

أمّا في ما يتعلّق بالوسائل التي كان يتمّ عن طريقها نقل المعلومات إلى موسكو، فقد انحصرت في عدّة طرق رئيسيّة أهمّها:

- إستخدام أجهزة اللاسلكي الخاصّة بالشبكة في فرنسا أو بلجيكا كوسيلة أساسيّة.

- إرسال المعلومات عن طريق أجهزة الحزب الشيوعيّ الفرنسي أو السفارة السوفياتيّة في باريس، ولم يكن يتمّ ذلك إلاّ في حالات الضرورة القصوى، كما هو الحال في استخدام تريبار جهاز اللاسلكي الخاص بالملحق العسكري السوفياتي في باريس في إرسال المعلومات العاجلة المتعلّقة بتاريخ غزو القوّات الألمانيّة.

- حاملي الرسائل، وكان هناك أحد الأفراد المختصّين بنقل هذه المعلومات داخل وخارج فرنسا. إلاّ أنّ هذه الطريقة كانت تستخدم قليلاً نظرًا لعدم وجود تأمين كاف لها.

إلاّ أنّ الأهميّة الكبرى التي تعادل في قيمتها تلك التي تميّزت بها شبكة تريبار، فإنّها تتمثّل بما أحرزه أيضًا واحد من أهمّ الجواسيس الروس المقيمين في فرنسا، والمسجّل في ملفّات الجاسوسيّة الروسيّة تحت إسم "غامبان".

فلمّا سارت فرنسا في طريق الأبحاث الحديثة وأصبحت تساهم مساهمة مهمّة في حقل الطيران النفّاث والصواريخ الموجّهة والأبحاث الذريّة، قرّرت المخابرات العسكريّة في موسكو أن توسّع دائرة جاسوسيّتها في فرنسا، وكان غامبان الذي جاء إلى باريس عام ١٩٥٦ قادمًا من مراكش، من أبرز الذين خدموا السوفيات في هذا المجال.

لم يكن غامبان من مواليد فرنسا، بل كان روسيًّا، ولد عام ١٩٢٣ في "تيبليسي" عاصمة جمهوريّة جورجيا السوفياتيّة، من أب أوكراني وأم من جورجيا. وكان اسمه

الحقيقيّ "فلاديمير أغناتوغتش بودارنكو". ويعود مظهره الفرنسي إلى كون والدته من جورجيا. وهذا أحد الأسباب التي دعت قسم التجنيد في القيادة العامّة للمخابرات في موسكو إلى اختياره للعمل في فرنسا.

دخل بودارنكو معهد "ستيبنايا" للجاسوسيّة الخاصّ بالدول اللاتينيّة عام ١٩٤٦. ومنذ ذلك الحين أصبح يعرف باسم "غلمبان"، وكان رقم تسجيله "ف ـــ ٤٦١٧٠٧/٠٠٠٤٢" وعندما أصبح مهيّئًا للعمل في فرنسا عام ١٩٥٦، أرسل إلى مارسيليا على ظهر باخرة شحن سوفياتيّة ونزل في فندق صغير هناك. بعد أسبوع، ذهب غامبان إلى تولوز، حيث ادّعى أنّه ولد فيها عام ١٩٢٢.

كانت أوراق الهويّة التي حملها غامبان تعود لعامل سلافي وجد قتيلاً في معمل قصفته القنابل قرب بريسلو خلال الزحف الروسي إلى ألمانيا. وقد أخذ المرشد السياسي هذه الأدوات وأرسلها إلى موسكو جيث أجرت القيادة العامّة للمخابرات سلسلة من التحريّات لمعرفة ما إذا كانت أوراق هويّة الرجل الميت صالحة للاستعمال في المستقبل، وقد توصّلت إلى نتائج إيجابيّة بهذا الصدد.

كانت الأوامر مع غامبان تقول إنّ عليه أن يذهب إلى مراكش الفرنسيّة، ويعود إلى فرنسا في ما بعد. وكان كلّ شيء معدًّا لهذه الرحلة حيث زوّدته المخابرات الروسيّة برسائل حقيقيّة من الرجل الذي سيعمل غامبان عنده في مراكش.

لم تطل إقامة غامبان في مراكش، فعاد إلى فرنسا بعد عشرين يومًا. وفي أيلول ـ سبتمبر ١٩٥٦، بدأ في تنظيم حلقة للجاسوسيّة في باريس. بحث عن محترف ملائم لأنّه قرّر أن يعمل متخفّيًا تحت ستار فنّان ومصوّر. وقرّر كذلك أن يستأجر شقّة في منطقة راقية من باريس وينشئ فيها وكرًا للدعارة السريّة. وقد جهّز غامبان الشقّة بأجهزة للصوت متّصلة بمسجّلات مخفيّة، ودرّب المومسات على كيفيّة تشغيل الآلات

السريّة اللاقطة للصوت، ووعدهنّ بأجور مرتفعة للتسجيلات مهما كانت قيمتها. وقال لهنّ إنّ هذه التسجيلات سوف تباع إلى مؤسّسات صناعيّة كبيرة يهمّها معرفة الأسرار الصناعيّة عن المؤسّسات المنافسة لها. وقد نظّم غامبان جهازًا من القوّادين مهمّتهم استجلاب التقنيّين والصناعيّين والمهندسين إلى وكر الدعارة.

في تشرين الثاني ـ نوفمبر ١٩٥٦، أرسل غامبان تقريرًا إلى موسكو يقول فيه إنّه قد وجد محترفًا ملائمًا ليجعله مقرًّا عامًّا لعمليّاته، وبعد مدّة وجيزة كتب إلى رؤسائه يقول: "... ليس من الضروريّ في معظم الحالات أن أستعمل الوسائل العنيفة لاستجلاب المساعدين هنا. إنّ عددًا كبيرًا من المهندسين والكتبة السريّين في مؤسّسات الأبحاث، والعلماء والتقنيّين والمدراء والضبّاط وجنود الجيش والبحريّة والطيران في فرنسا يكنّون عطفًا كبيرًا في قلوبهم للاتحاد السوفياتيّ. وقد وافق العديد منهم على العمل لصالحنا. إنّه من الأسهل التعاون مع الرجال أكثر ممّا هو مع النساء...".

وتشير السجلّات الاستعلاميّة في موسكو إلى أنّ غامبان هو "أذكى العملاء وأكثرهم نشاطًا، وأنّه زوّد المخابرات الروسيّة بالمعلومات أكثر من أيّ جاسوس آخر في فرنسا في تلك الحقبة".

في الوقت الذي أُرسل فيه غامبان إلى فرنسا، كانت التعليمات التي يحملها تطلب منه التركيز على التجسّس الصناعيّ، لكنّه نشط في الحقل العسكريّ عندما عثر على مخبرين في القوّات المسلّحة الفرنسيّة... والمؤسّسات الأخرى التابعة لها، والمتخصّصة باختراع وإنتاج الأسلحة العسكريّة السريّة.

كان أسلوب غامبان لضرب المواعيد مع عملائه بسيطًا للغاية. فقد كان يضع إعلانًا في الزاوية الشخصيّة في جريدة باريسيّة، حيث يقول الإعلان مثلاً: "رسّام شابّ بحاجة إلى موديل"، ويلي ذلك عنوان محترف غامبان. عند قراءة هذا النصّ، يعرف

عميل معيّن أنّ عليه مقابلة الجاسوس الماهر في الساعة الواحدة من اليوم التالي في كاتدرائيّة نوتردام. وإذا كان الإعلان يقول: "مصوّر شابّ بحاجة إلى موديل"، فهذا يعني أنّ الموعد هو في الساعة الثالثة والربع بعد الظهر في نوتردام، لأنّ كلمة "مصوّر" كانت الكلمة المتّفق عليها لتحديد الوقت. أمّا إذا ظهر إعلان غامبان في زاوية "الأغراض المعروضة للبيع"، فيكون عميل آخر هو المعني بالأمر فيعلم بذلك المكان والزمان الذي عليه أن يقابل رئيسه فيه.

كلّ عميل في أيّ زاوية وفي أيّ جريدة عليه أن يفتّش ليعرف ما إذا كان مطلوبًا أم لا. وكان غامبان يؤكّد في تقاريره العديدة إلى القيادة العامّة في موسكو على "أنّ أسلوب الاتّصال بواسطة الإعلان في الجرائد يثبت باستمرار أنّه أفضل أساليب الاتّصال".

ولكن رغم حذر غامبان، فقد اضطرّ إلى أن يوقف نشاطه كجاسوس روسيّ في فرنسا عندما تورّط صدفة في حادث سرقة كان بريئًا منه. ولم تكن موسكو مستعدّة لأن تجازف به، فأرسلت تستدعيه إلى وطنه.

من المؤكّد أن غامبان لم يكن وحيدًا هناك، ولم يكن أوّل الجواسيس السوفيات ولا آخرهم، بل إنّ الساحة الفرنسيّة كانت خصبة جدًّا لأن تعجّ بأمثال هذا الجاسوس الماهر الفذّ الذي أثبت جدارته وكفاءته المخابراتيّة على أكثر من صعيد، متجاوزًا تعليمات قادته في موسكو إلى ما هو أهمّ وأكثر فائدة[1].

---

١ - زهر الدين د صالح، ملف الاستخبارات السوفياتيّة، ص٦٣ - ٧١.

تغلغل المخابرات السوفياتية في ألمانيا الغربيّة

إحترف الاتحاد السوفياتي أسلوب التغلغل في الدول الغربية، أو ما يسمى بدول العالم الحر. فعندما كان بعض الدول يدخل عالم العصرنة عن طريق تدريب مهندسين وإقامة مراكز أبحاث لتطوير التكنولوجيا، كان البعض الآخر يجد أن الطريق الأسهل للحصول على تقنيات العصرنة والتطور هو تدريب الجواسيس. وقد تبين أكثر من مرة أن الاتحاد السوفياتي يركز كثيرًا على الأسلوب الثاني، بحيث قدّم من ألمانيا الغربية في أواخر شهر أيلول ـ سبتمبر ١٩٨٤، مثالاً جديدًا على براعة السوفيات في التجسس الصناعي، ما أثار فضيحة أقامت ألمانيا ولم تقعدها، عبر أحد عملائهم والمدعو "مانفر رونتش".

و"مانفرد رونتش" هو مواطن ألماني شرقي عادي لجأ في عام ١٩٥٤ كغيره من مواطنيه إلى ألمانيا الغربية يوم كان التهافت كبيرًا قبل بناء جدار برلين في ١٩٦١. وهناك وجد "رونتش" عملاً في شركة "جنكرز" للهندسة استمر عشر سنوات. وفي سنة ١٩٦٤ انتقل "رونتش" إلى شركة "مسز شميت" أكبر شركات صناعة الطيران في ألمانيا الغربية. ورويدًا رويدًا بدأ رصيد المهندس النشيط يرتفع حتى وصل به إلى مركز مدير التخطيط والإنماء.

هناك، استمر "رونتش" يعمل بإخلاص ويحوز على ثقة المسؤولين وهو فوق كل الشبهات. ودون أن يعلم أحد أن الرجل يمارس عملاً إضافيًا لصالح المخابرات

السوفياتية التي اتصلت به منذ العام ١٩٦٧. ومن ١٩٦٧ إلى ١٩٨٤ استمرّ روتش في خدمة الـKGB، ولم يشك مكتب مكافحة التجسس في بون في رحلات روتش إلى النمسا ونزهاته الكثيرة وحيدًا في الحدائق العامة إلا في أواخر أيلول ـ سبتمبر ١٩٨٤.

وكانت الفضيحة... وخلال ١٧ سنة كان روتش ينقل بإخلاص كل المعلومات التقنية والخرائط العسكرية الهامة والصور العلمية إلى موسكو في شكل ليس له مثيل في ألمانيا الغربية.

ماذا نقل روتش بالفعل إلى السوفيات؟

على الرغم من الكتمان الشديد الذي تلتزمه السلطات الألمانية حول نشاطات الجاسوس السوفياتي، من المؤكد أن روتش قد حقق إنجازات ضخمة للـ KGB يمكن أن تدخله تاريخ التجسس الصناعي بين الشرق والغرب.

ولمعرفة حجم المعلومات والملفات التي انتقلت إلى الاتحاد السوفياتي، يكفي إلقاء نظرة سريعة على نشاطات شركة "مسز شميت".

تعتبر هذه الشركة أكبر مؤسسة لصناعة الطيران في ألمانيا، ويعمل فيها نحو ٣٧ ألف شخص، وقد بلغ حجم عملياتها في العام ١٩٨٣ حوالي ٥،٩ مليار مارك. والخطير هو أن أكبر اهتمامات مسز شميث هي في حقل الطيران الحربي، إذ إنها تساهم في معظم الأسلحة المشتركة الصنع مع الدول الأوروبية الأخرى. وقد انتقلت أيضًا إلى صناعة الطيران المدني.

لذللك، تبدو أضرار فضيحة روتش للوهلة الأولى موزعة على المستوى الأوروبي. ولذلك أيضًا، تبدو اللائحة طويلة جدًا، وإذا كان روتش قد حصل على

معلومات حول كل ما تتعامل به مسز شميت فيمكن القول إنه لم يعد هناك سر عسكري وتقني متطور في أوروبا إلا ووصل إلى موسكو.

من الأكيد أن خرائط طائرة "تورنادو" الحربية ذات الصنع الألماني ـ البريطاني، والتي تفتخر بها أسلحة الجو في هذه الدول، قد وصلت إلى موسكو، وبعدها يُعتقد أن الجاسوس السوفياتي قد توصل إلى تصوير خرائط وملفات تتعلق بطائرة "إيرباس" الأوروبية، وصواريخ "هوت" و"ميلان" المضادة للدبابات، وصاروخ "رولان" المضاد للطائرات الذي تمكنت أوروبا من بيعه إلى الولايات المتحدة. ويُخشى أيضًا أن يكون روتش قد حصل على خرائط مشروع الطوافة الفرنسية الألمانية المضادة للدبابات "ب ٢٥" التي كان من المتوقع أن ينتهي صنعها في بداية التسعينات، وتعتبر مثال فخر الصناعة الحربية الأوروبية. ولا يستبعد بعض المحللين أن تكون موسكو قد حصلت أيضًا على خرائط لصاروخ "أريان" الذي بدأ ينافس كولومبيا في تجارة إطلاق الأقمار الصناعية.

من هنا تبدو قضية روتش خطيرة جدًا. وهي قد فتحت سجل التجسس الصناعي السوفياتي وتغلغل جواسيس موسكو في ألمانيا الغربية. فألمانيا أرض خصبة للتجسس السوفياتي بفعل تاريخها، فهي قد ورثت أكبر شبكة جواسيس سوفيات في العالم على أرضها. ويقال بأن موسكو ومخابراتها الشرقية قد تمكنت من إدخال أكثر من ١١ ألف جاسوس إليها قبل بناء الجدار، واستمرّت تدخل أعدادًا منهم بواسطة اللاجئين من ألمانيا الشرقية قبل توحّد الألمانيّتين. وقد تمكن هؤلاء من تبوؤ مراكز حساسة جدًا في الدولة.

والجدير بالذكر أن قصة الجاسوس روتش تأتي قبل أن ينسى الألمان قصة "غونتر غليوم" ضابط المخابرات الألمانية الشرقية الذي تمكن من أن يصبح سكرتيرًا خاصًا

"لويلي براندت" قبل أن يتم اكتشافه في العام ١٩٧٤ ويتسبب بهزة سياسية أدت إلى الإطاحة بالمستشار الألماني الذي اعتذر إليه ليونيد بريجنيف نفسه أثناء زيارة براندت إلى موسكو بحجة أن "غونتر غليوم" كان يتجسس لصالح ألمانيا الشرقية وليس لصالح الكرملين...

إلى جانب ذلك، كانت سياسة خروتشيف ترمي إلى الإبقاء على ألمانيا في حرب الأعصاب ليستطيع أن يفرض عليها "حله للمشكلة الألمانية" عاجلاً أم آجلاً، لذلك رأى أن تحتفظ المخابرات الروسية بجهاز واسع من الجواسيس المقيمين والعملاء في الرايخ السابق. فالكرملين بحاجة إلى أن يعلم كل ما يجري في ألمانيا الغربية في الحقلين العسكري والحياة اليومية الروتينية.

كان الجواسيس الروس، المدربون تدريبًا كاملاً في مدرسة "براخوفكا" والحائزون على أوراق هوية ألمانية، يعملون ليس فقط في برلين الغربية بل في القطاعات الأميركية والبريطانية والفرنسية من ألمانيا الغربية أيضًا. والسلطات الألمانية التي تعلم بهذا الأمر، تملك قوة كبيرة من الرجال المدربين على تعقب الجواسيس.

وبالرغم من أن أعدادًا كبيرة من الجواسيس الشيوعيين كانوا يعتقلون ويقدمون إلى المحاكمة، فإن الجهاز الألماني المضاد للجاسوسية نادرًا ما كان يستطيع أن يقبض على الجواسيس الروس. هذا وكانت تعتبر موسكو أن الجاسوسة الماهرة "ماريان" هي أهم من عمل لروسيا في ألمانيا.

وصلت "ماريان" إلى "فرانكفورت ـ آم ـ ماين" في شهر أيّار ـ مايو عام ١٩٥٨، واسمها الحقيقي "ناديزدا ميخيلوفنا ماكاريفا". ولدت عام ١٩٢٥ في خاركوفا وهي ابنة زعيم نقابي روسي.

عندما بلغت نادربيزدا عامها الثاني والعشرين، وكانت تدرس آنذاك الاقتصاد في جامعة موسكو، صنّفت على أنها "صالحة للتدريب الخاص". فمرّت، كغيرها من الجواسيس، بمراحل التدريب وانتهى بها المطاف إلى "معهد براخوفكا" حيث ألحقت بقسم ألمانيا ومنحت اسم "ماريان"، وكان رقم تسجيلها ج - ٠١٨/٤٧٣٩٠٣ - ب.

نجحت ماريان نجاحًا باهرًا في امتحاناتها بعد عشر سنوات من التدريب في براخوفكا، فأرسلت إلى برلين الشرقية وتسللت من هناك في نيسان - إبريل ١٩٥٨ إلى القطاع الغربي من العاصمة الألمانية السابقة. كانت أوراق الهوية التي بحوزتها تشير إلى أنها قادمة من القطاع الأميركي من ألمانيا الغربية وذاهبة إلى برلين الغربية، وكانت تدّعي أنها قادمة إلى هناك في زيارة.

إختارت موسكو برلين الغربية كبداية لرحلة ماريان لأنها كانت تريد منها إنشاء شبكة جاسوسية في القطاع الأميركي من المدينة بعد أن تُركّز شبكتها في فرانكفورت. أمرتها موسكو بأن تسكن لمدة بضعة أسابيع في برلين الغربية لمساعدتها على أن تعتاد على ظروف الحياة هناك. وقد مُنعت ماريان كغيرها من الجواسيس الجدد، من أن تتعاطى أي نشاط جاسوسي خلال مرحلة التأقلم.

لكن ماريان نشطت خلال إقامتها في برلين الغربية، فدرست قطاعات الحلفاء في المدينة. وكتبت تقول في تقاريرها أنها "شعرت وكأنها في وطنها من لحظة وصولها". ووضعت الجاسوسة الماهرة المتدربة في براخوفكا الخطط لاستعمال المطاعم والأمكنة الأخرى لمقابلة الذين سيصبحون في ما بعد مساعدين لها.

كانت شقراء ومثيرة للغاية، وسرعان ما وجدت أن معظم الرجال يلاحقونها ويدعونها للخروج معهم. فقررت منذ أيام إقامتها الأولى في برلين الغربية أن تستغل مجالها للتعرف على الرجال المهمّين.

وصلت "ماريـان" إلـى فرانكفورت وأقامت فـي شقة حديثـة فـي بنايـة بنيت بعد الحرب. ثم فتحت مكتبًا لأعمال السكرتاريا معتبرة هذه الوظيفة تغطيـة رائعـة تستطيع بواسطتها استلام البريد والاجتمـاع بالمسـاعدين. وقـد تعـاطت التصويـر حتـى لا تثير الشبهات حول آلات التصوير الموجودة عندها.

بعد أن أوجدت ماريان تغطية كاملة لها، شرعت بالعمل. كانت قد درست بتمعن حياة الرجال الألمان على اللائحة التي زودتها بها موسكو والتـي تحـوي أسـماء رجـال صالحين للعمل. فاختارت منهم الرجال الذين كانوا على علاقة سـابقة بالحركـة النازيـة وينكرون ذلك، ففي هؤلاء تتوفر جميع مؤهلات المخبرين أو ضباط الارتباط.

أثبتت مرحلة التأقلم التي أقامت بها "ماريان" صحة ما تعلمته فـي براخوفكـا، وهـو أن المال يشتري كل شيء في ألمانيـا بعـد الحـرب. فقـررت اسـتعمال أسلوبَي التهديـد وتقديم المبالغ الطائلة من المال، فحصلت على نتائج من الدرجة الأولى.

لقد نجحت خطط ماريان، فبعد بضعة أسابيع من مجيئها استطاعت أن تجد المخـبر الأول. كان هذا الرجل موظفًا في مؤسسة أبحاث لإنتاج الأسلحة السرية وكانت ماريان تحمل رقمه الهاتفي، فاتصلت به في مكتبه وقالت إنه من مصلحته أن يأتي لمقابلتها في مكتبها. وكانت مقنِعة للغاية فجعلت الرجـل المتخـوف مـن مقابلـة غريبـة يرضـى فـي النهاية أن يقابلها.

جاء الرجل في الموعد المحدد وصعق عندما طلبت منه ماريان، دون مقدمات، أن يزودها بالوثائق والمعلومات وبجميع ما تحتويه القائمة السرية في المؤسسة التي يعمـل فيها، وأضافت أنها مستعدة لدفع مبلغ محترم من المال لقاء ذلك. ولكن عندمـا قـال لهـا الرجل غاضبًا بأنه كوطني ألماني يرفض أن يزودها بشيء وهددها بتسليمها للشـرطة، دعتـه ماريـان إلـى رفـع سماعة الهـاتف والاتصـال بالشـرطة، وأضـافت أنهـا سـتقدم

الاثباتات الدامغة للشرطة الألمانيــة والسلطات الأميركيـة علـى أنـه يعيش ويعمـل فـي فرانكفورت مستعملاً أوراق هوية ميت وأنه مطلوب بتهمة جرائم حرب.

حاول الرجل في بادئ الأمر أن ينفي التهم وهددها بـأن يقيم دعوى بحقها بتهمة القدح والذم، لكنه رضخ أخيرًا عندما ذكرت له تفاصيل عن حياته الخاصة وادعـت أن المستمسكات كلها بين أيدي أصدقائها الذيـن يستطيعون التعرف عليه بسهولة لأنهم عملوا معه في شرطة هتلر السرية.

أرسلت ماريان تقريرًا مفصـلاً بالشيفرة إلـى رؤسائها فـي موسكو عن المساعد الجديد، كان يحوي خبرًا يقول إن المخبر الجديد تعهد بأن يأتيها في اليوم الثاني بوثيقـة هامة ليجري تصويرها. وبالفعل فإن صورة الوثيقة السرية حـول الصواريخ الموجهـة أرسلت بعد يومين في الطريق غير المباشرة إلى موسكو. كانت مخبأة في فرشاة حملها رسول لا شكوك حوله إلى برلين الغربية حيث أرسلت من هناك إلى ألمانيا الشرقية.

إعتمدت ماريان على المخبر الجديد منذ أيام عمله الأولى واعتبرتـه أحسن مخبر عندها. وخلال الأشهر الست الأولى من إقامة ماريان فـي فرانكفـورت، اسـتطاعت أن تنشئ شبكة واسعة من المخبرين وضباط الارتباط والعملاء المكلفين بالمهام الخاصة.

فقد كـان جهـاز الإرسـال اللاسلكي المتنقل الـذي تملكـه يعمـل باستمرار وكذلـك المكتب، حيث كان يجري تصوير الوثائق والمستندات. كمـا كـان المكتـب يستلم أيضًا التعليمات المكتوبة بالشيفرة، وأصبح مكتب أعمال السكرتاريا عـاملاً مساعدًا لماريـان حيث كـان عملاؤهـا يصورون المستندات الهامـة وكـأنهم يـؤدون واجبـات السكرتير النشيط.

رغم أن ماريان ركزت عملها على تحصيل المعلومات عن الدولة الألمانية الغربية والصناعات فيها، إلا أن شبكتها امتدت إلى الأوساط الأميركية فـي ألمانيـا. وقد أكدت

القيادة العامة للمخابرات الروسية على أن "المعلومات المستقاة من المراجع الأميركية في ألمانيا الغربية ذات أهمية قصوى لأنها مكملة للأخبار المستقاة من المراجع الألمانية الغربية ذاتها"...

أصبحت ماريان على استعداد لتوسيع نشاطها بحيث يشمل برلين الغربية. فأقامت وفتحت مكتبًا لأعمال السكرتاريا في شقة محترمة. كان العمل في برلين الغربية أسهل منه في فرانكفورت. فهناك تستطيع ماريان الاعتماد على العديد من العملاء المدربين الذين يأتون يوميًا من القطاع الشيوعي في برلين الشرقية للعمل في المنطقة الغربية. ويستطيع هؤلاء العملاء المكلفون بالمهام الخاصة أن يجازفوا، لأنه من السهل عليهم أن يعودوا في الحالات الطارئة إلى المنطقة الأمنية.

إستمر عمل ماريان في ألمانيا الغربية حتى أول أسبوع من شهر آذار ـ مارس عام ١٩٦١. بعد ذلك الحين لم تذكر التقارير في موسكو شيئًا عنها.

والواقع أن هذين الجاسوسين السوفياتيين في ألمانيا الغربية لم يكونا إلا حلقة أساسية من سلسلة تمثل جيشًا روسيًا أحمر في عاصمة الحربين العالميتين.

وقد برهن السوفيات عن عمق واسع في الرؤيا، وعن نظرة ثاقبة لمخاطر إشعال حرب عالمية ثالثة، تشعل شرارتها أيضًا ألمانيا.

وكان لا بد من فرز هذا الجيش القائم بذاته لتلافي الكوارث المزمع وقوعها على يد تلك الدولة التي احترفت عملية إشعال الحروب العالمية، وتحميل البشرية بأجمعها كثيرًا من الويلات والمآسي والآلام. وما زالت آثار الحربين العالميتين، الأولى والثانية، ترتسم في مخيلة الملايين من البشر الذين عانوا الأمرين منها. وفي الوقت

الذي كانت فيه الجاسوسية بمثابة حرب أدمغة لا حرب سلاح ونار، فلسان حال السوفيات أنّ جاسوسية الاتحاد السوفياتي في ألمانيا الغربية هي حرب على الحرب بحد ذاتها، من أجل إنقاذ البشرية من خطر محتمل تسعى إليه دول العالم الحر عبر ألمانيا نفسها[1].

---

١ ـ زهر الدين، ملف الاستخبارات السوفياتيّة، ص٧٣ ـ ٨٠.

وقائع من الجاسوسيّة السوفياتيّة

ريتشارد سورج: أعظم الجواسيس

يميل معظم عملاء مكافحة التجسس إلى القول إن الأشياء البسيطة، أو ذلك الضعف الناشئ عن الإهمال عند الجنس البشري، هو ذلك الذي يجعل حتى أشد الجواسيس حذرًا يرتكبون أخطاءً فادحة. وهذا ما حدث مع ريتشارد سورج، أحد أعظم الجواسيس في التاريخ، وذلك حينما ارتكب غلطة إنسانية بسيطة، دفع حياته ثمنًا لها.

في إحدى الليالي من تشرين الأول ـ أكتوبر ١٩٤١، كانت كل غريزة وموهبة طبيعية في مهنة تجسس استمرت عشرين عامًا تلح على سورج بأن الوقت حان للهروب من طوكيو. وفي غضون فترة تزيد قليلاً عن أربع سنوات، استطاع سورج تنظيم شبكة تجسس سوفياتية تمكنت من معرفة كل سر عند الحكومة اليابانية، وبعدها وافق رؤساؤه في وكالة الاستخبارات السوفييتية GRU على أن الفائدة من الشبكة لم تعد قائمة. وفي الوقت الذي اقتنع فيه سورج بهذه النتائج كان البوليس السري الياباني يراقبه عن كثب، وكان قد ألقى القبض على اثنين من أعضاء شبكته قبل ساعات، وربما شرع في تعذيبهما، ولم تمض ساعات قبل إلقاء القبض على سورج وكشف حقيقته كرئيس للشبكة. ومع ذلك، فإن سورج تردد، والسبب في ذلك هو راقصة يابانية

جميلة، كان سورج ارتبط بها بعلاقة غرامية منذ أكثر من عام. وفي هذه الأثناء، تـرك سورج الغارق في الحـب، قلبـه يحكـم عقلـه: رغـم الأخطـار المـتزايدة، لـم يسـتطع أن يتحمل عناء الهروب دون آخر موعد لقاء لكلمة وداع. وأمضى سـورج بعض الوقت معها في الملهى الليلي، ثم ذهب الاثنان سويًا إلى الشقة، حيث ظن أنه سوف ينام آخـر ليلة في اليابان، ثم يبدأ في الهروب في الصباح الباكر من هذا البلد إلى الصين، ثم إلـى الاتحاد الوسوفياتي. وكان سورج يبدو كئيبًا، ومع أنه لم يحدثها عن الأسباب، لكنها شعرت أنه يتعرض لضغوط شـديدة، وهـي ضغـوط جعلتـه ينتهك أبسط قواعد مهنـة التجسس، وكانت غلطة دفع حياته ثمنًا لها.

كان سورج يحمل ورقة أرسلها إليه قبل مدّة قصيرة أحد أعضـاء شـبكته، وحذره فيهـا مـن أن اليابـانيين يشددون الخنـاق، وأنـه يجـب أن يهـرب بـأقصى سـرعة. وفـي الطريق إلى شقة الحبيبة اليابانية، مزق سورج، الحبيب المشغول، هذه الورقـة، وبـدلاً من أن يحرقها، رمى القطع الممزقة على الطريق. ومن مكـان غير بعيد مـن ورائـه، التقط عملاء الاستخبارات اليابانية القطع الممزقة، وجمعوا أجزاءها، وهنا فقـط أصبح سورج متهمًا. وبعد ساعات، ألقى اليابانيون القبض عليه بينما كان في أحضان حبيبته.

وهكذا، ألقى اليابانيون القبض على رئيس الشبكة في آخر الأمر، ولكنهم لم يكونوا يملكون أيّ فكرة عن طبيعة نشاطها. وكل ما كان يعرفه اليابانيون هو أن هنـاك شـبكة تجسس رئيسية تعمل داخل اليابان منذ مدّة طويلة. وكانت أعمـالهم الـهادئـة فـي متابعـة نشاط هذه الشبكة التي استمرت عامين قادتهم إلى طريق سورج. ولكن لصالح من كان يعمل سورج؟

بالنظر إلى أن سورج، من الناحية الرسمية، كان مواطنًا ألمانيًا يعمـل فـي اليابـان كمراسل لعدة صحف ألمانية بارزة، فإن اليابانيين ظنوا في بادئ الأمـر أنـه إمـا يعمـل

لحساب جهاز الاستخبارات الألماني أو لحساب وكالة الاستخبارات النازية. ولكن الألمان كانوا متشددين في نفيهم لذلك: على الرغم من علاقة سورج الوثيقة مع السفير الألماني، فلم يكن سورج عميلاً ألمانيًا.

مضى حوالي العام قبل أن يتمكن اليابانيون أخيرًا من تكوين صورة تامة عن سورج وشبكته، ولكن النتيجة أصابتهم بالذهول: هناك سبب لذلك، وهو أن سورج كان عميلاً سوفياتيًا. والسبب الثاني، وهو السبب الأهم، هو أن عملياته الاستخباراتية لم تتصل بالدرجة الأولى باليابان، وإنما اتصلت ببلده ألمانيا، وكانت ألمانيا هي التي عانت كثيرًا من الأضرار البالغة.

كان كلما بحث اليابانيون بعمق أكثر، أصبحوا أكثر تأثرًا بحقيقة سورج وعملياته الاستخباراتية، ذلك أنهم واجهوا واحدة من أشد العمليات إثارة للانتباه في تاريخ التجسس. وكانت عمليات قادها واحد من أشد الرجال إثارة للانتباه.

يكمن مفتاح فهم شخصية سورج في قناعاته الشيوعية الراسخة التي يمكن اعتبارها قناعات وراثية إلى حد ما، ذلك أن جده اشتغل سكرتيرًا خاصًا للمفكر الألماني كارل ماركس، وحينما كان سورج صغيرًا، كان كتاب "رأس المال" واحدًا من الكتب التي قرأها بعد أن أهداه إليه جده.

ولد سورج سنة ١٨٩٥ في القوقاز الروسية، وكان أبوه مهندسًا ألمانيًا يعمل في التنقيب عن النفط. وانضم سورج الشاب إلى الجيش الألماني عند اندلاع الحرب العالمية الأولى، وأصيب بجروح مرتين، وأمضى الجزء الأكبر من عزلته في قراءة النظرية الشيوعية. ومع حلول عام ١٩٢٠، أصبح سورج عضوًا في الحزب الشيوعي الألماني، وحصل على دكتوراة الفلسفة في العلوم السياسية في جامعة هامبورغ.

وكانت صفة سورج النادرة في الحماسة الثورية والذكاء الحاد والرغبة الشديدة في خدمة قضية الشيوعية أثارت انتباه المسؤولين في الكومنترن، الذين قرروا إرساله إلى موسكو لتلقي تدريبات في مدارس الحزب العليا التابعة للكومنترن.

في ١٩٢٧، جرى إرسال سورج إلى هوليوود في الولايات المتحدة الأميركيّة للمساعدة في تكوين خلايا حزبية داخل صناعة الأفلام السينمائية، وهي مهمة استهدفت اختبار قدراته كمنظم حزبي.

عاد سورج إلى موسكو بعد عام للحصول على مزيد من التدريبات، وفي غضون ذلك برهن عن قدرات لغوية مذهلة. (بالإضافة إلى لغته الألمانية الأصلية، أصبح بارعًا في اللغات الإنجليزية والفرنسية والروسية، ثم أضاف إلى معرفته أخيرًا اللغتين الصينية واليابانية).

مع حلول عام ١٩٢٩، تصور الكومنترن مستقبل سورج كمنظم حزبي رفيع المستوى في أوروبا الغربية.

لكن رئيس وكالة الاستخبارات السوفياتية GRU، جان بيرزين، المعروف بقدرته على اكتشاف أصحاب المواهب، لاحظ أيضًا ذلك الشيوعي الألماني اللامع، وجرى تجنيد سورج لمستقبل مختلف تمامًا. وكما فعل مع أحد المجندين اللامعين الآخرين، ليبادومب، فإن بيرزين كان يخطط لشيء خاص آخر لهذا المجند الجديد. وبعد عام من التدريب، عهد بيرزين إليه القيام بمهمة موظف مقيم في شانغهاي، علاوة على تعليمات بإحياء شبكات وكالة الاستخبارات السوفياتية GRU في الصين. وخلال فترة زمنية قصيرة، تمكن سورج، الذي كان يعمل تحت غطاء كونه صحافيًّا ألمانيًّا تارة، وصحافيًّا أميركيًّا يدعى وليام جونسون تارة أخرى، من تكوين سلسلة من شبكات امتدت إلى كل أنحاء البلاد، وجعلت موسكو عليمة بشيئين: التحول اليميني التدريجي

عند شيانغ كاي شك، وتعاظم قوة الزعيم الشيوعي ماوتسي تونغ في شمال الصين. ولكن أهم اكتشافاته الاستخباراتية تعلقت بتطور اهتمام موسكو في شيء واحد: ألمانيا كانت تنوي التخلي عن علاقتها التقليدية الوثيقة مع الصين، والتحالف، بدلاً من ذلك، مع اليابان. وفي نظر موسكو، فإن هذا التحول كان يعد بمثابة كابوس ينذر بوجود دولتين عظميين معاديتين للاتحاد السوفياتي في الشرق والغرب.

يبدو أن هذه المعلومات الاستخباراتية الحاسمة لم تأت ضمن ملاحظات رئيسَي محطة طوكيو التابعَين لوكالة الاستخبارات السوفياتية GRU وجهاز الاستخبارات السوفياتي KGB. وحين استدعائهما إلى موسكو لشرح أسباب هذا الفشل الفادح، اعترف الاثنان بأخطائهما وجرى إعدامهما في الحال.

هذا بدوره أدى إلى وجود فراغ في المعلومات الاستخباراتية في موسكو، ووضع بيرزين خطة جريئة لملء هذا الفراغ. وفي نظر بيرزين، فإن اليابان كانت في الواقع هدفًا ثانويًا، ولكن في ظل تلك العلاقة الجديدة بين ألمانيا واليابان، أصبحت طوكيو بمثابة موقع جيد للتنصت على الخطط الألمانية، والسبب في ذلك هو أن الألمان أصبحوا في حاجة إلى التشاور والتنسيق مع حلفائهم الأسيويين. وهكذا تقرر القيام بعمليات استخباراتية في طوكيو بحيث تكون موجهة ضد الهيكل الدبلوماسي الألماني برمته، وهو منهج في العمل قام على تجنب القيام بعمليات في ألمانيا ذاتها، حيث جعل البوليس النازي عمليات التجسس أمرًا صعبًا.

قامت فكرة بيرزين على إرسال سورج في مهمة إلى طوكيو، مع تفويضه بصلاحيات تامة لتجنيد كل من أراد العمل بمعزل عن أية تعليمات من مركز موسكو. وكان ذلك بمثابة إجراء لم يسبق له مثيل في عالم الاستخبارات

السوفياتية الخاضع للرقابة الشديدة، ولكن أداء سورج في الصين كان رائعًا جدًا، حتى بات من المتفق عليه جيدًا أنه يمكن أن يعمل بطريقة أفضل حينما يحصل على حرية تامة في العمل.

وضع سورج خططه باهتمام بالغ. ومن شبكته في الصين، اختار اثنين من عملاء وكالة الاستخبارات السوفياتية GRU القدامى للعمل معه في اليابان: "ماكس كلوسين"، وهو شيوعي ألماني قديم ومشغل راديو لامع، و"برانكو دوفوكليتش"، وهو ضابط سابق في الجيش اليوغوسلافي وخبير في الاستخبارات العسكرية. واختار سورج أيضًا اثنين من الجواسيس النافعين التابعين لوكالة الاستخبارات السوفياتية GRU وهما شيوعيان يابانيان قام سورج بتجنيدهما من قبل في سنة ١٩٣٣: "أوساكي هو سومي"، وهو مراسل سياسي لجريدة يابانية بارزة ولديه اتصالات كثيفة في كل أنحاء الحكومة اليابانية والمؤسسة السياسية، و"مياغي يوطوكيو"، وهو شخصية بارزة من عائلة يابانية محترمة ولديه اتصالات كثيفة مع مجموعة السياسيين الليبراليين المعارضين لسياسات الحكومة اليمينية.

وكانت خطة سورج التالية هي أن يجعل من نفسه أسطورة جديدة. وهكذا، عاد سورج إلى ألمانيا وأصبح نازيًا متحمسًا.

بالنظر إلى تميزه بنعمة الجاذبية الشخصية العظيمة، تمكن سورج من عقد صداقة وثيقة مع بعض الشخصيات البارزة في وزارة غوبلز للدعاية، وهي صداقة هامة استخدمها في الحصول على وظيفة كمراسل في اليابان لصحف ألمانية بارزة عديدة. ويبقى سرًّا حتى اليوم كيف تمكن سورج من الإفلات من مراقبة الغستابو، الذي كان يقوم بفرض رقابة شديدة على كافة أشكال الارتداد السياسي. وحين الأخذ في الاعتبار ظهوره السابق كناشط شيوعي، فلا يبدو أن هناك تفسيرًا معقولاً للأسباب التي جعلت

رجلاً بهذه الخلفية لا ينضم إلى الحزب النازي فحسب، وإنما يصبح أيضًا مرتبطًا على نحو وثيق مع السلطة الحاكمة.

أيًا كانت التفسيرات، فإن سورج، الذي اتخذ مظهر المراسل الصحافي الأجنبي النازي، وصل إلى طوكيو في إبريل ١٩٣٨. واتخذ سورج على الفور خطوتين هامتين. الخطوة الأولى هي أنه عقد صداقة حميمة مع الكولونيل يوجين أوت، الملحق العسكري الألماني في السفارة الألمانية. وإدراكًا منه لحقيقة أن أوت، الذي لم يكن يتحدث اليابانية، كان يفترض فيه أن يجمع معلومات استخباراتية في اليابان، قام سورج بمساعدته، من خلال تقديم معلومات استخباراتية قليلة ومختلفة ومتدنية الدرجة، من أجل تمكين أوت من إدراجها في تقاريره إلى برلين. وكان أوت، ضابط الاستخبارات غير الموهوب، شاكرًا جدًا، وبدأ في تمرير معلومات مثيرة وقليلة إلى سورج بعد سماعها من رؤسائه.

هذه العلاقة برهنت عن كونها ذات فائدة كبيرة حينما أصبح أوت في وقت لاحق السفير الألماني لدى اليابان.

كانت الخطوة الثانية هي أن سورج عكف على توسيع شبكته. وقامت مجموعته التي تتكون في الأصل من أربعة أشخاص بتجنيد مجموعة قليلة من العلماء النافعين، حتى أصبحت الشبكة تتكون من ٢٠ شخصًا، وكلهم في مناصب رئيسية، وكانوا قادرين على جعل سورج عارفًا بكل شيء هام يحدث في منطقة جغرافية تمتد من منشوريا إلى الطرف الشمالي من اليابان.

وما جعل شبكة سورج غير عادية، وفاعلة بدرجة عالية، هو دور رئيسها فيها. وبدلاً من مجرد جمع المعلومات الاستخباراتية وتمريرها إلى موسكو، فإن سورج قام أيضًا بدور المحلل الرئيسي للمعلومات الاستخباراتية في الشبكة. وكان يقوم بجمع كل

معلومة استخباراتية تأتي بها الشبكة، وتجميعها مع بعضها البعض في وحدة متلاحمة، ثم إضافة تحليلاته واستنتاجاته الخاصة.

كان سورج قد درب نفسه كخبير في كافة المسائل اليابانية، واحتفظ بمكتبة تضم ١٠٠٠ كتاب من الكتب اليابانية التي تعكس معرفته العميقة بشؤون البلاد. وجملة القول، فإن سورج كان بمثابة وكالة استخبارات تتكون من رجل واحد.

بعد شهر من وصوله إلى طوكيو، تمكن سورج من جعل موسكو عليمة بالمناقشات الجارية داخل الحكومة اليابانية حول السياسات المستقبلية. ومن الناحية المبدئية، فإن اليابانيين قرروا الذهاب إلى الحرب، ولكن في أي اتجاه يضربون؟ فئة جديدة واحدة، مؤيدة للألمان، أرادت ربط اليابان مع أهداف الحرب الألمانية، التي تتضمن، كما اكتشف سورج، غزوًا نهائيًا للاتحاد السوفياتي. وفئة حزبية أخرى، مع ذلك، جادلت بأن حاجة اليابان إلى المواد الخام تستدعي الضرب جنوبًا في اتجاه النفط وموارد المطاط في الملايو وجزر الهند الشرقية. وهذ الفئة الحزبية بدأت تكتسب اليد الطولى، مع أن أعضاءها اعترفوا بأن هذه السياسة تعني الدخول في حرب مع الولايات المتحدة.

كان جواسيس سورج قادرين على جعله عارفًا بالمناقشات اليابانية الجارية. وفي غضون ذلك، حرص سورج على الاهتمام الشديد بالطرف الألماني من المعادلة، حيث كان يوجين أوت، المنقذ دائمًا، يسعى إلى طلب النصيحة حول آخر قرارات هتلر السياسية. وفي أواخر ١٩٤٠، عرف سورج معلومة استخباراتية تقيم الدنيا ولا تقعدها: في اجتماع سري مع جنرالاته، أعلن هتلر عن قراره بغزو الاتحاد السوفياتي.

وفي هذا الصدد، يبقى من الأشياء غير القابلة للتصديق أن يميل ستالين، مثلما فعل مع التقارير الاستخباراتية الآتية من مصادر أخرى حول الغزو الألماني الوشيك، إلى

إسقاط تقرير سورج من حسابه وإعرابه عن استغرابه الشديد تجاه الأسباب التي جعلت سورج ضحية مثل تلك المعلومات الاستخباراتية "المخادعة"...

شعر سورج بغضب شديد، ولكنه قرر اللجوء إلى جمع المزيد من المعلومات الاستخباراتية الكافية لتغيير رأي ستالين. ولكن لم تكن هناك أيّ معلومة استخباراتية حملت موسكو على تغيير رأيها، حتى حينما، في أيّار ـ مايو ١٩٤١، أرسل تحذيرًا من أن الغزو الألماني للاتحاد السوفياتي سوف يبدأ عند الفجر في يوم ٢٠ حزيران ـ يونيو (الغزو الفعلي، المخطط له في ذلك اليوم، جرى تأجيله لمدة ٤٨ ساعة بسبب سوء الأحوال الجوية). ومع هذا، ظل ستالين يتجاهل هذا التحذير.

في هذه الأثناء، عكف سورج على إرسال قدر هائل من المعلومات الاستخباراتية، الأمر الذي أثار معه ظهور مشكلة جعل الراديو على الهواء لفترة زمنية طويلة. وإدراكًا منه لحقيقة أن عمليات اليابانيين لمكافحة التجسس تقوم على خدمات كثيفة لمراقبة الراديوهات، قام سورج بخطوات ثابتة لإخفاء إرسالياته عن الآذان الصاغية. وفي بادئ الأمر، جعل الراديو ينتقل من بيت إلى آخر، ثم خطرت على باله فكرة استخدام قارب بحري كقاعدة راديو، وفي هذه الحالة، يتم إرسال المعلومات الاستخباراتية من القارب، ثم ينتقل القارب إلى موقع آخر. واستخدم كلاوسين، مشغل الراديو، أجهزة إرسال بالغة السرعة للبقاء على الهواء أقصر مدّة ممكنة.

ومع هذا، فإن اليابانيين كانوا يعرفون أن هناك راديو سريًا يعمل في مكان ما داخل البلاد. ولم يتمكنوا من اكتشاف موقعه، غير أن ذلك القدر الهائل من المعلومات الاستخباراتية أشار إلى أن الراديو ربما يخدم شبكة تجسس.

وفي وقت مبكر من سنة ١٩٣٨، وتحديدًا في ذلك الوقت الذي وصل فيه سورج إلى طوكيو، اكتشف اليابانيون دلائل وجود شبكة تجسس، ولكنهم لم يكونوا يملكون أيّ فكرة عن حجمها ومجالها والجبهة التي تعمل لحسابها.

في أواخر ١٩٣٩، تمكن جهاز الاستخبارات الياباني من التوصل إلى دلائل أولية: جهاز الاستخبارات الياباني ألقى القبض على ريتسو إيتو، زعيم فئة متطرفة ومؤيدة متحمسة للاتحاد السوفياتي وتابعة للحزب الشيوعي الياباني ومحظورة منذ سنوات عديدة. وتمكن جهاز الاستخبارات الياباني، المعروف بأساليبه التي لا ترحم في التعذيب، من انتزاع معلومة استخباراتية مثيرة من إيتو وهي أن الحزب لديه مجموعة سرية معنية بالتجسس لحساب الاتحاد السوفياتي...

لم يكن إيتو يعرف يقينًا أسماء الأعضاء المنهمكين في عمليات التجسس، ولكنه أعطى القائمين على استجوابه قائمة بأسماء أعضاء الحزب المعنيين بالأعمال السرية. ومن بين هؤلاء، هناك أوساكي هوسومي ومياغي يوطوكيو، أهم جاسوسين نافعين يابانيين يعملان مع سورج.

وبعدئذٍ، شرع اليابانيون في عملية شاقة تضمنت البحث عن أكثر من ١٠٠ اسم ممن كشف عنهم إيتو. وكانت العملية أشبه بعملية البحث عن إبرة في كومة من القش، غير أن البحث المتواصل عن الأسماء كلها أدى إلى نتيجة مثيرة: البحث عن أوساكي ومياغي كشف النقاب عن ارتباط وثيق من جانب مراسل صحفي ألماني يدعى ريتشارد سورج. وربما حان الوقت للقيام بحملة مراقبة شديدة لأفعال سورج.

ومن قبيل المصادفة، فإن محكمة وكالة الاستخبارات النازية في السفارة الألمانية في طوكيو شرعت أيضًا في حملة مراقبة شديدة لأفعال سورج. ولم تشك وكالة

الاستخبارات النازية في أن يكون سورج جاسوسًا سوفياتيًا، والسبب في ذلك هو تلك العلاقة الوثيقة التي كان يقيمها مع الدبلوماسيين الألمان، وعلى الأخص السفير يوجين أوت. وتركز اهتمام وكالة الاستخبارات النازية، على احتمال أن يكون سورج يعمل لحساب منافسها المكروه، وهو جهاز الاستخبارات الألماني.

كانت الحاسة السادسة حذرت سورج خلال تلك الشهور الحاسمة من سنة ١٩٤١ من احتمالات تعرضه مع أعضاء شبكته للأخطار. ومع ذلك، فإن حاجة الاتحاد السوفياتي للمعلومات الاستخباراتية في ذلك الوقت كانت أشد من أي وقت مضى، وعلىالأخص في ما يتعلق بأي شيء يمكن أن ينقله إلى الاتحاد السوفياتي عن نوايا الألمان. وفي وقت مبكر من عام ١٩٤١، حينما بدأت القوات الألمانية في إحكام حصارها على موسكو، خرج سورج بمعلومة استخباراتية كان لها تأثير دراماتيكي على مجرى الحرب، وهي معلومة كان يمكن أن تضعه في مقبرة عظماء التجسس في الاتحاد السوفياتي.

خلال عدة شهور، عكف مجلس الوزراء الياباني على مناقشة مكان توجيه الضربة العسكرية الأولى. وبينما مارس الألمان ضغوطًا من أجل قيام اليابانيين بغزو الاتحاد السوفياتي، فإن مجلس الوزراء قرر التحرك جنوبًا، من أجل الاستيلاء على مصادر المواد الخام الضرورية للصناعات اليابانية. وهذا القرار، الذي جرى تمريره إلى الألمان الذين خاب ظنهم بحلفائهم، أصبح معروفًا في الحال لدى سورج. ومن خلال سلسلة من ثلاث إرساليات طويلة جرى نقلها من قاربه البحري المتحرك، أرسل كلاوسين هذه الأخبار الخطيرة إلى موسكو، بما فيها نصوص القرارات التي اتخذها مجلس الوزراء.

ما حدث بعد ذلك كان شيئًا لم يسبق له مثيل:

إعتمادًا على سجل سورج في توخي الدقة في هذا المجال، قرر السوفيات القيام بمغامرة استثنائية، وهي نقل جميع جنود خط الجبهة الموجودين في حالة تأهب في الشرق لصد أي غزو ياباني محتمل إلى ناحية الغرب، حيث باغتوا الألمان المذهولين الذين كانوا يشقون طريقهم إلى ضواحي موسكو. وتمكنت الفرقة العسكرية السيبيرية، التي لم تشارك في قتال، ولم تتأثر بالطقس البارد منذ ٥٠ عامًا، من إلحاق الهزيمة الأولى بالقوات الألمانية، وهي صدمة جعلت هتلر يضطر إلى طرد معظم كبار جنرالاته في الجهة الشرقية ويتولى مسؤولية توجيه دفة الحرب بنفسه، مع ما صاحب ذلك من نتائج مأساوية.

في هذه الأثناء، جرى إلقاء القبض على مياغي وأوساكي، وبينما كان جهاز الاستخبارات الياباني يحكم خناقه، كان سورج يعد نفسه لإرسال رسالته الأخيرة: اليابانيون سوف يبدأون مسيرتهم جنوبًا بتوجيه ضربة قاضية ضد الأسطول الأميركي في بيرل هاربر خلال نهاية هذا العام. وما عمل على تخفيف حدة توترهم العصبي هو أن اليابانيين تمكنوا من إلقاء القبض على كلاوسين قبل قيامه بإرسال هذه المعلومات الاستخباراتية من سورج... الذي كان من الممكن أن يتمكن من الهروب لولا عبثه القاتل مع حبيبته اليابانية.

ما عانى منه سورج على أيدي جهاز الاستخبارات الياباني غير معروف، وتشير السجلات اليابانية المتاحة إلى أنه أظهر رغبة واضحة في التعاون، وقال كل شيء إلى اليابانيين. وقاوم اليابانيون طلبًا ألمانيًا عاجلاً بتسلم سورج، مفضلين بدلاً من ذلك الإبقاء عليه لتبادل لاحق للأسرى. وفي ١٩٤٣، اقترح اليابانيون عقد صفقة تبادل للأسرى مع موسكو، مقدمين سورج مقابل عدد من الجواسيس اليابانيين الذين ألقى السوفيات القبض عليهم. ولكن موسكو لم ترسل ردًا جوابيًا أبدًا، وعلى ما يبدو، فإز

ستالين لم يكن راغبًا في وجود شاهد آخر من حوله على تجاهله للتحذيرات الواضحة بالغزو الألماني.

أبقى اليابانيون على سورج حيًا لمدة ثلاث سنوات، مثابرين على بذل الجهود من أجل معرفة المزيد من الأسرار التي قام بإفشائها إلى موسكو في أكثر من ٣٠،٠٠٠ صفحة من المعلومات الاستخباراتية. وأخيرًا، في العام ١٩٤٤، حينما لم يكن هناك شيء يمكن انتزاعه من سورج، جرى إعدامه.

بعد ذلك بعدة سنوات، ظلت الحبيبة اليابانية تقوم بزيارات منتظمة إلى قبر سورج الذي لم يكن يحمل شاهدًا، وظلت تضع عليه الأكاليل من زهرة الأقحوان، وهي زهرة معروفة بقدرتها على النمو في ظل ظروف صعبة[1]...

---

١ ـ فولكمان إرنست، الجواسيس عملاء سريّون غيّروا مجرى التاريخ (مكتبة مدبولي،١٩٩٩) ص١٦٧ ـ ١٧٧.

ريتا إليوت: جاسوسة التنويم المغناطيسي

لم تقتصر الجاسوسية السوفياتية على "تقمص الشخصية" وحدها، بل لجأت إلى ما هو أهم من ذلك بكثير، حيث وصلت إلى عملية "تقمص" المدن والمقاطعات والدول بكاملها، عبر مؤسسات اختصاصية في هذا المضمار. وتأتي مدارس "غاكزينا" و"براخوفكا" و"ستيابنايا" على رأس هذه المؤسسات. إلا أن المؤسسة الاختصاصية المعروفة بغاكزينا هي التي حازت على قصب السباق وفاقت في أهميتها كل المؤسسات والمدارس التي أخذت على عاتقها مسؤولية تخريج جواسيس المستقبل.

تقع مدرسة غاكزينا على بعد بضع مئات من الأميال جنوبي شرقي "كويبيتشيف" وتبلغ مساحة أرضها ٤٢٥ ميلاً مربعًا، ولم يكن يحق لأحد أن يقترب من غاكزينا ما لم يكن لديه رخصة من قبل الاستخبارات السرية، إذ إن المنطقة بكاملها كانت تحرسها وحدات الاستخبارات السرية التي تعزلها لمسافة ٣٠ ميلاً. كما أن هذه المدرسة لا تظهر على أيّ خريطة، لدرجة أنها لم تكن موجودة بالنسبة للشعب الروسي وغيره من شعوب العالم.

كان جواسيس هذه المدرسة يُنقلون بواسطة طائرات وزارة الداخلية الخاصة، إليها، ليتلقوا تدريبًا اختصاصيًا لمدة عشر سنوات، وذلك بهدف أساسي يتمثل بالخدمة في الخارج، عبر معايشة جوّ أجنبي غريب عنهم طوال هذه المدة، لكي يسهل عليهم العمل والحياة في البلدان التي تتكلم اللغة الإنكليزية، بعد أن يكون دماغهم قد تعود

تعودًا تامًا على الشخصية الجديدة التي تقمصوها خلال تدريب العشر سنوات. من هذا القبيل، كانت الجاسوسية السوفياتية في أستراليا، والتي تلاعبت بأعصابها كما يتلاعب العازف بأوتار عوده.

في شهر نيسان ـ أبريل من عام ١٩٥٤، هرب موظف الشيفرة في السفارة السوفياتية في سيدني بأستراليا "فلاديمير بتروف" مع زوجته "بفدوكيا" بعد أن حررهم رجال الأمن الأستراليين من قبضة المرافقين الروس. وقد فضح بتروف وزوجته شبكة التجسس الروسية مما أدى إلى توقف نشاط مخابراتها. وقد استمر عدد من الجواسيس المستقلين غير المرتبطين بالسفارة الروسية في الاتصال اللاسلكي بموسكو وتزويدها بالأفلام والرسائل المكتوبة بالشيفرة، لكن البون كان واسعًا ولم تعد المعلومات الواردة من أستراليا مفصلة ودورية كما كانت من قبل.

صممت موسكو على ملء الفراغ الذي أحدثه "فلاديمير بتروف" وزوجته. فاتخذت إجراءات سريعة لإنشاء شبكة جديدة وقوية. كانت بحاجة إلى سرعة فائقة، لأنّ توسع منطقة "ويميدا" السريع كمركز للصواريخ الموجهة وللأبحاث النووية، اقتضى إرسال جواسيس من الدرجة الأولى في الحال.

أرسل جواسيس مدربون في "معهد غاكزينا" إلى أستراليا، ولكن هؤلاء وجدوا أنه من الصعب تنظيم شبكة جاسوسية على أسس متينة، لأن الجاسوسية المضادة في أستراليا أصبحت حذرة وتشك في أي وجه جديد يأتي إلى المنطقة. وقد فهمت موسكو هذه الصعوبات، فأمرت جواسيسها بتجميد نشاطهم حتى تهدأ الأمور. ويظهر من تقارير المخابرات السوفياتيّة أن بعضًا من الجواسيس الجدد في أستراليا اضطروا إلى البقاء وبدون نشاط مدة تتراوح بين ثلاثة وتسعة أشهر قبل أن يجرؤوا على البدء بالعمل من جديد.

وبالرغم من أن هؤلاء الجواسيس الذين اضطروا إلى التخلي عن أي نشاط تجسسي كانوا مزودين بالمال الكافي، فقد بحثوا عن وظائف للتغطية، مدركين أن شخصًا يملك مالاً ومعظم أوقاته فارغة لا بد وأن يلفت الأنظار إليه. وقد تكلم هؤلاء بالتفصيل عن الظروف الاستثنائية التي تؤخر النشاط العام في تقاريرهم إلى موسكو.

كان من بين الجواسيس الجدد في أستراليا فتاة تدعى "ريتا إليوت" استطاعت بعد ثلاثة أشهر أن توجد تغطية كاملة لعملها.

إختارت القيادة العامة للمخابرات في موسكو لها هويّة "ريتا إليوت" لأنها بعد أن بحثت ودققت في جميع الاحتمالات بالتفصيل قررت أن هذه الهوية "كاملة".

الإسم الحقيقي لريتا إليوت هو "سفير غريغوريفنا يورين" المولودة في موسكو عام ١٩٢٣. وكان والدها "غريغوري إيفانوفتش يورين" فنانًا انضم عند بلوغه الثلاثين إلى "سيرك الدولة" في موسكو.

كانت سفير لاعبة "ترابيز" شهيرة، وكانت عضوًا نشيطًا في الحزب الشيوعي. وسرعان ما لاحظ المسؤولون عنها أنها صالحة للعمل في السلك الخارجي، فأرسلت عام ١٩٤٣ للتدريب الخاص، ودخلت معهد غاكزينا عام ١٩٤٥ حيث سميت "ريتا إليوت" وسجلت تحت رقم ٩ ـ ٤٥٠١١٠/٢١٥ ـ ج.

شجعها مدرسوها هناك على تعلم شتى فنون الرقص والألعاب البهلوانية لتصبح هذه المهنة تغطية كاملة لعملها في المستقبل.

في غاكزينا تعلمت "ريتا" فن السير على حبل مشدود قليل الانحناء على علو مرتفع. ورغم أن "ريتا" قضت وقتًا طويلاً في تطوير فنها البهلواني، فقد حازت أيضًا على المهارات في الحقول الأخرى. وكانت التقارير الدورية المرسلة إلى القيادة العامة

للمخابرات في موسكو تقول عنها:... لهذه الطالبة مؤهلات عدة، ليس فقط في حقل اللغات ولكن في شتى فروع المعرفة. إنها تملك جميع طاقات الجاسوسية. ولا شك في أنها ستصبح موضع تقديرنا في عملها في المستقبل...

إن تطورها في اللغات والتأقلم لا مثيل له. فبعد أربعة عشر شهرًا أصبحت تتكلم وتتصرف وكأنها قد ولدت في البلد الذي سوف ترسل إليه. ويجمع أساتذتها على أن لهجتها كاملة...

وعندما حان موعد الامتحانات النهائية فازت ريتا فيها بتفوق. وبعد بضعة أيام استلم "قسم النقل" أمر ترحيلها إلى أستراليا.

تسللت "ريتا اليوت" إلى أستراليا في أواخر تشرين الأوّ ـ أكتوبر عام ١٩٥٥ وتوجهت إلى "اديليد" حيث مكثت مدة ثمانية أيام لتعتاد على محيطها الجديد. ثم انتقلت إلى "ملبورن" حيث كان عليها أن تمضي بضعة أسابيع. وكانت قصة التغطية أنها آتية للبحث عن وظيفة، وأن فرص الحصول على وظيفة أحسن منها في "ملبورن" مما هي في "اديليد". وكانت تحمل عنوان بيت محترم يسكنه الفنانون.

بعد أن تعرفت ريتا على "ملبورن" لمدة أسبوع، وجدت مكتبًا للتوظيف. وكتبت إلى رؤسائها عن هذه الفترة قائلة: "سجلت طلب الوظيفة. وقد أخذ لي موعد لأعرض "تمرتي" وأعجب بي فوقّعنا عرضًا وقالوا إنهم واثقون من أني سأبدأ العمل قريبًا".

كتبت ريتا في تقريرها التالي إلى موسكو تقول إنها بدأت العمل في ملبورن وقد قوبلت بالاستحسان، وقادها عملها الفني إلى "سيدني" و "كاميرا" والمدن الاسترالية الرئيسية الأخرى، فاستقرت وعاودت نشاطها التجسسي الذي بدأته في ملبورن. وبما أنها كانت من أمهر جاسوسات المخابرات الروسية، فقد استطاعت أن تنشئ شبكة

جاسوسية في مدة قصيرة. وأخذت ترسل التقارير بواسطة جهاز لاسلكي صغير الحجم. وبعثت بعدة أفلام لوثائق سرية وبعدد لا يحصى من التقارير المكتوبة بالشيفرة.

كانت ريتا تطبق تعاليم معهد "غاكزينا" في عملها التجسسي الواسع في مجال المعلومات النووية والسرية. وكان مساعدوها يعرّفونها على موظفي الحكومة وكبار الشخصيات الذين يملكون معلومات أكيدة عما يجري في منطقة "ويميدا" ومراكز الأبحاث التابعة لها باعتبارها منطقة الصواريخ الموجهة ومراكز الأبحاث النووية.

كانت طريقتها في استخراج المعلومات من أشخاص لا يتفوهون بها في الأحوال العادية رهيبة، وقد جاء عنها في تقرير للمخابرات الروسية: كانت تستميل الرجال إليها بجمالها الخارق... وبعد أن يتناولوا المشروب معها، كانوا يقبلون دعوتها لهم للذهاب إلى شقتها... وهناك كانت تقدم لهم مشروبًا ممزوجًا بمخدر خاص يفقد الانسان سيطرته على نفسه. ثم كانت تنوم الرجل تنويمًا مغناطيسيًا وتوحي إليه بأن يقدم تقريرًا عن عمله لرئيسه... ثم تسأله أسئلة دقيقة وتسجل جميع ما يقوله.

إن الأهمية القصوى لهذه الطريقة تكمن في أن ريتا تأمر الرجل النائم ـ قبل إعادته إلى وعيه ـ بأن ينسى كل ما قال ويتذكر فقط أنهما كانا يشربان معًا.

بالرغم من حذر ريتا وبعد نظرها، فإنها لم تفلت من الجاسوسية المضادة في أستراليا. فقد لوحظ أنها تعاشر عددًا كبيرًا من موظفي الحكومة، ومن الشخصيات الكبيرة المرتبطة بشكل أو بآخر بالأبحاث النووية السرية. وقد أظهر التحقيق أن هؤلاء الرجال أكدوا على أن علاقتهم بها كانت اجتماعية وخاصة. وأكد كل واحد على تقرير الآخر بقوله إن الفتاة لم تذكر له شيئًا عن السياسة أو عن الأبحاث العلمية، بل كانت تريد أن تقضي وقتًا طيبًا.

كان في أستراليا جاسوس تابع للمخابرات السوفياتية، مهمته مراقبة نشاط الجواسيس المقيمين والحفاظ على سلامتهم، فبلغه أن "ريتا إليوت" قد وضعت تحت المراقبة، فأبلغها وأبلغ موسكو بالأمر بأسرع وقت، وعوضًا عن أن تستدعي موسكو الجاسوسة وتثبت بذلك شكوك السلطات الأسترالية، أمرتها بوقف نشاطها التجسسي "في الحال"، وبإبلاغ مساعديها بتجميد نشاطهم حتى إشعار آخر، وبنقل آلات الإرسال والأدوات الفوتوغرافية إلى مكان أمين. وطلبت موسكو من ريتا أن تستمر في حياتها كفنانة لكي يظهر للعيان أن ما من شيء قد تغير. وبالرغم من رجال التحري التابعين للجاسوسية المضادة الأسترالية المتنكرين والذين كانوا يقومون بمراقبة ريتا، فقد تمكنت خريجة معهد "غاكزينا" من الاتصال بالمخبرين وضباط الاتصال والمساعدين الآخرين الذين يعملون معها وبالتخلص من جميع ما يثير الشبهات حولها.

وحين اكتشفت ريتا آلات لاقطة مخيفة في منزلها، تصرفت وكأنها تجهل المراقبة عليها... ولم تستطع الجاسوسية المضادة من أن تثبت شيئًا ضدها لكنها قررت الاستمرار في مراقبتها.

لم تجد موسكو مبررًا لإبقاء ريتا هناك تحت التهديد الدائم باكتشافها، فقررت أن توكل إلى "ريتا اليوت"، الموضوعة تحت المراقبة بسبب الشكوك الموقتة عليها، مسؤوليات أخرى.

وجدت "الشعبة الثالثة" في القيادة العامة للمخابرات في موسكو الحل للقضية. ففي كانون الثاني - يناير عام ١٩٦١ أرسلت إلى "ريتا إليوت" من الهند وباكستان وبلاد أخرى عروضًا "حقيقية" للعمل في كباريهات وملاهي من الدرجة الأولى. فقبلت ريتا وغادرت أستراليا في شباط - فبراير ١٩٦١، حيث ظهرت في الهند، لكنها لم تقم بأي نشاط تجسسي، ثم انتقلت إلى الباكستان حيث اختفت أخبارها نهائيًا. إلا أن المرجّح

أنها أعطيت اسمًا جديدًا لتمارس عملها القديم في مكـان جديد، ذلك أن أمثالها قلائل، وباستطاعتها أن تخدم المخابرات السوفياتية في أي بلد انتدبت إليه.

وفي عام ١٩٥٤ أثبتت التحريات التي أجرتها الحكومة الأسترالية أن ثلاثًا من مراسلي تاس في استراليا هم جواسيس. وورد في تقرير حكومي حول هذا الموضوع ما يلي: "إن جميع مراسلي تاس في أستراليا أعضاء عاملون في ملاكات الشرطة السرية الروسية. وإن تزويد الشرطة السرية بالمعلومات هي مهمتهم الأولى، ونجدهم من أجل ذلك يمتزجزن بحرية بالصحافيين دون إثارة الشكوك"[١].

١ ـ زهر الدين د صالح، ملف الاستخبارات السوفياتيّة، ص١٠٣ ـ ١٠٨.

الأوركسترا الحمراء

الشيوعي الألماني "لوبر"، الذي يعتبر من أبرع جواسيس المخابرات السوفياتية في أثناء الحرب العالمية الثانية، نجح في إنشاء شبكات تجسس قوية في ألمانيا ودول أوروبا التي كان يحتلها النازيون، وكان موظفو الحكومة الألمانيّة هم الذين يمدّون هذه الشبكات بالمعلومات، وكان "لوبر" يدير هذه الشبكات من سويسرا المحايدة، فقد كوّن ما يسمى "الأوركسترا الحمراء"، ووُصف بأنّه عازف الكمان الأول في هذه الأوركسترا... فقد كان تحت تصرفه ١٤ جهازًا قويًّا للإرسال في مدن أوروبا المختلفة، وكانت الرسائل تنقل بواسطتها إلى موسكو كل ليلة، وبلغ عدد العملاء الذين ينتمون لهذه الشبكة الواسعة نحو مئتي عنصر يواصلون إرسال المعلومات عن تحركات الجيوش الألمانية في كل الاتجاهات، وكان معظم أعضاء الشبكة من العناصر التي تكره النظام الهتلري النازي وعلى استعداد للمخاطرة بحياتهم حيث ألقي القبض على الكثير من عناصر "الأوركسترا الحمراء" داخل ألمانيا ونفذ فيهم جهاز الغستابو حكم الموت.

الملاحظ أن إعداد شبكة "الأوركسترا الحمراء" وخططها وبرامجها وتدريبها قد تمّ بشكل كامل قبل نشوب الحرب العالمية الثانية بزمن طويل، وكانت على استعداد تام بأجهزة الإرسال التي كانت موزعة بالدول الأوروبية، وكذلك بعناصر الشبكات المحلية المدربين تدريبًا عاليًا، حتى في الوقت الذي كان يتم فيه الحديث عن السلام وقبل أن

يعلن هتلر خططه لغزو العالم والسيطرة عليه. وتدرب "لوبر" عندما هرب من ألمانيا إلى روسيا على يد "التشيكا"، وقد أصبح خبيرًا في التدمير البحري، وينسب إليه إلحاق الضرر بتدمير أكثر من عشرين سفينة ألمانية وإيطالية وإسبانية كانت تحمل السلاح والطعام لجيوش الدكتاتور الأسباني "فرانكو"... ولم يتمكن "الغستابو" من إلقاء القبض عليه... وقد أصبح وزير النقل والشحن في جمهوريّة ألمانيا الديمقراطيّة بعد الحرب، وكان محل اعتزاز وفخر جهاز المخابرات السوفياتي[1].

---

١ ـ صالح محمود عابدين، المخابرات والأمن والجاسوسيّة، ص٢٤٤.

ستيغ فنرستروم: العقيد السويدي العميل لموسكو

يعتبر الكولونيل "ستينغ فنرستروم" من أمهر الجواسيس وأعظمهم في السويد والذين قدموا خدمات جلى إلى المعسكر الاشتراكي عامة، وإلى الاتحاد السوفياتي على وجه الخصوص.

ففي صباح ٢٠ حزيران - يوينو ١٩٧٣ كان رجل طويل القامة يجتاز بخطوات واسعة جسرًا في وسط ستوكهولم عندما اعترض طريقه فجأة ثلاثة من رجال الشرطة السرية، فقدم أحدهم نفسه بلطف ثم قال إنه مكلف بالقبض عليه، فلم يعترض الرجل، بل تبع رجال الشرطة السرية في هدوء حتى سيارتهم الواقفة على مقربة من المكان. وهكذا وبطريقة سريعة وهادئة انتهت القصة المثيرة للعقيد فنرستروم، وهو من أنجح الجواسيس الذين استخدمهم السوفيات منذ بداية الحرب الباردة.

هز السويد نبأ القبض على "ستيغ فنرستروم" ولم تبالغ العناوين المثيرة لصحف ستوكهولم حين قالت:

"أكبر فضيحة للجاسوسية شهدتها السويد. عقيد سويدي يبيع أسرارًا خطيرة بقيمة لا تقدر. عقيد سويدي كان يعمل لحساب الروس".

بلغت موجة الصدمة لندن وواشنطن لأن العقيد تاجر بأعمال الجاسوسية بالجملة وباع أسرارًا عسكرية لا تتعلق بالسويد فحسب وإنما بانكلترا والولايات المتحدة وبحلف الأطلسي أيضًا. واعترف في النهاية بأنه ارتكب مئة وستين عملاً من أعمال الجاسوسية ضد السويد، ومن بين هذه الأعمال أنه باع للروس أسرار الدفاع الجوي

السويدي والتصميمات التفصيلية لأحدث الطائرات السويدية ومعلومات عن الصواريخ البريطانية والأميركية. وقدرت المحكمة التي حكمت عليه بالسجن مدى الحياة أنه تقاضى من السوفيات ما يقرب من خمسمائة ألف كورون.

أثار توقيف ستيغ فنرستروم شكوك ستوكهولم وواشنطن. فقد كان فنرستروم وزوجته محبوبين ومعروفين في حفلات الكوكتيل، وكانت الزوجة "أولا غريتا كارلسون" فاتنة إلى حد بعيد. أما العقيد الذي يبلغ من العمر ٥٦ سنة فقد كان متحفظًا ولكنه كان ذا حديث جذاب. كانت النساء يجدنه ساحرًا. كان رياضيّ البنية وذا وجه ناعم، قسماته واضحة، غير متغضنة، يحتفظ بنضرة الشباب رغم تقدم العمر.

وسرعان ما أثارت قضية فنرستروم جدالاً سياسيًا في السويد. فقد تساءلت المعارضة عن كيفية استطاعة ضابط عظيم أن يواصل عمليات التجسس وعلى نطاق واسع طوال هذه المدة دون أن، ينكشف أمره؟ ولم يكن أقل من ذلك غرابة كيف استطاع رجل له ماض نظيف كفنرستروم أن يصبح خائنًا. وأين تكمن نقطة الضعف؟

لم يكن فنرستروم، على ما يظهر، من الذين تفكر مصلحة الاستخبارات السوفياتية في أن تستخدمه كجاسوس. فهو لم يكن يبدو أبدًا أنه يتعاطف مع اليسار المتطرف، ولم يكن يعرض نفسه للتشهير بسهولة لأنه لم يكن من المصابين بشذوذ جنسي أو المقامرين أو زير نساء. فقد أجمع الناس على أنه ظل شديد التعلق بزوجته التي تزوجها من ٢٤ سنة، وبابنتيه اللتين بلغتا من العمر حين توقيفه ٢١ و ١٧ سنة.

وميزته الوحيدة، إن صح التعبير، أنه كان سويديًا معتدلاً عديم الشأن. كان قنوعًا زاهدًا في الأكل والشرب، وكانت رياضته المفضلة هي الغولف واللعب على الثلج، كما كان يحب أن يلعب البريدج، ولم يكن موسيقيًا ولم يكن يهتم قط بالفنون. وربما أحب كثرة التردد على الحفلات ولكن سلوكه كان سليمًا لا مأخذ عليه.

حتى أن أصدقاءه لم يتوصلوا، إلا بعد فوات الأوان، لأن يتذكروا كلمة واحدة كشفت بدقة عن شيء ما. ففي مأدبة عشاء دعي إليها، ألقى أحد الضيوف كلمة أشاد فيها باللغة الفرنسية، فرد فنرستروم قائلاً: "ينبغي رؤية الأشياء كما هي: خلال بضع سنوات لن تبقى هناك لغات ذات أهمية عالمية إلا لغة ونصف لغة، ستكون الانكليزية هي نصف اللغة وستكون الروسية هي اللغة السائدة".

لم ينشر هذا التعليق، حينئذ، أي ظل من الشك، ولكن مثل هذه الصراحة من فنرستروم، كان أمرًا نادرًا. فقد اعتاد بصورة عامة أن يتجنب الدخول في أيّ مناقشة تتعلق بالسياسة أو الشؤون الخارجية. كانت دماثة خلقه وراءها شخصية غامضة إلى حد لا يرتاب فيه أي انسان باستثناء، سادته الروس. وبعد اعتقاله ظلت الشرطة تستجوبه لعدة شهور، وقام أخصائي اجتماعي باستجواب ما يقرب من عشرين شخصًا من أقاربه وأصدقائه لمحاولة كشف الأسباب الخفية التي دفعته إلى الخيانة. ويقول ايروين: لا هذا التحقيق ولا ذلك الذي قمت به شخصيًا في واشنطن وستوكهولم أتاحا لي اختراق الواجهة التي كانت تحميه.

إن أمرًا واحدًا قد وضح وهو أن فنرستروم كان رجلاً متكبرًا جدًا، ويتحرق لأن يلعب دورًا أكبر مما تسمح به وسائله، وقد بدا له أن "التجسس لحساب دولة كبيرة" هو مغامرة مثيرة يعد نفسه لأن يلعب فيها دورًا أوليًا، وقد غذى الروس أنانيته بمهارة.

ولد فنرستروم في ٢٢ آب ـ أغسطس سنة ١٩٠٦ في أسرة ضباط. وكان صبيًا خجولاً منطويًا على نفسه، ولم يكن له في طفولته غير أصدقاء صادقين قليلين. وكان يبدو أنه لم يكن على علاقة طيبة مع أبيه الذي كان رجلاً متباعدًا ومتحفظًا، بينما كانت علاقته بأمه أكثر حبًا، وكان بعض أصدقائه ينظرون إليه باعتباره رجلاً جبانًا كدجاجة مبللة، ولذا أصابتهم الدهشة عندما رأوه قد انخرط في السلك العسكري.

ورغب دائمًا منذ ذلك التاريخ في تحسين وضعه. فعندما كان غيره من الضباط الشباب يجتمعون معًا في المساء للهو، كان فنرستروم يلزم غرفته ليواصل دراسته للغة الروسية. لقد قرر أن يتعلم اللغة الروسية، كما قال للمحققين، لأنه كان يعتقد أن هذه اللغة قد تفيده يومًا ما في المستقبل. وبعد أن تدرب في البحرية انتقل إلى السلاح الجوي بعد قليل من عام ١٩٣٠. وفي شتاء ١٩٣٣ ـ ١٩٣٤ منحته وزارة الدفاع زيارة مجانية لإتقان اللغة الروسية. وخلال هذه الزيارة لـ"ريغا" تيقظ اهتمامه بالجاسوسية، حيث كانت "ريغا" عاصمة ليتوانيا المستقلة ورمز "تنصّت" مشهور جدًا على الحدود السوفياتية، والمدينة تكتظ بالجواسيس و "باعة مواسير المعلومات" والدبلوماسيين والعملاء المزدوجين. وقد تعرف فنرستروم على الحياة المثيرة لهذا العالم الذي يخيم عليه الغموض عندما تعرف على عميل بريطاني تحدث إليه بصراحة عن عمله، وكان مبعث تعارفهما المصادفة وتبادل الحديث، ولكن البذرة كانت قد غرست. وفي "ريغا" أيضًا تذوق فنرستروم طعم معاشرة المجتمع الدبلوماسي... فلقد استقبل في حفلات بعض السفارات وقد ذكر خلال التحقيق: "أنه نجح تمامًا في هذا النوع من الحياة الاجتماعية". ولقد كان يتحين الفرص دائمًا لأن يغشى المجتمع.

في عام ١٩٣٩، بعد عودته من "ريغا"، تزوج فنرستروم "أولا غريتا كارلسون" ابنة رجل ثري يشغل منصبًا رفيعًا في جريدة تصدر في ستوكهولم. وكانت "أولا" تصغر زوجها بثلاثة عشر عامًا وتحبه إلى درجة العبادة فخضعت لسيطرته. وما انفكت تدعي منذ اعتقاله أنها كانت تجهل دائمًا نشاطاته في الجاسوسية. وفي عام ١٩٤٠ كان قد أُرسل فنرستروم إلى موسكو كملحق عسكري لا سيما بسبب معرفته التامة للغة الروسية. وكان ميثاق التحالف الألماني ـ السوفياتي لا يزال قائمًا في ذلك الوقت، ولكن العلاقات أخذت تزداد توترًا بين المتحالفين.

أقام فنرستروم اتصالات مع أقرانه من السفارات الأخرى وبصورة خاصة مع الألمان. وربما كانت علاقاته ككثير من العسكريين السويديين في هذه المرحلة من الحرب، أكثر توثقًا مع ألمانيا، وعلى كل حال فإن هناك أمرًا واحدًا أكيدًا لا شك فيه: هو أنه لم يكن يجد أي وازع أخلاقي يمنعه من أن يقدم للنازيين كافة المعلومات التي استطاع جمعها عن الاتحاد السوفياتي خلال عمله. وقدر الألمان خدماته فسهلوا له الحصول على الروبلات من السوق السوداء. وبعد عودته إلى السويد في مارس ١٩٤٠، ظل فنرستروم على علاقاته الودية مع السفارة الألمانية. وفي عام ١٩٤٣ اكتشفت مصلحة المخابرات السويدية رموز الشيفرة الألمانية ووجدت اسم العقيد مذكورًا في برقيات مرسلة إلى برلين من السفارة الألمانية باعتباره مصدرًا للمعلومات. وعلى أثر ذلك راقبت السلطات السويدية اتصالاته الهاتفية ولكنها لم تكشف على ما يبدو شيئًا يدينه أكثر من ذلك. وفي تشرين الأول - اكتوبر ١٩٤٣، نُقل فنرستروم إلى قاعدة "ساتيناس" الجوية على الساحل الغربي من السويد. وبعد مضي عامين نقل إلى منصب عسكري في ستوكهولم حيث كانت اتصالاته الهامة مع الأميركيين والروس، وغالبًا ما كان فنرستروم يعمل كمرافق ومترجم للضباط السوفيات عندما يأتون إلى السويد لزيارة بعض المنشآت الجوية.

أنجز فنرستروم أول عمل تجسسي لحساب السوفيات في أواخر عام ١٩٤٨، إذ علم أنّ الكولونيل "إيفان بتروفيتش ريباشنكو" الملحق الجوي السوفياتي في ستوكهولم يظهر اهتمامًا بقاعدة جوية جديدة في السويد، فعرض عليه فنرستروم هذا الاقتراح:

"إذا كانت هذه القاعدة الجوية لها مثل هذه الأهمية لك فإن بإمكاني أن أقول لك ما أعرفه عنها مقابل خمسة آلاف كورون". وبدت الدهشة واضحة على "ريباشنكو" ثم

أجابه بأنه سينظر في الأمر. وبعد بضعة أسابيع تقابل الرجلان في حفلة كوكتيل دبلوماسية. وبينما هما يتصافحان تمتم ريباشنكو: اتفقنا.

وتقابلا للمرة الثانية في إحدى المناسبات الاجتماعية، وبعدها ذهب الروسي بفنرستروم إلى منزله، وأعطاه، وهما يفترقان، رزمة تحتوي على المبلغ المتفق عليه. وتسلم في ما بعد خريطة تحدد مكان القاعدة الجوية. ويصرح فنرستروم بأن السبب الذي دفعه إلى القيام بهذه العملية كان رغبته في التسلل إلى شبكات الجاسوسية الروسية لإفادة الولايات المتحدة الأميركية منها. وهو يصر على أن اتصالاته الأولى بالمخابرات الأميركية تعود إلى عام ١٩٤٦ حيث فاجأ أحد العملاء الأميركيين في ذلك الوقت بأن أسرّ إليه بأن اسم فنرستروم وجد في سجلات شبكة التجسس الألمانية خلال سني الحرب.

واقترح هذا العميل أنه ما دام قد عمل سابقًا لصالح الألمان ضد الروس أن يقبل بالتعاون مع الأميركيين. فوافق فنرستروم، وكانت المهمة التي اقترحت عليه متواضعة وهي أنه عندما دعي رسميًا لحضور عرض جوي في موسكو أن يرسل بالبريد أثناء مروره بلنينغراد طردًا يعتقد فنرستروم أنه كان يحتوي على صمامات جهاز راديو.

ويقول فنرستروم إنه مضت سنتان قبل أن يتصل مرة أخرى بالمخابرات الأميركية. وفي هذه المرة حدثه أحد العملاء الأميركيين مطولاً عن أساليب التجسس وخاصة عن أساليب العميل المزدوج، وقد أغرى هذا الموضوع فنرستروم إلى درجة جعلته يقرر أن يصبح هو نفسه عميلاً مزدوجًا على الرغم من أن العميل الأميركي لم يقترح عليه أن ينطلق لهذه المغامرة. وكبداية لذلك عرض هو خدماته على العقيد ريباشنكو الروسي.

نفت السلطات الأميركية بشدة أن يكون فنرستروم قد عمل لحساب مخابراتها، وعدا ذلك فإن قصة الجاسوس لا تقوم على أساس. لماذا اقترح عليه الأميركيون عام ١٩٤٦ مهمة صغيرة كإرسال طرد من لنينغراد سيما وأنهم لم يطلبوا منه شيئًا خلال السنتين التاليتين؟ أما ادعاءه في أنه اندفع في العمالة المزدوجة بدون حافز، ففيه شطط في حسن الظن بالناس. والتفسير الأكثر قبولاً هو أنه استسلم للإغراء الذي أتاح له الحصول بسهولة على الخمسة آلاف كورون، فإنه لم يكن طوال مدة اشتغاله بالتجسس عديم الاكتراث بالمال. وقد يكون له أيضًا حافز آخر. ففي عام ١٩٤٨ عندما كان برتبة مقدم، أبلغ بأنه لن يرفع إلى رتبة قائد اسطول جوي كان يعلل نفسه بها، وعرض عليه بدلاً من ذلك أن يوفد إلى موسكو كملحق جوي.

كان عدم حصوله على رتبة قائد أسطول جوي معناه أنه فقد إلى الأبد أمله في تجاوز رتبة عقيد. فأصيب فنرستروم بخيبة مريرة، ولعله قد وجد متعة في نوع من الانتقام في كل مرة يبيع فيها سرّا عسكريًا سويديًا. ولكن فنرستروم عندما سلم الخريطة المذكورة إلى ريباشنكو قد وافق على الاستمرار بالاتصال بمصالح المخابرات السوفياتية بعد وصوله إلى موسكو، وقد تسلم عمله كملحق جوي في ٢٧ يناير ١٩٤٩ وبقي فيه طيلة ثلاث سنوات.

وقد برهن الروس في معاملتهم لهذا الرجل عن مهارة نفسية فائقة. فاستغلوا الخيبة التي يبديها على الصعيد المسلكي واستثاروا غروره ودعموا في كل مناسبة الفكرة العالمية التي يحملها عن نفسه. أما كيف استغل السوفيات الكولونيل "ستينغ فنرستروم" وجعلوه عميلاً "من الدرجة الأولى" بعد أن فتحوا له رصيدًا غير محدود، ومنحوه لقب "النسر" الاصطلاحي، ورتبة "لواء" التي لم يكن له أي حظ في الحصول عليها في خدمة السويد؟ ففي ما يلي القصّة:

لقد أحسنت الاستخبارت السوفياتية في انتقائها "للمفتاح" الذي دخلت بواسطته إلى إحراز النجاح الكبير في تجنيد فنرستروم لصالح موسكو، بعد أن اكتشفت الثغرة التي تحكم من خلالها قبضتها على جميع ما تحوزه من أسرار.

لقد برهن الروس فعلاً في معاملتهم لهذا الرجل عن مهارة نفسية فائقة عبر استغلالهم الخيبة التي يبديها على الصعيد المسلكي واستثاروا غروره ودعموا في كل مناسبة الفكرة العالمية التي يحملها عن نفسه.

ولم يطل الأمر حتى جعلوا منه عميلاً "من الدرجة الأولى" وفتحوا له رصيدًا غير محدود ومنحوه لقب "النسر" الاصطلاحي ورتبة "لواء" التي لم يكن له أي حظ في الحصول عليها في خدمة السويد.

وعندما تسلم فنرستروم عمله كملحق جوي سويدي في موسكو بتاريخ ٢٧ يناير ١٩٤٩ كانت المخابرات السوفياتية قد تغلغلت في كيانه.

ففي موسكو عهد إلى فنرستروم أن يتصل بضابط من مرتبة الأمراء عرفه باسم "بيوتر بافلوفتش ليمينوف" وتأثر فنرستروم تأثيرًا عظيمًا بليمينوف الذي وصفه السويدي بأنه رجل "ذو مقدرة" تكاد تكون مغناطيسية على استمالة مساعديه إليه.

وعني ليمينوف بفنرستروم عناية خاصة وظل نقطة الاتصال الوحيدة بينه وبين مصالح المخابرات السوفياتية حتى النهاية.

عندما غادر فنرستروم الاتحاد السوفياتي في عام ١٩٥٢ بقي الرجلان على اتصال عن طريق المراسلة، حيث كانت مراسلاتهما فريدة من نوعها في تاريخ الجاسوسية، لأن السويدي يؤكد على أنه كان يكتب إلى ليمينوف عن أخبار عائلته ويحدثه عن جولاته في المجتمع وعن كل همومه وشجونه. كان ليمينوف الرجل الوحيد

الذي يستطيع أن يثق به إلى درجة جعلت العقيد نفسه يعترف بأنه عرف فيه أفضل صديق.

وقد التقط فنرستروم خلال إقامته في موسكو كافة الإيضاحات الممكنة عن الدفاع الجوي البريطاني الذي كان يعتبره الروس أفضل دفاع في العالم. وبفضل اتصالاته بسفارة الولايات المتحدة كما يقول، استطاع أن يقدم للروس بعض المعلومات التي كان الأميركيون يجمعونها عن الأهداف في الأراضي السوفياتية.

وخلال الشهور التي سبقت سفره من موسكو عرف فنرستروم أن منصبه التالي سيكون في واشنطن، حيث لن يعمل كملحق جوي فقط بل سيشترك أيضًا في شراء تجهيزات أميركية للطيران السويدي. وقد سر اللواء ليمينوف سرورًا عظيمًا بذلك حيث كان لديه عدد كبير من مهام معينة ليعهد بها إلى فنرستروم في الولايات المتحدة أهمها الحصول على معلومات تكتيكية عن آخر التطورات الأميركية في ما يتعلق بالطائرات والصواريخ ومصوبات القصف والراديو والرادار والأجهزة الالكترونية الصغيرة.

وعلى الرغم من أن فنرستروم وصل إلى واشنطن في ٨ نيسان ـ أبريل ١٩٥٢ فإنه لم يستقبل زميله السوفياتي اللواء فيكتور كوفينوف إلا في آب ـ أغسطس، حيث زاره في السفارة السويدية وأعطاه كلمة السر وهي "تيكولا فاسيليفيتش يرجوك أن تتذكره"، ثم أعطاه ورقة ذكر فيها مكان لقائهما المقبل.

كان اللواء ككل من جاء بعده من ضباط الارتباط السوفيات الآخرين ينظم اتصالاته، التي كانت تبدو كأنّها مصادفة، مع فنرستروم في حديقة عامة أو في شارع وسط المدينة. وفي كل مرة كان الرجلان يتظاهران بالدهشة لهذه المصادفة ويتصافحان ثم يسيران معًا بضع خطوات. وكان فنرستروم الذي صور كافة الوثائق

التي يريد تسليمها على فيلم مصغر - ميكروفيلم - يسلم لفيفة الفيلم إلى كوفينوف أثناء المصافحة بينهما باليد. وكان يتخذ من سفارة السوفيات أيضًا ميدانًا لعمليات التسليم وذلك خلال الاستقبالات الدبلوماسية الكبيرة. فكان فنرستروم يترك الأفلام في جيب معطفه الخارجي بغرفة المعاطف حيث يأتي كوفينوف لتفريغ هذا الجيب على مهل.

تسلم فنرستروم مبلغ خمسة آلاف دولار، كدفعة أولى... وبلغ متوسط ما دفعه له مستخدموه السوفيات، كما يقول، خلال السنوات الخمس التي قضاها في واشنطن ٧٥٠ دولار شهريًا. وكان يحرص على عدم تبذير المال هنا وهناك. وكانت تودع في حساب مفتوح باسمه في موسكو مبالغ إضافية يمني نفسه بالانتفاع منها حين إحالته على المعاش. ولم يحدد أبدًا الرقم الذي بلغته هذه المدخرات.

بعد القبض على فنرستروم حاولت المخابرات الأميركية أن تعيد بناء مجده الغابر. وتزعم وزارة الخارجية أنها لا تعرف ما هي المعلومات التي نقلها فنرستروم إلى الروس. وصرح روبرت مكنمارا وزير الدفاع أن نشاط الجاسوس السويدي لم يكن ذا شأن في ما يتعلق "بالأسلحة الجارية الاستعمال". ولكنه من الممكن "أن يكون تلقى بعض المعلومات التي تتعلق بتصميم المعدات العسكرية الأميركية"، وهذا أمر كثير الاحتمال لأن السويد كانت تشتري تجهيزات من الولايات المتحدة بمقتضى برنامج المعونة العسكرية، وقد اعتادت وزارة الدفاع الأميركية على أن تثق بالملحقين العسكريين السويديين.

تمثّل سنوات ١٩٥٧ - ١٩٦٣ ذروة النشاط التجسسي الذي قام به فنرستروم. فبعد عودته إلى ستوكهولم عين رئيسًا لقسم القوات الجوية في قيادة الدفاع. وكانت تحال إليه بصورة روتينية في كل يوم كافة أنوع الوثائق السرية: خطط العمليات ومعلومات عن المنشآت والأسلحة الحديثة وأجهزة الدفاع الجوي... وكان مكلفًا عدا ذلك بأن يبلغ

وزير الدفاع عن الصواريخ الموجهة. وقد أتاح له هذا الأمر أن يتوصل إلى الوثائق السرية الواردة من الولايات المتحدة، وربما بسهولة أكثر منها في واشنطن، ورغمًا عن الرقابة فقد أمكن لفنرستروم، بالاستناد إلى محضر وتصريحات الأوساط السويدية الكثيرة الاطلاع، أن يحصل على فكرة عن مدى الأسرار العسكرية المسلمة إلى الروس خلال هذه الفترة. فقد أفشى فنرستروم كل أسرار الدفاع الجوي السويدي، وهو نظام نصف تلقائي يضم الرادار والحسابات الالكترونية التي تسجل طريق وسرعة أي طائرة مهاجمة. كما باع معلومات تتعلق بالمطاردات المضادة من نوع "دريكن ـ ج ـ ٣٥" التي صنعت في السويد، كما زودهم أيضًا بتفصيلات فنية عن "فيغن" الحديثة، هذه الطائرة التي تفوق سرعتها سرعة الصوت ويمكن أن تلعب دور مقاتلة أو قاذفة قنابل أو طائرة استطلاعية والتي كان يجب اعتبارها في النهاية دعامة طيران القتال السويدي.

واعتبارًا من سنة ١٩٥٩ بدأت السويد في الحصول على الصواريخ الأميركية من نوع "سايدوندر"، وهي قذيفة صاروخية تطلق من الجو إلى الجو وتسبق سرعة الصوت وتسلح بها طائرات "ديركن"، وصواريخ "فالكون"، وهي قذيفة صاروخية أكبر حجمًا تطلق من الجو إلى الجو في وصواريخ "هوك"، كما تطلق من الأرض إلى الجو في حالة الدفاع ضد الطائرات المهاجمة التي تطير على ارتفاع منخفض.

واشترى السويديون أيضًا صواريخ بريطانية من نوع "بلود هاوند" وهي قذيفة صاروخية من الأرض إلى الجو على ارتفاع شاهق.

وقد أرسل فنرستروم إلى موسكو معلومات سرية عن كل من هذه الأسلحة، كما زود الروس زيادة على ذلك في كل مرة يستطيعها بمعلومات عن النشاطات التي يقوم

بها حلف الأطلسي مثل تعزيز القوات الأميركية في البحر الأبيض المتوسط إبان أزمة السويس ووضع "الخطة الفورية" لمواجهة التهديد السوفياتي لبرلين الغربية. وفي نهاية ١٩٥٩ علمت مصلحة الأمن السويدي بأن فنرستروم أثار الشكوك بين بعض زملائه بفضوله الجشع حيال وثائق سرية تبدو أنها لا تتعلق قط بعمله. وحصل "اوتو دانيلسون" مدير الأمن العام على إذن بمراقبة محادثات الكولونيل فنرستروم الهاتفية، كما وضعه هو نفسه أيضًا تحت المراقبة بصورة متقطعة.

ولكن فنرستروم كان شديد الحذر جدًا من أن يخاطر بنفسه في محادثة هاتفية، ويبدو أنه كان يتمتع بحاسة سادسة أشعرته بوجود الشرطة. فقد مر دانيلسون ذات يوم وهو يركب سيارة جديدة من طراز مرسيدس بشارع صغير هادئ في الضاحية التي يقيم فيها الجاسوس، وكان هذا الأخير جالسًا في سيارته الخاصة فاستدار بسيارته على الطريق وتبع سيارة الشرطة إذ بدا من الواضح أنه لاحظ أنها سيارة غريبة في هذه الأنحاء.

وكانت الأدلة عن حالة فنرستروم المالية غير قاطعة أيضًا. فقد أنفق زيادة على دخله حوالي ١٧,٥٠٠ كورون في عام ١٩٦٠ وستة آلاف كورون في عام ١٩٦١، ولكنه يحتمل أن والدي زوجته الغنيين كانا يساعدانه ماليًا. وعلى الرغم من أنه لا يمكن توجيه أيّ تهمة إليه فإن الشرطة قد اهتمت اهتمامًا كافيًا لتحول دون تعيينه في منصب يمكنه من التجسس. وكان من المقرر أن يحال على التقاعد في حزيران ـ يونيو ١٩٦١ ولكن كثيرًا ما يتولى الضابط الذي يحال على التقاعد في السويد عملاً مكتبيًا في مؤسسة عسكرية لزيادة معاشه. وقد تقدم فنرستروم في شهر آذار ـ مارس بطلب لتعيينه في عمل تقاعدي في هيئة أركان حرب القوات الجوية، وهو العمل الذي سيشغله بعد حزيران ـ يونيو ١٩٦١ والذي سيساعده للوصول إلى كل الوثائق السرية

المتعلقة بالسلاح الجوي. ولكن وزارة الدفاع رفضت تعيينه في هذا المنصب بناء على عدم موافقة الأمن العام.

وقد وجد في النهاية عملاً في وزارة الخارجية وعين فيها كمستشار لشؤون نزع السلاح للإشتراك في الأعمال التحضيرية لمؤتمر نزع السلاح في جنيف، لأن المحاذير أقل لهذا المنصب بالنسبة لرجل تحوم حوله بعض الشكوك.

كان هذا القرار هو الأول في سلسلة من الأخطاء الجسيمة التي ارتكبتها الإدارة. وقد أُبلغ وزير الخارجية السويدية "أوستن أوندن" بالشكوك التي تحيط بفنرستروم. ولكن الشرطة خوفًا من تسرب شيء من هذا الموضوع رفضت أن يذكر ذلك لأي شخص آخر في وزارة الخارجية، فلم يعد إذن من الممكن مراقبة فنرستروم في عمله الجديد.

ما كاد فنرستروم يستقر في هذا العمل حتى بدأ يقوم بزيارة زملائه القدامى في السلاح الجوي ويسألهم عن معلومات سرية. وكان يشرح لهم أنه يحتاج إليها للإستعانة بها في عمله كخبير في شؤون نزع السلاح. وكان يحصل غالبًا على المعلومات التي يريدها. وفي حزيران - يوليو ١٩٦٢ بذلت أخيرًا محاولة لتحديد اطلاع فنرستروم على الوثائق السرية بحيث ينبغي أن يمر في المستقبل كل طلب من هذا النوع عن طريق رئيس مصلحة المخابرات العقيد "بوفستين"، ولكن هنا حدثت فوضى جديدة إذ إن أحدًا لم يبلغ هذا الأمر إلى مصلحة النشر والمطبوعات في الدفاع الوطني حيث دأب فنرستروم على جمع المعلومات السرية بحرية تامة.

ومع ذلك لم يكن لدى الشرطة أي دليل قوي ضده. كان لديه جهاز لاسلكي ذو موجات قصيرة. غير أن ابنة فنرستروم الصغرى أبلغت ذلك للشرطة بصورة عفوية

عندما ذكرت في محادثة هاتفية أن والدها يملك أغرب جهاز راديو في العالم، لا يستقبل إلا الاتحاد السوفياتي فقط.

وكان يمكن للشرطة أن تحصل على مذكرة بتفتيش منزله، ولكنها كانت تخشى ألا تكتشف شيئًا فتضيع القضية كلها. ولذا عمل دانيلسون وزملاؤه في أيّار - مايو ١٩٦٣ على الاتصال مع السيدة "كارين روزين" وهي خادمة تعتني بتدبير منزل أسرة فنرستروم لتشغيلها كمخبرة سرية. فقبلت أن تتعاون معهم بكل طيبة خاطر. ولو سبق للشرطة أن استعانت بها لأمكنها الظفر قبل ذلك بعام.

لقد ساورت الشكوك منذ وقت طويل، هذه السيدة الهادئة، وهي امرأة في الخمسين من عمرها، بسبب التجهيزات الغربية التي يمتلكها، وهي حامل كبير تتدلى فوقه صمامات كهربائية وجهاز تصوير، افترضت بحق أنه يستخدم في تصوير وثائق، وصندوق حديدي مخبأ خلف ستارة في حجرة المخرن، وجهاز راديو لم تر مثله في حياتها مثبت داخل مكتبه. وأوضحت السيدة أن الكولونيل فنرستروم كان يحتبس نفسه بعد أن يقفل عليه بالمفتاح ساعات طويلة للتصوير في الحجرة.

وبعد ذلك بشهر تقريبًا اتصلت السيدة روزين في صباح أحد الأيام بالشرطة هاتفيًا لتخبرها بأنها عثرت على رزمتين غريبتين تحت نشارة من الخشب في غرفة المؤونة العلوية حيث اكتشفت فيهما لفائف من الأفلام. وأخيرًا حصلت الشرطة على الدلائل التي تساعدها على التدخل. وفي اليوم الثاني كان فنرستروم قد أوقف.

حدث الأمر في حينه إذ إن الكولونيل الجاسوس كان يتهيأ للهرب من البلاد، وقد أنذره حادث طفيف وقع أثناء حفلة استقبال في السفارة البريطانية. فقد اقترب فنرستروم ببشاشة من اللواء "نورستن راب" القائد العام للقوات السويدية المسلحة الذي

يعرفه منذ وقت طويل، ولكن "راب" عبس في وجهه... وخاف فنرستروم فجأة من أن يكون اللواء قد شك بأمره. ولم يخطئ ظنه بذلك.

بعد القبض عليه، زعم الكولونيل فنرستروم في البداية أنه عضو في جمعية سرية تعارض النظام الحاضر في الاتحاد السوفياتي. ثمّ أكد على أنه كان يتجسس ضد الولايات المتحدة وليس ضد السويد. ولما لم تنجح هذه المزاعم انتقل إلى الاعترافات. وخلال الأشهر الأربعة الأولى من التحقيق معه ظل يتظاهر بموقف مليء بالوقار.

ولكن هذا الموقف ما لبث أن انهار في شهر تشرين الأوّل ـ أكتوبر عندما حاول أن ينتحر بابتلاع جرعة مميتة من الحبوب المنومة. ولو أنه نجح في ذلك لحصلت زوجته على معاش لأنه لم يكن قد أدين بعد، وقد أثبت الفحص النفسي أنه سليم العقل تمامًا رغم انهياره العصبي. وبعد عدة أسابيع من العلاج النفسي السريع استعاد توازنه واستأنفت الشرطة التحقيق معه وقام معظم التحقيق بصورة عامة على عرض الوثائق السرية على المتهم وسؤاله عما إذا كان قد نقلها إلى الاتحاد السوفياتي. وفنرستروم لم يطلب الرحمة من المحكمة. وقال في لهجة لا تخلو من بعض الزهو والصلف: "إن نشاطي كان جزءًا من الجاسوسية العالمية التي تقوم بين الدول الكبرى والذي هو نفسه عامل من عوامل الحرب الباردة" ثم أعلن قائلاً: "إنني على استعداد لتحمل النتائج القضائية لأعمالي".

وكان من الممكن أن تكون هذه النتائج أشد سوءًا في بعض البلاد الأخرى. ولكن في السويد البلد الانساني فإن الحكم بالسجن المؤبد الذي صدر بحقه يعني الإفراج عنه بعد عشر سنوات أو اثنتي عشرة سنة من سجنه إذا سلك سلوكًا حسنًا. ومع ذلك فقد أعلن اللواء راب بأنه ينبغي صرف ٢٩٥ مليون كورون لإصلاح الضرر الذي ألحقه بنظام البلاد الدفاعي.

ويقول "إيروين روس" بهذا الصدد: كنت في ستوكهولم في تمّوز ـ يوليو ١٩٦٤ بعد شهر من صدور الحكم عليه. وكانت الأوساط الحكومية لا تزال بعد تحت وطأة هذه القضية. وكان أقوى عتاب يمكن توجيهه إلى المسؤولين أنهم عينوا فنرستروم في وزارة الخارجية على الرغم من الشكوك التي كانت لا تزال تثار حوله عندما كان في وزارة الدفاع. وهناك أمر لا يمكن تفسيره مطلقًا وهو أن نعتقد بأننا مجبرون على الاحتفاظ به بعد إحالته على المعاش في وظائف رسمية جسمية المسؤوليات كهذه. والأمر الوحيد الذي يمكن تفسيره أن قليلاً جدًا من الموظفين كانوا يؤيدون الشكوك التي ثارت حوله.

وفي رأيهم أن العقيد كان زميلاً جديرًا بالاحترام فكيف يمكن لهم أن يصدقوا أن جنديًا قضى حياة حفلت كلها بخدمات رفيعة يمكن أن يخون بلاده؟

ومن الواضح أن الحكومة السويدية قد عالجت هذه القضية على أعلى صعيدها الرسمي بعدم اكتراث يصعب فهمه. ففي مطلع نيسان ـ ابريل ١٩٦٢ بعد أربعة عشر شهرًا تقريبًا من القبض على فنرستروم، جرى الاتفاق مع وزير العدل بأن يطلع المدعي العام "فيرنر راينجر" رئيس الوزراء السويدي "تاغ إيرلاندر" على القضية. ولكن راينجر أصيب بمرض وتأجلت المقابلة إلى ١٣ نيسان ـ ابريل.

وفي هذا اليوم انشغل رئيس الوزراء إلى حد حال دون استقبال المدعي العام ولم يحاول أحد أن يعيد التجربة فيثير قضية فنرستروم مرة أخرى.

وبعد قليل من توقيف الكولونيل اضطر رئيس الوزراء إلى أن يصرح: يا للأسف إنني لم أتلق أبدًا ما يوحي بأن الأمر يتعلق بقضية هامة جدًا[١]...

---

١ ـ هاتون برنار، مدرسة الجواسيس، ترجمة غسّان درويش، المؤسّسة الوطنيّة للنشر (بيروت،١٩٦٣) ص٢٠٧ - ٢٢٠.

التزوير لتمويل أعمال التجسس

كان مشروع الخطة الخمسية الأولى لجهاز "التشيكا" والذي نفذ في عام ١٩٢٩ يحتاج إلى أموال لتغطية المشتريات الخارجية التي تدفع قيمتها بالعملات الأجنبية أو بالذهب، وكانت "التشيكا" تعاني من أزمة مادية ومن العجز في توفير الأجور التي تدفع لعملائها بالخارج، ولهذا فقد أُعد مشروع للحصول على المال اللازم بواسطة تزييف العملات الأجنبية، وقد وضع المشروع خبير من القسم الاقتصادي في "التشيكا"، وحصل المشروع على موافقة "ستالين"، وبدأ القسم الاقتصادي بإنتاج أوراق نقد من فئة مائة دولار أجيدت صناعة تزييفها إلى حد يكاد لا يختلف عن العملة الأصلية...

عُهد إلى عناصر "التشيكا" في ألمانيا بتنظيم عمليات توزيع الدولارات المزيّفة، وقد استُخدم في ذلك شيوعيّ في برلين افتتح مكتبًا للاستيراد والتصدير، واعطى نفسه اسمًا حركيًّا، كما ادعى أنّه من النمسا، ويشتغل بالمضاربات في البورصة. ولم يجد صعوبة في تنفيذ الخطة، فقام بشراء بنك "ساسي ومارتيني"، وتسلّم العملات الزائفة التي تولى بنك "ساسي ومارتيني" إيداعها في "دويتش بنك".

إستطاع بنك "فيدرال ريزرف" في نيويورك اكتشاف التزييف في نهاية عام ١٩٢٩، بعد أن أمضى شهورًا طويلة في البحث عن مصدر توزيع الدولارات المزيفة وهو "بنك ساسي ومارتيني". في ذلك الوقت، اختفى صاحب "بنك ساسي ومارتيني" وموظفوه وكانوا جميعًا من أعضاء شبكة الجاسوسية في برلين، وقد صادفت هذه

العملية نجاحًا باهرًا حيث ظلت الأوراق المالية الزائفة متداولة خلال سنة ١٩٣٠، ويعتقد أن حوالي عشرة ملايين من الدولارات الزائفة قد تم استبدالها بعملات صحيحة، وأخذت المخابرات الروسية تروج هذه العملات الزائفة في مناسبات عديدة.

المخابرات السوفياتية تستولي على ذهب إسبانيا

في الثاني والعشرين من شهر تشرين الأول ـ أكتوبر ١٩٣٦، قامت المخابرات السوفياتية بأخطر عملية من نوعها في تاريخ السيطرة على الذهب، بعد أن نفذت بإشراف ستالين نفسه أكبر عملية استيلاء على كنوز إسبانيا ونقلها إلى موسكو.

يُعتبر الجنرال "الكسندر أورلوف" أول الهاربين إلى الولايات المتحدة الأميركية بعد أن شغل رئاسة قسم مكافحة الجاسوسية في المخابرات السوفياتية. وهو الذي أشرف مباشرة على عملية الاستيلاء على الذهب الإسباني ونقله إلى موسكو فيقول:

توجهنا مساء ٢٢ تشرين الأول ـ أكتوبر ١٩٣٦ بالسيارة إلى "قرطاجة"، وهي ميناء على الساحل الجنوبي الشرقي لإسبانيا، وقد جلس بجانبي نائب وزير المالية الإسباني وهو غير قادر على إخفاء عصبيته، بينما سار وارءنا طابور يضم ٢٠ سيارة نقل حمولة كل منها خمسة أطنان. وكانت وجهتنا إلى التلال التي تبعد خمسة أميال عن قرطاجة حيث يوجد مستودع الذخائر للبحرية الإسبانية. ولكننا كنا نسعى إلى شيء أهم من البارود والقنابل.

كان الليل قد أرخى سدوله عندما توقفت قافلتنا. ولم ألحظ إلا بعد نزولنا من السيارة تلك الأبواب الخشبية الثقيلة التي تدعمها قضبان حديدية، وقد أقيمت في

مواجهة سفح التل. وقد قام على حراستها بعض العسكريين، ولما تأكد الحارس من هويتنا جذب مزلاجًا ضخمًا ففتح باب مزدوج على مصراعيه، ورأينا أمامنا كهفًا فسيحًا مضاء بالمصابيح الكهربائية المموهة. وفي الداخل وقف ٦٠ بحارًا إسبانيًا بانتظار أوامرنا، بينما تكدست أمام الجدران ألوف الصناديق الخشبية الجديدة. وكان في هذه الصناديق سبائك وعملات تقدر بمئات الملايين من الجنيهات، هي كنز أمة جمعته عبر القرون. وهذا هو الشيء الذي جئت من أجله، وكانت مهمتي نقله إلى موسكو. حدث هذا في الأشهر الأولى للحرب الأهلية الإسبانية. وكنت قد أمضيت عشرة أيام أقوم بتنظيم "عملية نقل الذهب"، بعد أن قرر عدد من الزعماء الجمهوريين الإسبان إيداع هذا الكنز في مكان أمين لدى "جوزف ستالين" خوفًا من أن يقع بين يدي الجنرال فرانكو وقواته الوطنية المتقدمة في حينه باتجاه مدريد.

كان نقل الجزء الأكبر من الذهب، المقدرة قيمته بـ ٦٠٠ مليون دولار، موضوع شائعات أو افتراضات منذ ثلاثين سنة، ولم يبقَ من الرجال الذين اشتركوا في العملية سوى اثنين: أنا، "الجنرال ألكسندر أورلوف"، والآخر إسباني وهو الدكتور "جوان نجران" وزير المالية الإسباني في حينه.

كنت قد وصلت إلى مدريد في ١٦ أيلول ـ سبتمبر ١٩٣٦ بعد شهرين من اندلاع الحرب الأهلية لكي أرأس بعثة سوفياتية كبيرة من المخابرات تضم خبراء مختلفين. ولما كنت جنرالاً في إدارة المخابرات السوفياتية فقد كنت بطبيعة الحال كبير المستشارين السوفيات لدى الحكومة الجمهورية لشؤون المخابرات ومكافحة التجسس وحرب العصابات، وهو منصب عليّ توليه لمدة عامين. وكنت كغيري من الروس في إسبانيا أؤيد قضية الجمهوريين بكل إخلاص.

أقمنا مكتبًا لعملنا في الطابق الأعلى من السفارة السوفياتية في مدريد، وتحت تصرفنا جهاز لاسلكي قوي. وكنت قد أمضيت هناك أقل من شهر عندما أقبل كاتب الشيفرة الذي يعمل معي إلى مكتبي، وتحت إبطه كتاب الشيفرة وبين يديه رسالة برقية قال عنها: إنها وصلت الآن من موسكو وهي بعنوان "سري للغاية"، وباسم "شويد"، أي إسمي الحركي لدى المخابرات السوفياتية.

قمت فورًا بفك رموز الرسالة التي كانت عبارة عن ملاحظة استهلالية من الجنرال "نيكولاي إيغوف" رئيس إدارة المخابرات السوفياتية، ثم جاء بالبرقية ما يلي: "رتب مع لارجوكا باليرو رئيس الوزراء، شحن احتياطي الذهب الإسباني إلى الإتحاد السوفياتي... إستخدم سفينة سوفياتية... حافظ على أقصى قدر من السرية. إذا طالب الإسبان بإيصال فارفض - أكرر - أرفض. قل أن إيصالاً رسميًا سيصدر في موسكو عن بنك الدولة، إنني أعتبرك مسؤولاً شخصيًا عن العملية"... التوقيع: "إيفان فاسيليفتش"، وهو الإسم الحركي لستالين بالذات...

الواقع أن فكرة "حماية" الذهب من الوقوع في أيدي الوطنيين بإرساله إلى روسيا قد وضعها أصلاً الزعماء الجمهوريون المنزعجون أنفسهم حيث كان الوطنيون بقيادة الجنرال فرانكو يضيّقون الخناق حول مدريد، وبدا سقوط المدينة وشيكًا. وصدر مرسوم "سري" في ١٣ أيلول - سبتمبر، وقعه الرئيس "مانوريل ازانا" ووزير المالية الدكتور "جوان نجران" بنقل الذهب والفضة من خزائن بنك إسبانيا. وقد منح هذا المرسوم وزير المالية سلطة نقل المعادن الثمينة من مدريد إلى المكان الذي يكفل في رأيه أفضل قدر من الأمن. ونص هذا المرسوم على أن عملية النقل سوف تعرض على "الكوريتز" أي البرلمان الاسباني للتصديق عليها ولكن هذا لم يحدث مطلقًا.

مهما كان أمر شرعية المرسوم، فإنه بلا شك لم يكن يتوقع شحن هذا الكنز خارج البلاد. ولكن بعد أن تدهور الموقف العسكري وسّع "جوان نجران" سلطته بدافع اليأس وقام بجس نبض الملحق التجاري السوفياتي حول اختزان الذهب في روسيا، وذلك بعلم رئيس الجمهورية ورئيس الوزراء فقط. وأبرق إلى موسكو فأسرع ستالين إلى انتهاز الفرصة.

ويتابع الجنرال الكسندر أورلوف روايته بالقول:

بعد مرور يومين على وصول برقية ستالين إليّ، قمت بالتباحث مع "جوان نجران" في مبنى سفارتنا. كان وزير المالية الإسباني، وهو استاذ فيزيولوجيا، الوافد حديثًا إلى مقاعد الحكم، نموذجًا صادقًا للشخص المثقف الذي يعارض الشيوعية من الناحية النظرية. إلا أنه يعطف بصورة مبهمة على "التجربة العظمى" التي تجري في الاتحاد السوفياتي. وهذه السذاجة السياسية تساعد على تفسير الدافع الذي جعله يسمح بتصدير كنز بلاده إلى تلك البلاد. هذا فضلاً عن أن هتلر وموسوليني كانا يساعدان الوطنيين، بينما وقفت الدول الديمقراطية بعيدًا. أما روسيا فكانت حليفًا للجموهريين، وهي الدولة الوحيدة الكبرى التي كانت تساندهم. وسألته أين يوجد الذهب الآن؟ فأجاب وزير المالية: في قرطاجة، في أحد الكهوف القديمة التي يستخدمها الأسطول لخزن الذخائر. وقلت في نفسي: لقد ساعد الحظ ستالين مرة ثانية، وقد أصبحت مشكلتي بسيطة جدًا بوجود الشحنة في قرطاجة. فذلك الميناء الفسيح هو الذي تقوم سفننا السوفياتية بإنزال الأسلحة والذخائر فيه. وهكذا لا توجد فيه السفن فحسب بل والأشخاص السوفيات الذين نثق بهم أيضًا.

وكان لا بد من الإفضاء بالسر إلى مسؤول إسباني آخر هو "أنداليشيو برتيو" وزير البحرية والطيران، فإننا سنحتاج إلى سفنه الحربية لحراسة الشحنة عبر البحر

المتوسط إلى أوديسا على البحر الأسود. وعندما استُشير في ذلك "وافق على إصدار الأوامر اللازمة".

كانت السرعة ضرورية جدًا لأن أيّ إشاعة كفيلة بجعل إيطاليا وألمانيا تعترضان سفننا. والأكثر أهمية من ذلك أن أعصاب الشعب الإسباني كانت في حالة كفيلة بإلغاء العملية بأسرها في ما لو تسرّب أي نبأ عن إرسال كنز الأمة الإسبانية إلى الخارج...

بناء على تعليمات "جوان نجران"، قدّم لي أحد كبار موظفي وزارة الخزانة تفاصيل الذهب وتخزينه فقال: إن هناك حوالي عشرة آلاف صندوق حجم كل منها ١٨x٤٨x٣٠ سم يحوي كل منها على ٦٥ كيلوغرامًا من الذهب ومجموعها حوالي ٧٢٥ طنًا.

في اليوم التالي، ذهبت إلى قرطاجة بالسيارة، يضيف الجنرال أورلوف، وكان ملحقنا البحري قد سبقني إلى هناك وهو صديقي القديم "نيقولا كوزنتسوف" (الذي أصبح خلال الحرب العالمية الثانية وزيرًا للبحرية السوفياتية) وأمرته أن يجند كل السفن السوفياتية التي تصل إلى قرطاجة وأن يتم إفراغها بأقصى سرعة ويضعها تحت تصرفي. وكانت هناك سفينة شحن روسية في الميناء ومن المتوقع وصول سفن أخرى. كما أعطيت الأوامر إلى القائد الإسباني فوضع تحت تصرفنا ٦٠ بحارًا. والتفتّ بعد ذلك إلى مشكلة نقل الذهب من الكهف إلى أرصفة الميناء. كان هناك لواء دبابات سوفياتي قد نزل في قرطاجة قبل أسبوعين للوقوف بجانب الجمهوريين ضد هجمات الجنرال فرانكو بعد أن وضعت للدبابات أرقام إسبانية، وهو يعسكر الآن في "أرتينا" على مسافة ٦٠ كيلو مترًا، ويقوده الكولونيل "كويفوشين" الذي عرفه الإسبان باسم "هيليه". وقد خصص كويفوشين لي ٢٠ سيارة نقل عسكرية من التي لديه ويقودها أفضل سائقي الدبابات السوفيات.

أخيرًا أصبح كل شيء على استعداد، وكانت السيارات تقف في سكة الحديد في قرطاجة بقيادة الجنود السوفيات الذين ارتدوا ملابس الجنود الجمهوريين الإسبان. وأرسلنا البحارة الإسبان قبل ذلك بساعتين إلى الكهف بينما كانت سفن سوفياتية بملاحيها وحتى الطهاة في حالة تأهب توقعًا لعدة ليال من عمليات شحن هامة.

كان البحارة الإسبان الستون من بحارة الغواصات وأجسامهم نحيلة. وكان نقل كل صندوق إلى السيارات يتطلب تعاون اثنين منهم، ولتسهيل العد جعلنا حمولة كل سيارة خمسين صندوقًا فقط. وكنت أرسل كل عشر سيارات إلى الميناء بعد أن يتم شحنها. فإذا عادت بعد ساعتين تكون السيارات العشر الأخرى قد استعدت للرحيل مع ٥٠٠ صندوق أخرى. وكنت أتقدم كل قافلة بسيارتي ومعي أحد ضباط المخابرات السوفياتية ومندوب من وزارة المالية الإسبانية. واستمرت عملية الشحن ثلاث ليال من السابعة مساء وحتى الصباح. وكانت تلك الليالي حالكة الظلام لا قمر فيها، وقد أظلمت الدنيا تمامًا ولم يكن باستطاعتنا استخدام أنوار السيارات. وكان السائق لا يرى السيارة التي أمامه أحيانًا فيتيه عن الطريق ويختل الطابور. وقد ساورني الرعب عدة مرات لهذا السبب. إذ إن رجال الدبابات الروس الذين يرتدون الزي العسكري الإسباني لم يكونوا يلمون بكلمة واحدة إسبانية. فماذا يحدث لو احتجزت أحدهم دورية عسكرية من البوليس الحربي الإسباني، واعتقدت أنهم "جواسيس"؟ ومن المعروف أن قضاء ومحاكمة الحرب يكونان من السرعة بحيث لا نستطيع تلافي أي تهوّر. بل ماذا لو فتشت "الشرطة العسكرية" إحدى هذه السيارات؟ إن نبأ رحيل بعض الأجانب بشحنات من الذهب سوف يشعل نيران أعمال عنف سياسية لا حصر لها. كما كان ثمة خطر يتمثل في حدوث غارة ألمانيّة. لقد كانت الكهوف ملأى بالمتفجرات وأيّ إصابة مباشرة يمكن أن تكون فيها نهايتنا جميعًا أو ربما غرق سفننا في الميناء.

كان الحظ في ركابنا حتى الليلة الثالثة والأخيرة. وحوالي الساعة الرابعة صباحًا راحت القاذفات الألمانية تمر من فوق سلسلة التلال المنخفضة وكان في استطاعتنا، ونحن في الكهف، أن نسمع صوت القنابل وهي تصيب أرصفة الميناء. وعلمت من أحد السائقين العائدين أن الألمان أصابوا سفينة شحن سوفياتية كانت تقف بالقرب من سفننا. وقررت أن أنهي العملية وأرسل سفني إلى خارج الميناء بأسرع ما يمكن. وعندما أرسلت آخر سيارة في تلك الليلة سألت موظف المالية المشرف على العملية عن رقمه الأخير فقال: لقد نقلنا حتى الآن ٧,٨٠٠ صندوق أي ثلاثة أرباع الذهب. وفي العاشرة من صباح ٢٥ تشرين الأول - أكتوبر وضع آخر صندوق على ظهر آخر سفينة، وحلت اللحظة الحرجة التي لا مناص منها عندما طالبني الموظف الإسباني بإيصال عما استلمته، فتحاشيت عينَي الموظف الحمراوين وحاولت أن أبدو غير مكترث وقلت ببرود: "إيصال؟ ولكني أيها الرفيق لست مفوّضًا لإعطاء إيصال. لا تقلق يا صديقي فسوف يصدر الإيصال من بنك الدولة في الاتحاد السوفياتي عندما يتم استلام ووزن وفحص كل شيء هناك في موسكو".

وفغر الرجل فاهه دهشة وقد أصابه الذهول. ولم يستطع أن ينطق إلا بكلمات مبهمة غير متماسكة، أي أنه لم يفهم جوابي. فالأمر قد يعني حياته في هذه الأحوال. وشعرت أنه يود الاتصال بمدريد. ولكني لم أرد قطعًا أن أجعله ينشر الذعر بواسطة الحديث التلفوني. فاقترحت عليه أن يرسل عوضًا عن الاتصال مندوبًا عن وزارته في كل سفينة كمرافقين رسميين للذهب. ولم يكن هذا التساهل يعني شيئًا في ضوء هذا المنطق البارد. ولكن الرجل الشارد اللب وافق عليه. وبعد ساعتين أقلعت السفينة. واستطعت أن أبعث تقريرًا إلى موسكو بأن الشحنة الثمينة في طريقها إلى أوديسا. كما استطعت في النهاية أن أعرف النهاية السوفياتية للعملية وذلك من كبار موظفي

المخابرات الذين كانوا يروحون ويجيئون بين روسيا وإسبانيا. وقد تقاطر على أوديسا عدد كبير من كبار ضباط المخابرات السوفياتية من موسكو وكييف. وظلوا هناك عدة أيام يشرفون على تفريغ الذهب ومن ثم حمله إلى قطار خاص. وقد أحيطت مساحة كبيرة من الميناء حتى خطوط السكك الحديدية بقوات خاصة. وعندما رحل القطار إلى موسكو صحبه المئات من الضباط المسلحين. وأقام ستالين مأدبة فاخرة لكبار ضباط مخابراته احتفالاً بهذه الضربة وذلك في الليلة التالية لوصول الذهب إلى موسكو. وكان جميع أعضاء المكتب السياسي للحزب الشيوعي حاضرين، بينما ظهر ستالين في حالة معنوية عالية.

لقد ذكر أريجوف مدير المخابرات السوفياتية لأحد أصدقائي: "إن الإسبان لن يروا ذهبهم مرة أخرى إلا بعد أن يروا آذانهم". وفي خلال الواحد والعشرين شهرًا التي مضت على عملية الذهب وفراري من الاتحاد السوفياتي إلى أميركا كنت على صلة مستمرة بالزعماء الجمهوريين الإسبانيين. ولكن الأمر ظل سرًا مؤلمًا بيننا لا يتحدث عنه أحد. وكنت واثقًا من أن عملهم بدأ يبدو أمامهم باعتباره غلطة كبرى. وكانت المرة الوحيدة التي ذكرت فيها هذه المسألة في خلال حديث مع "نجران" وزير الخزانة الذي كان قد أصبح رئيسًا للوزراء، فقد سألني: أتذكر هؤلاء الأربعة الذين وضعوا على سفنكم؟ إنهم ما زالوا في روسيا بالرغم من أكثر من عام... إنني أتسائل لماذا لا يسمح لهؤلاء المساكين بالعودة إلى وطنهم؟

إكتشفت في ما بعد أن الجنرال فرانكو قد علم بنبأ الذهب "الضائع" بمجرد استيلائه على مدريد. ولكن حكومته لم تذكر شيئًا عنه لمدة ١٨ عامًا تقريبًا. فالعملة الإسبانية ضعيفة فعلاً وسوف تنهار بكل تأكيد اذا عرف بأن الخزائن الوطنية خالية تمامًا. وقد تحطم الصمت الرسمي في كانون الأول - ديسمبر ١٩٥٦ بعد موت الدكتور "جوان

نجران"، فقد أكدت وزارة الخارجية الاسبانية على أنها وجدت أخيرًا بين أوراقه الخاصة إيصالاً رسميًا عن ذهب مودع لدى الاتحاد السوفياتي.

بعد بضعة أشهر، اعترف مقال نشر في صحيفة "برافدا" بعبارات ساخرة بأن حوالي ٥٠٠ طن من الذهب الإسباني وصلت فعلاً إلى موسكو عام ١٩٣٦، وأن الحكومة السوفياتية قدمت إيصالاً عنها. ومضت الصحيفة تقول: إن هذا الذهب كان لضمان سداد قيمة الطائرات والأسلحة والذخيرة وغيرها من السلع السوفياتية التي قدمت للجمهوريين في إسبانيا[١]...

١ ـ زهر الدين د صالح، ملف الاستخبارات السوفياتيّة، ص١٤٧ ـ ١٥٤.

"الرفيقان" سوشاتزكي وبتروفسكي

عجزت "التشيكا" لسنوات عديدة عن اكتشاف أكبر عملية اختراق تعرضت لها بواسطة الشيوعي البولندي المشهور "سوشاتزكي" والذي كان يعمل لصالح هيئة أركان الحرب البولندية العامة والبوليس السري، واستطاع أن يندس في وسط جهاز "التشيكا"، الذي كان يتقلد عدد من البولنديين مواقع قيادية فيه، حيث أنه استطاع بعد الحرب الروسية البولندية التي وقعت عام ١٩٢٠ أن يتظاهر بوصفه من زعماء الحركة السرية للشيوعيين البولنديين، حيث دبرت عملية القبض عليه وحبسه عدة مرات لترسيخ الاعتقاد بأنه من الشيوعيين الذين يمثلون تهديدًا للحكومة البولندية، وليساعده هذا التصرف على اقترابه من موسكو وقيادات "التشيكا"، وقد ساهم في اعتقال وتسليم عشرات من زملائه في الحزب الشيوعي البولندي إلى سلطات الشرطة، وعندما بلعت موسكو الطعم وأدركت بأن حياته محفوفة بالخطر في وارسو، تم استدعاؤه إلى موسكو ليكون واحدًا من أكبر عملاء "التشيكا"، وظلّ عشر سنوات يطّلع على أدق أسرار المخابرات السوفياتية حتى تم انكشاف أمره بالصدفة عام ١٩٣٢ بفضل يقظة عامل صغير من عملاء "التشيكا" اقتفى أثره وتمكن من أن يدرك شخصيته.

أثار اكتشاف خيانة "الرفيق سوشاتزكي" وإعدامه رميًا بالرصاص في مقر "التشيكا" ضجّة كبرى، وكان من الأسباب التي أدت إلى تنحية كبار الرؤوساء البولنديين وإلى عزل كثير من كبار الموظفين ورؤوساء الأقسام الذين هم من أصل

بولندي، وقد تم تنفيذ الحكم بالموت على معظم هؤلاء البولنديين في التطهيرات الواسعة التي أجراها "جوزيف ستالين" في عامي ١٩٣٦، ١٩٣٧ على كل من عجز عن تبرئة نفسه من حادثة اختراق "سوشاتزكي" لجهاز "التشيكا".

ومن أمثلة الاخفاق وحالات الفشل التي منيت بها المخابرات السوفياتية ما لقيته على يد رئيس القسم البريطاني في الكومنترن في أواخر العقد الرابع من القرن العشرين، والذي استطاع تجنيد عميل "التشيكا" بتروفسكي وعهد إليه بمراقبة شبكات التجسس البريطانية، والجدير بالذكر أن الخطأ الرئيسي هو في الكيفية التي انضم بها "للتشيكا" حيث أنها ولمدة خمسة عشر عامًا لم تستطع أن تكشف عن سره بأنه كان واحدًا من قياديّي "الجيش الأبيض" الذي حارب الثورة البلشفية في أوكرانيا وقام في عامي ١٩١٨ ـ ١٩١٩ بشنق عشرات من زعماء البلاشفة وقواد الجيش الأحمر الذين كان يُلقى القبض عليهم، ومن ثمّ هرب إلى أوروبا ثم عاد إلى موسكو وهو يحمل أوراقًا مزيفة ومتقنة التزوير تدل على أنه كان مقاتلاً ثوريًا في أوكرانيا، وعين في "التشيكا"، وارتقى سريعًا لمواقع قيادته، وعندما تم اكتشاف أمره أعدم رميًا بالرصاص دون محاكمة[١].

---

١ ـ عابدين، المخابرات والأمن والجاسوسيّة، ص٢٤٦ ـ ٢٤٧.

الجاسوس الذي انتحر في زنزانته

تسلل إلى إنكلترا عام ١٩٥٢ عميل المخابرات الروسية "مارك بويسوفتش زاغورسكي" والمصنف على أنه "صالح للمهمات الخاصة" بعد تدريب سبع سنوات على أعمال المخابرات، وكان ملفه يحمل ملاحظة "أكثر العملاء تبشيرًا بالخير"، وكانت مهمته أن ينشئ جهازًا من ضباط الاتصال والمخبرين ومستلمي البريد ليكون عملهم تزويد موسكو بالمعلومات الهامة، وقد قام ببناء شبكة جاسوسية من بعض المواطنين البريطانيين الذين قبلوا التعامل معه بعد أن سلك معهم أسلوب استغلال احتياجاتهم المالية وتوقيعهم على إيصالات استلام أموال يهددهم بها إذا رفضوا التعاون معه.

وقد وصلت معلومات من الخارج لجهاز MI-5 البريطاني بأن جاسوسًا روسيًا قد دخل بريطانيا سرًا عام ١٩٥٢ تحت اسم "كولين وود"، وأدت تحريات الشرطة إلى أن أوصافه تنطبق على "جفري نوبل"، وبعد مداهمة شقته وجدوا أنّ لديه أربع جوازات سفر بريطانية مزورة، ولم يجدوا أي معدات للتجسس أو قوائم بالجواسيس، وتم اعتقاله حيث رفض الإدلاء بأي اعتراف. ووجد مشنوقًا في زنزانته بعد اثني عشر ساعة من اعتقاله. وبعد انتحاره تفرق الجواسيس الذين كانوا يعملون معه وخسرتهم المخابرات الروسية[1].

---

١ ـ عابدين، المخابرات والأمن والجاسوسيّة، ص٢٤٩.

عَميل الـ KGB الأميركيّ الحَاقد

الأميركيّ "روبرت لي جونسون" كان يحمل رتبة سرجنت في الجيش الأميركيّ المرابط في برلين. وقد تجاوزه رؤساؤه في ترقية استحقّها فضاعت منه الترقية لأنّ رؤساءه لم يرشّحوه لها، بعد ذلك تأثّر روبرت من عدم ترقيته فأصبح يمثّل أسوأ مظاهر الجنديّة بتناوله المسكرات ليصبح أيضًا فظًّا ومقامرًا.

قرّر جونسون بينه وبين نفسه أنّ أفضل طريقة للانتقام هي أن يخون وطنه بأن يتقدّم طائعًا إلى السفارة السوفياتيّة في واشنطن بطرق ملتوية تهرّبًا من مراقبة المخابرات الأميركيّة للسفارة السوفياتيّة، لدى أوّل زيارة له للعاصمة الأميركيّة. وبالفعل، فقد أقدم جونسون على ذلك، غير أنّ ضبّاط الـ KGB الذين قابلوه، استطاعوا أن يقنعوه بأنّ طلب اللجوء السياسيّ غير وارد قبوله من قبل السوفيات لأنّ عدم ترقيته في الجيش الأميركيّ لا يعني أنّه مضطهد سياسيًّا، وطلبوا إليه البقاء في الجيش الأميركيّ ليثأر من الأفعال الجائرة التي لحقت به، بالتجسّس لحساب الـ KGB لقاء ٣٠٠ دولار شهريًّا، تكفيه لمضاعفة إدمانه الخمر ولعبه القمار على مبدأ "داوها بالتي كانت هي الداء"...

تحمّس جونسون في البداية، فصوّر كلّ ورقة استطاع أن يجدها... لكنّ الـ KGB التي تطلب المعلومات "الطازجة"، طلبت إليه أن يكفّ عن ذلك، واقترحوا عليه مواضيع معيّنة تهمّهم بدلاً من التي كان يأتي بها. ووجد جونسون، الذي كان موقفه

الأمنيّ ضعيفًا، صعوبة في الحصول على وثائق كتلك المطلوبة... ففقد اهتمامه بالتجسّس. وعندما انتقل للعمل في فرنسا، لم يعد مفيدًا لموسكو، فأوقفت المخابرات الروسيّة الاتّصال به. ولمّا ترك الخدمة العسكريّة وعاد إلى أميركا، فقد ما كان يملك من مال في الميسر، وعاش على الدخل غير الشريف لمومس إيطاليّة أصبحت زوجته في ما بعد.. ثمّ ما لبث الروس أن عاودوا الاتّصال به، وعرضوا عليه راتبًا شهريًّا قدره ٣٥٠ دولارًا مقابل تفاصيل عن الصواريخ الأميركيّة. فعاد إلى الجيش الأميركيّ برتبته القديمة... وتمّ إرساله كحارس لقاعدة صواريخ "بالوس فيرديس" في كاليفورنيا.

أرضى جونسون قادة المخابرات الروسيّة بتقديمه مخطّطات وصورًا للصواريخ وآراء شاملة عن إمكاناتها، وحتّى عيّنة من الوقود الصاروخيّ"، وتابع تجسّسه عندما انتقل إلى قاعدة في "إل باسو" بولاية تكساس. بعدها أُرسل إلى ما وراء البحار مرّة ثانية، إلى "أورليانز" بفرنسا، حيث ضاعف الروس الضغط على عميلهم السرجنت الحاقد...

حصل لزوجة جونسون أوّل انهيار عصبيّ في عدّة انهيارات تبعته... وأدخلت في عام ١٩٦٥ إلى مستشفى عسكريّ في باريس. فاقترح ضابط المخابرات الروسيّ "فيتالي سيرغيفيتش أوزهورموف" على جونسون بأن يطلب عملاً في العاصمة الفرنسيّة بتأثيره على مشاعر قادته... وأصبح في آذار ـ مارس ١٩٦٦ حارسًا في مركز مراسلات مطار "أورلي" العسكريّ.

كان على الغرفة الإسمنتيّة المحصّنة خلف الأسلاك الشائكة في زاوية مراقبة أرض المطار حراسة مشدّدة طيلة ساعات اليوم وعلى مدار السنة. وكانت واحدة من أكثر المراكز البريديّة أهميّة في العالم، فالوثائق التي كانت ترسل من وإلى واشنطن، كانت تستلم فيها. كما كانت الأوامر وتغيير الرموز الصادرة لأسطول الولايات المتّحدة

الأميركيّة في البحر الأبيض المتوسّط وقواعد الجيش الأميركيّ وآخر الاستراتيجيّات التي يضعها حلف شمال الأطلسيّ للدفاع عن أوروبّا تمرّ عبر قبو الغرفة الفولاذيّ المحصّن والمحروس ببوّابتين فولاذيّتين. وخطّط الروس طويلاً للوصول إلى طريقة تمكّنهم من الوصول إلى داخل "قلعة الأسرار الحصينة". وأصبح جونسون العميل جواز مرورهم للحصول على أهمّ الأسرار الأميركيّة.

ساعد القانون القاضي بعدم السماح للوطنيّين الفرنسيّين بالاطّلاع على إجراءات التخليص الأمنيّة الأميركيّة جونسون على الحصول على الوظيفة. لم يكن في سجلّ ماضيه العسكريّ شائبة، وحصل على تزكية من الضبّاط الذين لم يعلموا بأنّ الجيران سمعوا زوجة جونسون تتّهمه بالقيام بالتجسّس، في خلال شجاراتهما الزوجيّة المتتالية والعالية.

لمّا أصبح رجلهم بأمان ضمن هيئة العمل، استفسر منه الروس عن النظام داخل المركز. فشرح جونسون كيف أنّ الباب الأوّل للخزنة الأرضيّة كان محميًّا بقضيب معدنيّ ومجموعة من الأقفال في كلَي الجانبين، وكان للباب قفل معقّد يُفتح بالمفتاح، لكن لا يستطيع أحد ولا حتّى الجنرال نفسه أن يفتحه بمفرده...

قيل لجونسون أن يبقى في القبو ويعلم المزيد عن الخزنة الأرضيّة دون أن يثير الشكوك من حوله. فتطوّع بالعمل لإعادة طلاء جدران الحجرة الخصوصيّة الداخليّة البيضاء عندما طُلب شخص للقيام بالعمل، واستطاع أن يقدّم تقريرًا عن عدم وجود نظام إنذار سرّي في الداخل.

بعد عدّة شهور، غادر ملازم شابّ جونسون للحظات وتركه بمفرده عندما انفصلا أثناء عمليّة تسليم أوراق للخزنة، فحصل جونسون على قالب لمفتاح باب الغرفة الداخليّة بالمعجون الذي أعطاه إيّاه الروس. كما حصل على تركيب أحد أقفال القضيب

الحديديّ عندما كتبه ضابط جديد بإهمال على ورقة ليحفظه، ثمّ رمى بالورقة في سلّة المهملات، لكنّ تركيبة القفل الأخير بقيت محيرّة...

تطوّع جونسون للقيام بجميع الأعمال المسائيّة وخلال العطل، عندما كان يترك حارس واحد فقط. وفسّر طلبه بأنّه بحاجة لإجازات أثناء الأسبوع لزيارة زوجته في المستشفى، وأعطاه الروس كاميرا مينوكس صغيرة لالتقاط صور للقفل المعقّد من جميع الزوايا، كما أعطوه لاحقًا قرصًا معدنيًّا مستديرًا ومخروطًا معدنيًّا بطول ٢٢,٨ سم، كان عليه أن يربطهما بطرفي القفل، ويبقى بعيدًا لمدّة ٣٠ دقيقة، لأنّ كمبيوتر فكّ الأقفال كان يصدر أشعّة راديويّة.

أكمل جونسون العمليّة خلال عمله من الساعة ١٨ من مساء يوم السبت حتّى الساعة ٦ من صباح الأحد. وبعد ثلاثة أسابيع أعطاه رؤساؤه السوفيات الأرقام اللازمة لفتح القفل الرقميّ، بعد تحليل دقيق كان قد جرى في موسكو.

في هذه الأثناء، انضمّ دبلوماسيّ آخر يدعى "فيليكس أليكسندروفيتش إيفانوف"، يعمل كضابط في المخابرات الروسيّة، للعمل مع أورزهزرموف في باريس. كانت عمليّة جونسون قد أصبحت واحدة من أولويّات موسكو، واحتاجوا لرجلين للتأكّد من عدم ظهور تعقيدات مفاجئة. وتكرّر العمل الروتينيّ، فكان على جونسون أن يأخذ الوثائق من الخزنة الأرضيّة ويسلّمها لأحد المستحكمين على طريق عام منعزل في الساعة ١٥، وكان عليه أن يعود لأخذها ثانية من أمام بحيرة مهجورة قرب مقبرة على بعد ٨ كلم في الساعة ٣,٥١ وإعادتها إلى الخزنة. وإذا لم يتمّ اكتشاف العمليّة الليليّة، كان عليه أن يلقي بعلبة سجائر من ماركة معيّنة وعليها علامة X قرب حجرة هاتف عموميّ بطريقه إلى المنزل، ليطمئنّوا عليه.

خطّط الروس لكلّ شيء، فأعطوا جونسون حقيبتين عليهما علامة شركة الطيران الفرنسيّة، وكان عليه أن يسلّم الوثائق في واحدة، ويستلم الأخرى التي تحتوي على زجاجة كونياك مخلوط بمادّة مخدّرة وأربع حبّات ترياق. فإذا وصل أيّ شخص بشكل غير متوقّع إلى المركز قبل موعدَي التسليم أو الاستلام، كان على جونسون أن يعرض عليه المشروب لينيّمه لمدّة عدّة ساعات... وإذا أجبر جونسون على الشرب من الكونياك ذاته، فإنّ أقراص الترياق كانت لتمنع تأثير المنوّم في جسمه. كما تدرّب جونسون على مخطّط للهروب في حال حدوث خطأ ما وافتضاح أمره، باستخدام جواز سفر كندي باسمه، مخبأ مع نقود وتعليمات داخل صخرة مجوّفة في حقل يبعد ١٦ كلم خارج باريس، وكان عليه الهروب إلى "بروكسل" حيث يتمّ الاتّصال به في "شوسّيه دوريه" باستخدام رمز مميّز يعتمد على دولار فضّي أميركي يعود لعام ١٩٢١...

قام جونسون بسرقة الخزنة لأوّل مرّة في ١٦ كانون الأوّل ـ ديسمبر ١٩٦٦، واستغرق فتحه للأقفال الثلاثة واستخراج حقيبة مليئة بالظروف الضخمة المصنوعة من ورق "المانيلا"، والتي تحتوي على أوراق حمراء وزرقاء، مدّة دقيقتين فقط. وفتح فريق من الخبراء الروس في السفارة الروسيّة بباريس أرسلوا خصيصًا عن طريق الجزائر، بعناية كلّ مظروف، ونسخوا محتوياته، ثمّ أعادوا إغلاقه ثانية، بينما كان جونسون أثناء ذلك جالسًا في المركز يراقب الساعة حتّى جاء موعد الاستبدال في الساعة ٣,١٥.

نجحت الحيلة تمامًا، وقام بإعادة العمليّة في يوم الأحد التالي. وبعد عيد الميلاد بوقت قصير، أخبره قادته بأنّ الكرملين كان مسرورًا من جهوده التي بذلها وأنّه رُقّي إلى رتبة ميجور في الجيش الأحمر، ومُنح علاوة قدرها ٢,٠٠٠ دولار. وقد تمّت

قراءة بعض أكثر الوثائق أهميّة من قبل "نيكيتا خروتشيف" شخصيًّا لتثبّت له مخابراته الـ KGB أنّ لها عملاء قديرين...

إغترّ جونسون من هذا المديح والتقدير، وشعر بأنّه استطاع النيل من الجيش الأميركيّ أخيرًا. وأصبح عليه أن يتسلّل إلى الخزنة مرّة خلال أربعة أو ستّة أسابيع، بموافقة المكتب السياسيّ، أي اللجنة التنفيذيّة للحزب الشيوعيّ بموسكو، في كلّ مرّة. وصار هذا الجاسوس هامًّا جدًّا، فطُلب منه أن يقلّل من المخاطر التي قد تكشف أمره...

أصاب الرعب موسكو عندما بدأت الأمور تتّخذ منحى غير المخطّط له، رغم التخطيط المدروس أساسًا بدقّة فائقة. فأثناء موعد الـ ٣,١٥ للاستلام في شهر شباط ـ فبراير ١٩٦٧، تعطّلت سيّارة جونسون القديمة التي رفض محرّكها أن يدور، فأمضى مع رجال الاتّصال ٢٠ دقيقة وهم يحاولون بيأس متزايد تشغيلها قبل انبلاج الفجر. وتمّ إعطاء جونسون بعدها أموالاً ليشتري بها سيّارة مرسيدس... وشعرت شبكة الهروب بالذعر لأنّ جونسون نسي أن يسقط علبة السجائر الفارغة كما هو متّفق عليه... وعنى ذلك تمضية يومين في كتابة التقارير التوضيحيّة للضبّاط الروس من قادته الذين عانوا كثيرًا من جرّاء ذلك. وحصلت غلطة أسوأ في شهر نيسان ـ إبريل إذ استسلم جونسون للنوم قبل موعده عند الساعة ٣,١٥، وخاطر "إيفانوف" بالذهاب للمركز وبإسقاط الحقيبة المملوءة بالأسرار في سيّارة جونسون... وصحا الجاسوس في الوقت المناسب، وكان يعيد إغلاق القفل الأخير عندما وصل الحارس البديل...

أخبر جونسون الروس بأنّه لم يتمكّن من الإفلات لأنّ مراسلاً وصل بشكل غير متوقّع، ورفض عرضه بشرب الكونياك، لكنّ الضبّاط الذين يعمل تحت إمرتهم عرفوا بأنّه كان يكذب، إذ لم يصل مراسلون في صباح يوم الأحد مطلقًا... وخافوا من أن

يكون قد انكشف أمره وصار يعمل لصالح الأميركيّين، لذا طلبوا منه إيقاف جميع العمليّات خلال مدّة الصيف... وقيل لجونسون بأنّ السبب هو قصر ليالي الصيف... وفي خلال شهر أيلول ـ سبتمبر ستعود عمليّة سرقة الخزنة.

لكنّ ذلك لم يحصل... لأنّ جونسون حصل على ترقية من قبل الجيش الأميركيّ، وانتقل للعمل في مقرّ القيادة الرئيسيّ في منطقة الـ "سين"... ثمّ عاد إلى واشنطن، حيث أُرسلت زوجته لمتابعة علاجها النفسيّ والعصبيّ... وكان أمل الروس أن يستطيعوا الاستفادة منه في ما بعد إذا انتقل للعمل في البنتاغون. لكنّ حياة جونسون العائليّة غير المستقرّة جعلت ذلك أمرًا مستحيلاً. ففي شهر تشرين الأوّل ـ أكتوبر من عام ١٩٦٨، تشاجر مرّة أخرى مع زوجته، وغادر منزلهما في "أرلينغتون" بسبب إسرافه بالقمار في "لاس فيغاس". وكونه قد ترك الخدمة العسكريّة، فقد استجوبه رجال المخابرات العسكريّة الأميركيّة. ولدى التحقيق مع زوجته، اتّهمته بالقيام بالتجسّس.

عرض جونسون، الذي استسلم للمخابرات مخمورًا ومفلسًا، أن يصبح جاسوسًا معاكسًا لصالح المخابرات الأميركيّة، لكنّهم لم يقبلوا عرضه. عندها بدأ يسرد تفاصيل تجسّسه الانتقاميّ من الولايات المتّحدة الأميركيّة...

حكمت المحكمة الاتّحاديّة على جونسون بالسجن لمدّة ٢٥ سنة في ٣٠ تمّوز ـ يوليو ١٩٦٩. وصدر الحكم عليه بالإدانة، لكنّ الرأي العامّ الأميركيّ عرف القليل عمّا فعله. حتّى خبراء الجاسوسيّة الأميركيّة لم يستطيعوا تقدير مدى الضرر الذي تسبّب به بالضبط. لكنّهم افترضوا بأنّ الروس قد يكونون قد شاهدوا جميع الوثائق التي مرّت على أورلي بين ١٦ كانون الأوّل ـ ديسمبر ١٩٦٦ و٢١ نيسان ـ إبريل ١٩٦٧. واعترفت وزارة الدفاع بالقول: "خسائرنا فادحة... فبعضها لا يمكن إصلاحه ولا تقديره... ولو أنّنا لاحظنا النقص ووجود الحرب، لكن الضرر أقلّ تأثيرًا"...

بعد المحاكمة بوقت قصير، بدأت الطائرات الأميركيّة تحمل أنباء جديرة بالتصديق عن تطوّرات الأحداث الأخيرة عن إمكانيّة قيام حلف شمال الأطلسيّ بشنّ حرب جرثوميّة وذريّة على المدنيّين في أوروبّا الشرقيّة والشرق الأوسط... وزادت سرقة جونسون للوثائق الأصليّة من تصعيد حملة التقارير عن الرعب المتزايد بعدما ساعدت على تسريب أنباء كاملة...

وحصل أربعة من الفريق الروسيّ الذي شارك بإدارة عمليّات جونسون على أعلى وسام روسيّ، هو "وسام لينين"، لكنّ قصّة جونسون انتهت بنفس الأسلوب الدنيء الذي عاش فيه حياته... ففي ١٨ أيّار - مايو ١٩٧٢، زاره إبنه ديفيد جونسون الذي شارك في حرب فيتنام، في سجن لويسبرغ في ولاية بنسلفانيا، حيث كان يقضي الجاسوس روبرت مدّة سجنه الطويلة... ونظرًا لعدم الشكّ به، فقد سمحت إدارة السجن لديفيد بلقاء أبيه بدون تفتيشه تفتيشًا دقيقًا... ولكن ديفيد كان يحمل سكّينًا حادّة تحت ثيابه... حيث ما أن أصبح مع أبيه البالغ من العمر ٥٤ عامًا وجهًا لوجه، وما أن مدّ أبوه يده لمصافحته كإبن قادم لزيارة أبيه في سجنه، حتّى قام ديفيد بإخراج السكّين من طيّات ثيابه بسرعة فاجأت والده وطعنه في صدره ثلاث طعنات كانت كافية لوفاته بعد ساعة من إسعافه في مستشفى السجن...

حين إلقاء القبض على الإبن القاتل، صرّح بأنّه غير نادم على قتل والده الجاسوس لأنّه تسبّب بقتل المئات من الشعب الأميركيّ حسب زعمه، نتيجة تجسّسه ونقل أسرار وطنه الهامّة للمخابرات السوفياتيّة. وهذا الادّعاء كان السبب في تخفيف الحكم عليه من قبل المحكمة العسكريّة الخاصّة التي أصدرت الحكم بسجنه ثلاث سنوات فقط[1]...

---

١ - الجزائري سعيد، المخابرات والعالم، دار الجيل (بيروت،١٩٩٧) ٥: ٤٩٣ - ٥٠٢.

رودولف أبيل: الجاسوس الفنّان

يعتبر "رودولف أبيل" من أكثر عملاء شبكة الجاسوسية الذرية براعة، وقد عمل دون أن ينكشف أمره في نيويورك طوال تسعة سنوات ولم يتمكن جهاز الأمن الداخلي ومكافحة الجاسوسية الأميركي FBI من اكتشافه حيث أنه كان مدربًا تدريبًا عاليًا ويتمتع بالحذر والدقة وحسن التصرف، فلم يكن يستعمل غرفة الفندق الذي يقيم فيه كمعمل للجاسوسية خوفًا من اكتشاف أي من العاملين آلات التصوير وأجهزتها الدقيقة، بل اختار أن يعمل في مهنة التصوير واستأجر استوديو واستطاع الحصول على معلومات سرية عن أسلحة قوات الولايات المتحدة الأميركية ومعداتها وخططها وكذلك على معلومات هامة تتعلق ببرنامج الطاقة الذرية ويرسلها إلى موسكو.

لم ينكشف أمر رودولف أبيل ويلقى القبض عليه إلا بعد ٩ سنوات من مزاولته لأعمال التجسس. وقد اعتقل في نيويورك عام ١٩٧٥، حيث لعب عامل الصدفة دورًا كبيرًا. استطاع رودولف أبيل أن يبعد عنه الشبهات طيلة تواجده في أميركا، فبالإضافة إلى ما يتمتع به من هدوء، كان مصورًا فوتوغرافيًا وخبيرًا في الاختزال والتسجيل ومهندسًا في الكهرباء ورسامًا رائعًا وفنانًا، وكان يتقن اللغات الإنكليزية والفرنسية والالمانية والايطالية إضافة إلى لغته الأصلية.

بعد اعتقاله صدر بحقّه حكم بالسجن لمدّة ثلاثين عامًا، لكنّه لم يمض في السجن أكثر من خمس سنوات، لأن الاتحاد السوفياتي كان قد عمل على استرجاعه مقابل الافراج عن "فرنسيس نماري باورز" جاسوس الفضاء الأميركي وقائد طائرة التجسس U-2 الذي تم إسقاطها عام ١٩٦٠ فوق الأراضي السوفياتية[1].

---

١ ـ عابدين، المخابرات والأمن والجاسوسيّة، ص٢٥٠.

كلاوس فوتش: الرجل الذي سرق القنبلة الذرّية

في نظر وليام سكاردون، بدا ذلك الرجل الجالس أمامه كأنــه صــورة كاريكاتوريـة هزيلة لما يفترض أن يكــون عليـه شـكل عـالم الفيزيـاء النوويـة: رجـل طويـل القامـة، ونحيف الجسم بنظارات طبية سميكة، ولهجة ألمانية واضحة، وجبهــة عريضـة. ولكـن مهما بدا شكل كلاوس فوتش قريب الشبه من هذه الصورة المبتذلة، فإن سكاردون كان يعرف شيئًا أشد أهمية وأقل وضوحًا: فوتش كان جاسوسًا سوفياتيًا.

وكان سكاردون، الذي يعتبر واحـدًا مـن أبـرع المحققين فـي جهـاز الاسـتخبارات البريطاني MI-5، يواجه تحديات رئيسية في كانون الثاني - يناير ١٩٥٠. وبطريقة ما، كان ينبغي عليه أن يجعل فوتش يعترف بما كان يعرف من قبل كل من قسمي مكافحة التجسس البريطانية والأميركية.

وكـان برنـامج القنبلـة الذريـة السـري تعـرض للتغلغـل مـن جــانب الاســتخبارات السوفياتية، وعلى الأخص من طريق جهود كلاوس فوتش. ولكن مع أنهم كانوا واثقيـن من معرفتهم، فإنهم لم يكونوا قادرين على استخدام مصدر معلوماتهم في قضية محكمة تتصل بالتجسس، ذلك أن تنفيذ حكم الإعدام ضد فوتش على أساس ذلك المصـدر كـان سيؤدي إلى وجوب الكشف عن السر الأعظم في الاستخبارات الغربية.

كان الاسم الرمزي "فينونا" هو الاسم الذي أطلق على العملية الصبورة لحل رمـز شيفرة المعلومات الاستخباراتية السوفياتية الهائلة خـلال الحـرب العالميـة الثانيـة. ومـع

حلول عام ١٩٤٩، وجد خبراء حل رموز الشيفرة خيوط الجهود السوفياتية الهائلة للحصول على أسرار القنبلة الذرية. وكان أحد المصادر الرئيسية، الذي جاء ذكره ضمن سلسلة من الإشارات الشخصية الواردة في الرسائل الاستخباراتية، هو كلاوس فوتش. وهكذا، جرى اتخاذ قرار بوجوب مواجهة فوتش وعقد الأمل على قدرة سكاردون في انتزاع الاعتراف منه. وبدون ذلك، كما كان سكاردون يعرف، فلن تكون هناك قضية قانونية ضده.

قرر سكاردون، المعروف بقدرته على "معرفة" المشبوهين، أن يقوم بلعبة خداع مع فوتش. وبطريقته الهادئة، التي يميل فيها في العادة إلى نفث الدخان على غليونه، ألمح إلى أن جهاز الاستخبارات البريطاني MI-5 لديه مجموعة من الدلائل التي تجعل أخطاء فوتش مسألة مفروغًا منها، ولذلك فإن "تعاونه" يؤكد فقط على معلومات جهاز الاستخبارات البريطاني MI-5 ويجعلها حقيقة مؤكدة. واستمع فوتش بهدوء، ولكن سكاردون شعر أنه كان "يرتعش"، ويمر في مرحلة مراجعة أفكاره في عقله، وقام سكاردون بعدئذ بلعب ورقته الرئيسية، معربًا عن تفهمه للأسباب التي تجعل رجلاً في موقع فوتش يعتبر إفشاء الأسرار أسلوبًا تكتيكيًا لتعزيز قضية السلام العالمي. وقال سكاردون بنغمة أبوية تقريبًا إن المرء يمكن أن يفهم الأسباب التي تجعل رجلاً مثل فوتش ينتهي إلى الاعتقاد بأن أفضل طريقة لخدمة هذه القضية الرائعة تأتي من خلال ضمان مشاركة الاتحاد السوفياتي في أسرار صنع القنبلة الذرية.

ونجح سكاردون، ذلك أن الأفكار المثالية العاطفية التي تعايشت في عقل فوتش مع قناعاته الشيوعية ظهرت إلى السطح في هذه الأثناء. وحينما انتهى، اعترف بتحقيق إنجاز يشعر باعتزاز شديد تجاهه: إعطاء الاتحاد السوفياتي القنبلة الذرية بعناد إلى حد كبير.

وبعد عام، كان يمكن أن يؤدي اعتراف فوتش إلى صدور حكم ضده بالسجن لمدة ١٤ عاما بتهمة التجسس، ولكن في ذلك الوقت، كانت عملية "فينونا" العظيمة للتجسس مرت من جانبه، وكانت غارقة في بحر من معلومات سرية غامضة جدًا، حتى أن فوتش نفسه كان يشكل جزءًا صغيرًا من جبل من الثلج.

وكان فوتش جزءًا من هذه المعلومات السرية الغامضة، ولأنه مولود لأسرة من الكويكرز الألمان، الذين كانوا في معظمهم يساريين ملتزمين، فإن فوتش انضم إلى الحزب الشيوعي الألماني في عام ١٩٣٢ حينما كان في التاسعة عشرة من العمر. وحينما كان يدرس في جامعة كييل، كان يعتبر واحدًا من ألمع الطلاب الدارسين للعلوم الفيزيائية ويعد بمستقبل باهر في البحوث أو التدريس الجامعي. ولكن مثل هذه المهنة المستقبلية لم تصبح أمرًا ممكنًا في ١٩٣٣ حينما هدد مجيء هتلر إلى السلطة بجعل حياة الشيوعيين الألمان مستحيلة. وهرب فوتش إلى بريطانيا العظمى، حيث اشتغل في بعض الأعمال العلمية المملة، وانضم إلى مجموعة الحزب المبعدين في بريستول. وفي ذلك الوقت كان فوتش، الشيوعي العنيد الذي كرس نفسه لخدمة الاتحاد السوفياتي، يبحث بنشاط عن طرق لمساعدة موسكو. ولم يكن يملك أيّ طريقة تمكنه من الوصول إلى أي شيء ذي أهمية، ولكن في سنة ١٩٤١ جرى تجنيده للعمل في شيء أطلق عليه مشروع نفق الخير والشر. وقيل له فقط إنه يعمل في مشروع علمي سري في أوقات الحرب، ولكن في اليوم الأول الذي بدأ فيه العمل في المختبر التابع للمشروع، عرف أن مشروع نفق الخير والشر عبارة عن اسم للتمويه ظاهره الخير لما يمكن أن يكون في الحقيقة عملاً يتصل بصنع قنبلة ذرية.

واستنتج فوتش، على ما يبدو، أن البريطانيين والأميركيين قاموا بخطوات عظيمة نحو التغلب على العقبات العلمية والهندسية التي تعترض طريق صنع القنبلة الذرية.

وعرف فوتش أيضًا أن البريطانيين والأميركيين يحتفظون بهذا السر العظيم بعيدًا عن حليفهم، وهو الاتحاد السوفياتي. والآن، أخيرًا، أصبح يملك شيئًا يمكنه من المشاركة في خدمة القضية. ومن واقع كونه مجندًا من جانب روث كوتشنسكي، الجاسوسة السوبر العاملة لحساب وكالة الاستخبارات السوفياتية GRU في بريطانيا العظمى، فإن فوتش نقل إليها هذه الأخبار. وفي غضون أيام قليلة، بدأ في سرقة وثائق من المشروع حتى تقوم كوتشنسكي بتصويرها في ميكروفيلم، مضيفًا إلى ذلك رأيه العلمي الخاص به.

وفي تلك الفترة فقط نشأت دلائل الغموض الأولى على أفعال فوتش. وفي ظل حقيقة كونه شيوعيًا ملتزمًا شارك صراحة في أنشطة مجموعة المبعدين التابعين للحزب الشيوعي الألماني، فكيف كان من الممكن إذن منحه ترخيصًا أمنيًا للعمل في مثل هذا المشروع المحاط بطبيعته بهواجس أمنية كالقنبلة الذرية؟ وقام قسم خاص في جهاز الاستخبارات البريطاني MI-5 في تلك الأيام بفرض مراقبة مشددة على أنشطة الشيوعيين في بريطانيا، ولكن كيف تمكن فوتش إذن من الإفلات من هذه المراقبة؟ وبعد بضع سنوات، قامت مجموعة من صائدي الجواسيس العاملين في الظلام في جهاز الاستخبارات البريطاني MI-5 ببحث تطور هذه الأحداث، وتوصلت إلى استنتاج مفاده أن هناك جاسوسًا عاملاً في الظلام لحساب جهاز الاستخبارات السوفياتي KGB داخل جهاز الاستخبارات البريطاني MI-5 تمكن من التستر على ميول فوتش الشيوعية. وهذا الجاسوس العامل في الظلام، الذي لم تحدد هويته بالضبط، ربما كان مسؤولاً أيضًا عن عمليات غامضة أخرى تتصل بأفعال فوتش.

سنة ١٩٤٥، تمكنت الاستخبارات البريطانية من الاستيلاء على كل ملفات الغستابو من المكتب الرئيسي للوكالة في كييل، وتضمنت الأشياء المخبوءة سجلات

تفصيلية عن جمع الشيوعيين المعروفين في كييل، وهي سجلات جرى إعدادها قبل فترة طويلة من مجيء هتلر إلى السلطة. ومن بين هذه السجلات هناك ملف ضخم عن كلاوس فوتش. وقام جهاز الاستخبارات البريطاني MI-5 بالبحث في هذه السجلات في محاولة لمعرفة الشيوعيين الذين هاجروا إلى بريطانيا خلال الثلاثينات وذهبوا إلى العمل لحساب الاستخبارات السوفياتية. ومن المثير للدهشة أنه لم يكن هناك سجل يبين أن جهاز الاستخبارات البريطاني MI-5 أجرى بحوثًا تتصل بأفعال فوتش، وهي هفوة غريبة ليس لها ما يبررها.

وظهرت هذه الأنواع من الهفوات واضحة جلية على ضوء الأضرار التي كان فوتش سببًا فيها. وفي سنة ١٩٤٣، عهدت إليه مهمة في مشروع مانهاتن في لوس ألموس، نيومكسيكو، حيث كان يفترض أن تكون هناك كاميرا أمنية لاكتشاف العملاء الأعداء الذين يحاولون التغلغل إلى المشروع. ولكن هذه الكاميرا لم تكن ذات فائدة في مواجهة رجل مثل فوتش، الذي كان يحمل ترخيصًا أمنيًا من جهاز الاستخبارات البريطاني MI-5 يسمح له بحرية الوصول إلى كل أقسام المشروع. ومع حلول ١٩٤٤، قام بتزويد السوفيات بالأسرار الرئيسية للقنبلة، وأهمها أسرار ذلك الانفجار الضمني الذي يؤدي إلى حدوث القوة التدميرية الهائلة لهذا السلاح. ولكن في هذه اللحظة من النجاح، ارتكبت الاستخبارات السوفياتية غلطة قاتلة، وهي هفوة برهنت في غاية الأمر عن كونها باهظة الثمن.

وبالنظر إلى حاجتها الشديدة إلى المعلومات الاستخباراتية التي كان فوتش يقوم بتزويدها، قررت وكالة الاستخبارات السوفياتية GRU تعيين أحد جواسيسها النافعين الأميركيين، وهو هاري غولد، في مهمة استلام بعض المعلومات من فوتش عن طريق اتصال سريع بالقرب من لوس ألموس. ولكن بعد ست سنوات، حينما كان فوتش يقدم

اعترافاته، كشف النقاب عن اتصاله مع غولد. وكـان هـذا الكشـف ينطـوي علـى فـائدة كبيرة بالنسبة إلى مكتب التحقيقات الفيدرالي FBI الذي كـان يشـك مـن قبـل فـي أفعـال غولد.

ومرة أخرى، قامت عملية "فينونا" لحل رموز الشيفرة بدور رئيسـي. وكـانت هـذه العملية أشارت إلى وجود ثلاث خلايا تجسس رئيسية تقوم بمهمة الحصول على أسرار مشروع القنبلة الذرية. وكانت الخلية الأولى تعمل في جامعة شيكاغو حيث نظم أنريكو فيرمي أول رد فعل تجاه الأسلحة النووية فـي العـالم. والخليـة الثانيـة كـانت تعمـل فـي مختبر الاشعاعات في جامعة كاليفورنيا، بيركلي. والخلية الثالثة، وهي الخليـة الأكـبر، كانت تتألف من ٢٢ شيوعيًا أميركيًّا، الذي جرى تجنيدهم قبل سنوات مـن أجـل سـرقة الأسرار الصناعية والتكنولوجية الأميركية. وكانت هذه الخلية تعمل فـي نيويـورك، ثـم تحولت في العام ١٩٤٣ للتجسس على الأسرار الذرية.

كانت هذه الخلية التي كان غولد يعمل فيها كجاسوس وسيط بالدرجة الأولى. وكان مكتب التحقيقات الفيدرالي FBI يملك بعض الدلائل على وجود مثل هذه الخلية، وعلـى الأخص من خلال تحقيقاته في سرقة تكنولوجيا الرادارات في بداية الحرب. وفي وقت لاحق، في سنة ١٩٤٥، قامت "إليزابيث بنتلي"، وهـي شـيوعية تخلصـت مـن الأوهـام، بمفاتحة مكتب التحقيقات الفيدرالـي FBI وإبلاغـه بأنهـا كـانت تعمـل كمسـاعدة لرئيس مجموعة من الخلايا التابعة للاستخبارات السوفياتية، من بينهـا تلـك الخليـة التـي قـامت بسرقة تكنولوجيا الـرادارات. ولـم تكـن تعـرف أعضـاءهـا، ولكنهـا ذكـرت أن رئيسـها اتصل هاتفيًا مع أحد أعضاء الخلية، وهو رجل يدعى "يوليوس".

وقدمت عملية "فينونا" دلائل أخرى، من بينها الكشف بأن هناك جاسوسين نـافعين، وهما الزوج وزوجته، منهمكان في عملية تجسس على الأسـرار الذريـة، ولديهمـا أحـد

الأقارب الذي يعمل في مشروع مانهاتن. وهذه الدلائل، كما اتضح في وقت لاحق، تنطبق على يوليوس وإيثيل روزنبيرغ. وكان لديهما أخ يدعى ديفيد غرنغلاس، وكان يعمل فنيًا في لوس ألموس.

وقام فوتش بالكشف عن العقدة الأخيرة. وحين تقديم مجموعة من الصور الفوتوغرافية إليه، وهي الخاصة بالجواسيس النافعين الأميركيين المشبوهين العاملين لحساب وكالة الاستخبارات السوفياتية GRU، التقط فوتش صور غولد على أساس أنه الرجل الذي كان يسلم إليه المعلومات في لوس ألموس. وانقض مكتب التحقيقات الفيدرالي FBI على غولد، الذي اعترف، الأمر الذي قاد مكتب التحقيقات الفيدرالي FBI إلى إلقاء القبض على أعضاء الخلية الآخرين. وهكذا، فإن غلطة وكالة الاستخبارات السوفياتية GRU العملياتية في استخدام غولد في خدمة مجموعتين مختلفتين من الجواسيس النافعين أدت إلىحدوث نتائج مريرة. ومن خلال مهزلة مأساوية، فإن العضوين الأقل شأنًا في الخلية، وهما روزنبيرغ وزوجته، جرى اتهامهما بالتجسس وإعدامهما سنة ١٩٥٣ تبعًا لذلك. أمّا الجواسيس النافعون الأعلى شأنًا فجرى إرسالهم إلى ناحية الشرق من جانب وكالة الاستخبارات السوفياتية GRU وهم: ألفريد سارانت وجوئيل بار، اللذان ذهبا إلى العمل في المعهد السوفياتي للتكنولوجيا المتطورة، وموريس ولينا كوهين، اللذان ظهرا مجددًا في ١٩٦٢ على أنهما بيتر وهيلين كروغر، اللذان يعملان لحساب خلية تجسس سوفياتية هامة في بريطانيا العظمى.

وإذا كان فوتش قد شعر بالانزعاج بسبب الأضرار التي نشأت عن اعترافاته، فربما لم يشأ أن يظهر مثل هذه الشعور. وأمضى فترة السجن بهدوء، وقام خلالها بتدريس الزملاء مبادئ العلوم. وحين إطلاق سراحه في العام ١٩٥٩، هاجر إلى

ألمانيا الشرقية، وذهب إلى العمل في معهد الفيزياء النووية، حيث اشتغل بعيدًا عن الأضواء حتى تقاعده في ١٩٧٩، ومات بعد تسع سنوات. وفي العام ١٩٩٣، ومن خلال شهادة تقدير متأخرة، اعترف العلماء النوويون السوفيات بأنهم صنعوا أول قنبلة ذرية للاتحاد السوفياتي من واقع اعتمادهم إلى حد كبير على المعلومات التي قدمها لهم كلاوس فوتش[1].

---

١ ـ فولكمان إرنست، الجواسيس عملاء سريّون غيّروا مجرى التاريخ، ص٢٢٩ ـ ٢٤٥.

ماك جين أوليغ كالوغين

من جاسوس في الـ KGB إلى رجل سياسيّ تؤيّده غالبيّة السوفيات. إنّه "ماغ جين أوليغ كالوغين" "البطل" الذي يحارب جهازه السابق فيفشي أسراره ويفضح مساوئه... "أنا لا أريد أن أزعزع السلطة بل غايتي هي مساعدة غورباتشوف وبالتالي الـ"بيريسترويكا"، فالانفتاح والانكشاف والمعارضة عناصر تشكّل أساس البيريسترويكا، يستغلّها كالوغين إلى أقصى حدّ لإحداث تغييرات جذريّة في جهاز الـ KGB.

عقاب صارم نزل بعضو الـ KGB المتقاعد، ماغ جين أوليغ كالوغين، بعد أن اتّهم علنًا وكالة الاستخبارات باستعمال "التكتيك الستالينيّ".

فقد جُرّد كالوغين من رتبه وأوسمته كافّة لأنّه "تعرّض لشرف الوكالة واتّهمها زورًا". وفقد كالوغين راتبه التقاعديّ الشهريّ وخضع لاستجوابات عدّة بتهم فضح أسرار الدولة.

ولم يتأخّر المتّهم بالردّ، إذ أعلن أنّه ينوي مقاضاة كلّ من الزعيم السوفياتي ميخائيل غورباتشوف ورئيس الـ KGB فلاديمير كروشكوف... "إنّها قرارات تعسّفيّة اتُخذت بحقّي. فما غايتي إلاّ مساعدة غروورباتشوف عبر دفع البيريسترويكا قدمًا. فإن لم يعِ ذلك بئسًا له ولأمثاله".

قصّة جديدة عن جاسوس في وكالة الاستخبارات السوفياتيّة انقلب على رؤسائه السابقين شغلت سكّان موسكو وأعطت هذا الجاسوس نجوميّة سياسيّة لم يحلم بها البتّة.

لم يتأخّر كالوغين في الانضمام إلى الحزب الديمقراطي، وهو الجناح الليبرالي الذي انشقّ عن الحزب الشيوعيّ. ومن ثمّ طالب أربعة برلمانيين في هذا الحزب الجديد بإجراء تحقيق واسع، إستنادًا إلى تصريحات كالوغين، حول موازنة وكالة الاستخبارات وعمليّاتها.

سرعان ما بدأ رجال الـ KGB يحقّقون مع كالوغين، بتهمة إفشاء أسرار الدولة. وقالت صحيفة الإزفستيا الحكوميّة إنّ المسألة غير واضحة والتهمة غير ثابتة. أمّا المستشار العسكريّ للرئيس غورباتشوف، المارشال "سيرجي أخروميف"، فقال بهذا الخصوص: "لدينا من المشاكل ما يكفينا. ليهتمّ الـ KGB وحده بهذه المسألة".

وأثارت هذه القضيّة قلق الإصلاحيّين الراديكاليّين أمثال رئيس جمهوريّة روسيا الفدراليّة آنذاك "يلتسن"، الذي، حسبما أعلن كالوغين، "يخشى من تغلغل رجال الاستخبارات وسيطرتهم".

إنّ هذا الجدل العلني جاء متناقضًا إلى حدّ كبير مع ماضي كالوغين السرّي. فقد اختير عام ١٩٥٨ لتأمين تبادل البرامج مع جامعات كولومبيا، ومن ثمّ عمل جاسوسًا في الأمم المتّحدة بغطاء صحافيّ وملحق صحافيّ في السفارة السوفياتيّة في واشنطن. عاد إلى بلاده عام ١٩٧٠ بعد أن نشر الصحافيّ الأميركيّ "جاك أندرسون" خبرًا مفاده أن كالوغين "الجاسوس السوفياتيّ حاول إغراء أمينة سرّ في وكالة الاستخبارات الأميركيّة للحصول على بعض المعلومات".

ولمّا كان كالوغين العميل السوفياتيّ الأوّل في الولايات المتّحدة، فقد جنّد نحو عشرة عملاء أجانب لمساعدته، فأدار عمليّة "عائلة والكر للتجسّس الشهيرة" التي أمدّه فيها رجلان من البحريّة الأميركيّة، أب وابنه، على مدى ثمانية عشر عامًا بمعلومات سرّية. لكن عام ١٩٨٥، ألقت السلطات الأميركيّة القبض على الرجلين إثر خيانة قام

بها عميل مزدوج هو "فيتالي يورشانكو" الذي عمل يومًا لصالح كالوغين. وعاد كالوغين من الولايات المتّحدة بقناعة ثابتة وهي ضرورة اعتماد الاتّحاد السوفياتيّ نظام التحقيقات الحكوميّة ومحاسبة المسؤولين، المعتمد في الولايات المتّحدة. فهذا النظام ضروريّ جدًّا لأنّه يساعد على إنجاح البيريسترويكا. "ففي مسألة ووترغيت التي حصلت في عهد نيكسون، تبيّن أنّ الـ FBI قد تورّط إلى حدّ بعيد في هذه الفضيحة"...

بدأت مرحلة النفور بين الجاسوس السابق وجهاز الاستخبارات السوفياتيّ عام ١٩٦٨ تاريخ غزو الروس لتشيكوسلوفاكيا. فقد اعتبر كالوغين أنّ الاستخبارات تسيطر على السلطة المركزيّة في موسكو، وأنّها بعثت تقارير خاطئة نتج عنها ندخّل سوفياتيّ في تشيكوسلوفاكيا. وتعمّق خلافه مع الـ KGB حين قاد في بلاده حملة على هذا الجهاز ودافع بشراسة عن عالم سوفياتيّ سجنه رجال الاستخبارات ظلمًا عام ١٩٧٨.

ومنذ ذلك الحين، بدأ كالوغين يبعث المذكّرات المتتالية إلى رؤسائه ينتقد فيها عدم الكفاءة والرشوة المتفشّية داخل الجهاز. فأتى قرار إحالته إلى التقاعد في آذار - مارس ١٩٨٩.

إتّهم رئيس الـ KGB فلاديمير كريشكوف العميل السابق بالإهمال، ما أتاح للـCIA الأميركيّة فضح جاسوس سوفياتيّ قدير بين عامي ١٩٧٣ و١٩٧٩. لكنّ كالوغين ردّ بأنّ الخطأ يعود إلى الاستخبارات السوفياتيّة التي كانت تفتقد في ذلك الحين إلى عملاء نشيطين داخل الجهاز المضاد. وقد اعتبر أنّ نحو عشرين جاسوسًا سوفياتيًّا خانوا بلادهم منذ ١٩٨٠ نتيجة خلافات نشبت مع مسؤوليهم في الجهاز، وكان آخرهم عميلاً هرب إلى بلجيكا. ونفى كالوغين أيّ رغبة أو نيّة لديه في اللجوء إلى الغرب رغم

العروضات العديدة التي قدّمت له بهذا المعنى. ولم يخفِ من جهة أخرى تعاطفه مع المنشقّين والجواسيس الذين هجروا بلادهم: "لقد كانت شخصيّتي مزدوجة وحياتي مزدوجة وكلّ شيء مزدوجًا. لقد سئمت هذه الازدواجيّة وأفتّش عن حياة مستقرّة"[1].

بعد سقوط الاتّحاد السوفياتي وتحوّل موسكو إلى الاقتصاد الحر وانتهاج النظام الديمقراطيّ الغربيّ، أعيدت لكالوغين رتبته العسكريّة وراتبه التقاعديّ. وشارك في ترشيح نفسه مع إيغور غايدار باسم "منظّمة العسكريّين الديمقراطيّة" في انتخابات قيادة "حركة روسيا الديمقراطيّة". ويقول سيرجي يوغوف، أحد الكتّاب الصحافيّين الروس في صحيفة "برافدا": "وهكذا يُدان كالوغين ويصدر قرار بحبسه في حين أنّ باكتين رئيس KGB السابق الذي دمّر جهاز المخابرات الروسيّة، وكذلك غورباتشوف ويلتسن وبيريزوفسكي وهو يهودي روسي، وغوزينسكي اليهودي الروسي الآخر، ما زالوا أحرارا"...

في ٢٧ حزيران - يونيو ٢٠٠٢، نشرت صحيفة "فيلادلفيا إينكوايرر" الأميركيّة نبأ حول إدانة كالوغين بالخيانة، وبالحكم عليه لمدّة ١٥ عامًا، لن يقضيها بالطبع سجينًا، لأنّه موجود في واشنطن منذ زمن.

قضت محكمة موسكو التي تمّت فيها إجراءات المحاكمة السريّة المغلقة بتجريد كالوغين من رتبته العسكريّة وأوسمته. أمّا التهمة التي وجّهت إليه، فتمثّلت في نشره معلومات سريّة عام ١٩٩٤ حين كتب وأصدر ووزّع كتابًا حمل عنوان "الدائرة الأولى". ففي ذلك الكتاب، تحدّث كالوغين عن طبيعة عمل KGB وظروف عمله فيه، وعن أميركيّين جواسيس جنّدتهم KGB وعن طرق تجنيدهم...

---

١ - وود جان، جواسيس للبيع، ترجمة لطيف الناصر، دار الحسام (بيروت،١٩٩٠) ١٣٩ - ١٤١.

حول هذا الكتاب، ذكرت مصادر من الـ CIA أنّ إحدى الإشارات الأولى لوجود عميل كبير في مكتب التحقيقات الفيدرالي الأميريكيّ FBI ظهرت في ذلك الكتاب، وساهمت في اعتقال أخطر جاسوس أميريكيّ لصالح موسكو بعد "ألدريك إيمس"، وهو "روبرت هانسين" الذي اعتقل متلبّسًا حين همّ بتسليم معلومات لرجل مخابرات روسيّ في إحدى الحدائق عام ٢٠٠٠، وكانت الخطّة المتّبعة في ذلك الوقت تخبئة رزمة المعلومات تحت التربة في مكان متّفق عليه. وعندما وصل هانسين إلى الحديقة وشرع بإعداد المكان كان كمين من زملائه في الـ FBI في انتظاره فاعتقله رجاله متلبّسًا.

وقد عقّب كالوغين على صدور الحكم بسجنه ١٥ عامًا في مقابلة مع "راديو روسيا" قائلاً: "إنّ الولايات المتّحدة لن تسلّمه إلى موسكو"، واعتبر أنّ محاكمته لم تكن سوى بدافع الانتقام من قبل زملائه لأنّ الأحداث التي وصفها في كتابه حول عمله ٢٢ عامًا في الـ KGB لا تدينه لأنّها عامّة ولم تكن تتعرّض للتفاصيل الجوهريّة. ورغم ذلك ذكر "إيفجيني بارو" محامي الدفاع في المحكمة، أنّه سيقدّم استئنافًا لصالح موكّله ضدّ هذا القرار.

يتمتّع كالوغين الآن بثراء وحياة رفاه واضحة ويعمل مستشارًا خاصًّا للشركات الأميركيّة، وابتكر بالمشاركة مع رئيس الـ CIA السابق "وليم كولبي" لعبة تجسّس تستخدم في ألعاب الكومبيوتر، ويقوم بإدارة جولات "تجسّس سياحيّة" حول مدينة واشنطن بصحبة جاسوس أميركيّ سابق.

كان كالوغين قد أجرى في كانون الثاني – يناير ١٩٩٨ مقابلة مع محطّة CNN اعترف فيها أنّه كان من المتحمّسين للفكر الشيوعيّ والنظام الاشتراكيّ السوفياتي، ولذلك انضمّ على غرار والده إلى سلك المخابرات. وكانت طريقة إعداده للعمل التجسّسيّ ضدّ الولايات المتّحدة قد تمّ ترتيبها من خلال منحة دراسيّة كطالب جامعيّ

في جامعة كولومبيا منذ انتهاء دراسته الثانويّة لدراسة الصحافة. وفي مدّة دراسته الجامعيّة لم يُطلب إليه التجسّس، بل إنجاز مهمّتين هما: التعرّف عن كثب على طبيعة النظام الأميركيّ والجمهور والسياسة والإعلام فيه، والمهمّة الثانية إقامة أكبر قدر من علاقات الصداقة العاديّة الطبيعيّة مع زملائه ومع الشخصيّات الجامعيّة هناك دون تنويه أو تلميح لأيّ مسألة مريبة تثير الشكوك بينهم... فالصداقة لمجرّد الصداقة موقّتًا وكمرحلة أولى. ويقول كالوغين: "تعيّن عليّ إقامة مثل هذه الصداقات من أجل بناء تربة خصبة لعملي بين هؤلاء في المستقبل". وبعد تخرّجه من جامعة كولومبيا أرسلته KGB عام ١٩٦٠ إلى الولايات المتّحدة بصفة مراسل لراديو موسكو، وكان المراسل السوفياتي الوحيد الذي يغطّي أنباء الولايات المتّحدة والأمم المتّحدة في نيويورك. وعمل بهذه الصفة أربعة أعوام كان أثناءها يجمع المعلومات ويحاول تجنيد بعض الأميركيّين. ويقول في هذا الصدد: "كنت أهتمّ بالتركيز على الشبّان الواعدين، وفي ذلك الوقت كنت شابًّا في العشرينات... وهذا ما كان يطلبه منّي المسؤولون"... وفي عام ١٩٦٤، عاد إلى موسكو وبقي سنة فيها ضمن مكتب المخابرات السوفياتيّة. ويكمل كالوغين روايته إلى محطّة CNN فيقول إنّه في عام ١٩٦٥، رتّبت له وزارة الخارجيّة السوفياتيّة غطاء للعمل في السفارة في واشنطن حيث كان يتولّى منصب نائب رئيس المخابرات السياسيّة في تلك الساحة، ويضطلع بدور رئيس محطّة الـKGB من ناحية عمليّة. لكنّ الصحافيّ الأميركيّ جاك أندرسون اكتشف دوره هذا واضطرّت المخابرات السوفياتيّة إلى نقله، ولو لم يتمّ كشفه لأصبح رئيسًا للمحطّة هناك. ويتذكّر كالوغين تلك الحقبة قائلاً: "ربّما كانت تلك السنوات أكثر سنواتي المثمرة... فمنذ عام ١٩٦٥ حتّى عام ١٩٧٠ وأنا أعمل كسكرتير صحافيّ وضابط علاقات عامّة وألتقي بعشرات الصحافيّين الأميركيّين والأوروبيّين أضلّلهم أحيانًا بمعلومات مزيّفة. ولكي لا

أفقد ثقتهم كنت أقوم أحيانًا أخرى بإعطاء بعض التفاصيل الموجزة الصحيحة التي لم تضرّ في حينها. لكنّ مهمّة نائب رئيس محطّة الـ KGB وفّرت لي إدارة عدّة خلايا تجسّس أميركيّة كان أحد أبطالها "جون ووكر" الذي جاء إلى السفارة السوفياتيّة في خريف عام ١٩٦٧ ورتّبت العلاقة معه واستمرّ جاسوسًا لصالح موسكو مدّة ١٨ عامًا[1]. وقمت بإدارة عمل بعض الجواسيس الآخرين في نفس السفارات الغربيّة الموجودة في واشنطن وفي أوساط الصحافيّين وأوساط الأكاديميّين الأميركيّين... ولذلك أعتقد أنّ السنوات الخمس التي عملت خلالها في واشنطن جعلتني أفضل ضبّاط الـ KGB بموجب أدقّ معاييرها. ولهذا السبب استدعتني موسكو رغم أنّني ما زلت شابًّا في ذلك الوقت، وعيّنتني نائب رئيس قسم مكافحة التجسّس في الـ KGB. وفي عام ١٩٧٤، رُقّيت إلى رتبة جنرال وكان عمري ٤٠ عامًا فقط".

ويتحدّث كالوغين عن زيارة رافق فيها عام ١٩٧٩ رئيس الـ KGB إلى تشيكوسلوفاكيا قائلاً: "في صيف جميل، قام وفد KGB بصحبة نظيره التشيكيّ بزيارة عبر نهر الدانوب إلى الحدود التشيكيّة ـ النمساويّة، في فارب. وفي منطقة لا تبعد كثيرًا عن "براتسلافا" توقّفنا لتفحّص السياج الحدوديّ الشائك الذي يفصل تشيكوسلوفاكيا عن النمسا. وكان النمساويّون يقومون بنزهات على ضفّة النهر والدخان يتصاعد من مواقد الشواء والأطفال يلعبون، كان المشهد رائعًا يدلّ على الرضى والسلام. أمّا نحن فكنّا واقفين صامتين على جانب السياج الشائك الذي امتدّت على طوله أبراج الحراسة والجنود بأسلحتهم الظاهرة للعيان... وكان التناقض بين الجانبين حادًّا جدًّا، وكنت أشعر أنّ جميع أعضاء الوفد السوفياتيّ الأمنيّ كان يفكّر بنفس ما

---

١ ـ اعتقل وحوكم جون ووكر قبل أن يدلي كالوغين بهذه المعلومات عنه.

يفكّر به الآخر، أي أنّ النمساويّين هم الأحرار في حين أنّنا نحن الذين نعيش في سجن كبير... وهنا أنا لا أنسى ما حدث لغروتشكوف رئيس الـ KGB حين كان يحملق في الضفّة المقابلة لنهر الدانوب... وبدأ يهمهم قائلا: "حسنًا... نعم.." وسحره المشهد أمامه. فبالتأكيد أنّ غروتشكوف أراد قول ما نفكّر به جميعًا... لكنّه كان عاجزًا عن التفوّه بحقيقة أنّ نظامنا السوفياتيّ متعفّن"...

ويتساءل الكثير من المراقبين في روسيا والغرب عن السبب الذي دعا القضاء الروسيّ والمخابرات الروسيّة إلى محاكمة الجنرال كالوغين الآن وفي هذا الوقت بالذات، طالما أنّ ما جاء في كتابه يتعلّق بالعهد السوفياتيّ البائد؟

هناك اعتقاد لدى البعض بأنّ المخابرات الروسيّة تريد منع صدور أيّ معلومات علنيّة أخرى حول العهد السوفياتيّ ونشاطاته الأمنيّة في العالم خصوصًا وأنّ عملاء سابقين للـ KGB قد يكونون اليوم في مواقع حسّاسة رغم انتهاء عهد عمالتهم ومراكزهم السابقة بكلّ ما يعنيه ذلك من قلّة الأخطار... فالطمع بالمال قد يدفع ضبّاطًا سابقين في الـ KGB إلى نشر كتب تضرّ بآخرين لا يجد بوتين من مصلحته الآن التسبّب بإيذائهم[١].

---

١ ـ زهر الدين د. صالح، عمليّات وقرصنة إلكترونيّة، المركز الثقافي اللبناني (بيروت،٢٠٠٣) ص١٩٢ ـ ١٩٨؛ جريدة "المحرّر العربيّ"، العدد ٥ ـ تمّوز ـ يوليو ٢٠٠٢، ص٢٠.

الدعاية للجواسيس السوفيات

نُظر إلى الإتّحاد السوفياتيّ بوصفه يمتلك قدرًا هائلاً من المهارات الطبيعيّة للتجسّس، وهي القدرة على البقاء والانتظار والدقّة في تجميع التفاصيل التي تكمل اللغز، والفصل الكامل بين العواطف والعمل. وباختصار، فإنّ الروس لاعبو شطرنج ممتازون وكانت لديهم أكثر القطع تهديدًا على رقعة التجسّس الدوليّ[1].

قال باحثون إنّ أكثر الأعمال تطرّفًا ودمويّة يمكن تبريره بالأخلاق العليا... والشرع الشيوعيّ الجازم في هذا النطاق لا يحتاج إلى كثرة تحليل.

قال لينين: "الأخلاق هي تلك التي تستخدم لتدمير مجتمع قديم يستغلّ غيره... على الشيوعيّ أن يكون مستعدًّا لجميع أنواع التصرّفات وأن يستخدم الوسائل غير المشروعة وأن يخفي الحقيقة".

وكان في نهاية أجل الاتّحاد السوفياتيّ موجة واسعة من التجميد لرجال الاستخبارات الذين يقومون بواجباتهم. بداية هذا الاتّجاه كانت ظاهرة حتّى قبل تنحية خروتشوف عن الحكم، مع أنّ التجميد الواسع للجواسيس السوفيات بدأ في زمن لاحق.

---

١ ـ رافيف دان، وميلمان يوسي، كلّ جاسوس أمير، تعريب ممدوح لطفي، دار الكتاب العربي (دمشق،١٩٩١) ص١٢٣.

الحنكة الواجب تأمينها في عمليّة جعل الجواسيس أبطالاً، كانت تقضي بأن يجري توفير كميّة وافرة من العناصر الإنسانيّة المرتبطة بقضيّة الجاسوس قبل رفعه على سلّم المجد. وفي هذا النطاق يُذكر أن خروتشوف قال للسفير الأميركيّ فوق العادة "أفريل هاريمان" في حديث تبادلاه عام ١٩٥٩، إنّ ستالين وصلت به الشكوك والظنون إلى حدّ لا يطاق خلال السنوات الأخيرة من عمره، إلى حدّ أنّ مساعديه ومستشاريه كانوا يخافون الاختفاء من الوجود كلّما استدعاهم إليه. لذلك، وبعدما مات ستالين، قرّر خلفاؤه أنّهم لن يسمحوا باستمرار هذا الجوّ وهذه النفسيّة في العمل وأنّ الضرورة تقضي بقصّ أجنحة الشرطة السريّة الرهيبة. على هذا الأساس، قال خروتشوف لهاريمان، لم يلق زعماء الكرملين صعوبة تُذكر في التخلّص من "بيريا" الذي وصفه بأنّه كان "طموحًا أكثر من اللازم".

رئيس الاستخبارات السوفياتيّة "ألكسندر شيليبين" قال في خطاب ألقاه عام ١٩٦١ أمام مؤتمر الحزب الشيوعيّ: "إنّ أجهزة الأمن لم تعد ذلك الدبّ المخيف، كما حاول الأعداء، بيريا ومساعدوه، أن يجعلوها منذ زمن ليس بالبعيد، لكنّها في الحقيقة هي الأجهزة الساسيّة للشعب في حزبنا".

والحملة الرامية إلى تكريم الجواسيس السوفيات وتعظيمهم بدأت جديًّا بعد تنحية خروتشوف عن الحكم بثلاثة أسابيع، وذلك عندما مُنح وسام بطل الاتّحاد السوفياتيّ، بعد الوفاة، في ٥ تشرين الثاني ـ نوفمبر ١٩٦٤ إلى "ريتشارد سورج"، الجاسوس الشهير للسوفيات في اليابان خلال الحرب العالميّة الثانية.

وحوالي الحقبة نفسها، نشرت صحيفة "كومسومولسكايا برافدا" الناطقة بلسان الشبيبة الشيوعيّة سلسلة من إحدى عشرة حلقة عن مقاومة التجسّس وعن جدارات بعض الشبّان والشابّات السوفيات في المحافظة على سلامة الوطن.

والدعاية للجواسيس العاملين في خدمة الاتّحاد السوفياتيّ انتقلت إلى صناعة الأفلام كذلك. فالفيلم السوفياتيّ الناجح في تلك الأيّام كان "مجرم الدولة" حيث كانت البطولة في القصّة لشاب جميل مقدام ينتمي إلى الاستخبارات السوفياتيّة، فيما كان فيلم آخر برمّته يمجّد قصّة ريتشارد سورج.

ثمّ جاء فيلم ثالث لفت الأنظار آنذاك وهو "سرّ الرئيس"، والعبرة التي تركها الفيلم في أذهان السوفيات الذين شاهدوه هي أنّ القوّات السوفياتيّة المسلّحة أصيبت بالانكسارات منذ ١٩٤١ وحتّى ١٩٤٣، لأنّ ستالين تجاهل المعلومات الاستخباراتيّة القيّمة التي كان عملاء الاستخبارات السوفياتيّة يحصلون عليها وسط الأخطار المحدقة بحياة كلّ منهم.

وفق ذلك انطلقت موجة عارمة في الاتّحاد السوفياتيّ من الكتب والقصص الجاسوسيّة منذ العام ١٩٦٥ إلى حدّ أنّ الكاريكاتور في بعض المجلاّت كان عن التجسّس وكافحة التجسّس.

ثمّ جاءت الخطوات الأوسع.

في أيّار ١٩٦٥، اتّخذت موسكو خطوة غير اعتياديّة وأقرّت علنًا وللمرّة الأولى بأنّ "رودلف آبل" كان جاسوسًا سوفياتيًّا وأنّه قُلّد وسامًا رفيعًا بعد تبادله بالجاسوس الأميركي "باورز" عام ١٩٦٢. بعد ذلك راحت التلفزة السوفياتيّة تعطي لمحات عن حياة آبل خلال الحرب العالميّة الثانية كعميل للاستخبارات السوفياتيّة في صفوف الألمان.

بالمقابل، يجب أن يُذكر هنا أنّ الاستخبارات المركزيّة الأميركيّة أقدمت بدورها على منح وسام رفيع لـ"فرنسيس غاري باورز" في نيسان - إبريل ١٩٦٥. الوسام نفسه

كان سريًا، وكذلك حفلة تعليقه على صدر الرجل بحضور كبار المسؤولين في الاستخبارات الأميركيّة. وبالإضافة إلى ذلك، أعلنت الاستخبارات المركزيّة الأميركيّة أنّ باورز، بعد عودته إلى الولايات المتّحدة بتسعة أشهر، قد تأمّنت له وظيفة طيّار لتجربة الطائرات الجديدة لدى شركة لوكهيد لصنع الطائرات وأنّ ذلك يشمل طائرات "U-2" الجديدة المخصّصة للتجسّس.

بالعودة إلى الاتّحاد السوفياتيّ، فبعد بثّ البرنامج المتلفز المشار إليه ببضعة أيّام، نشرت صحيفة "البرافدا" مقالاً طويلاً بتوقيع رئيس الاستخبارات الجديد "فلاديمير سميتشاسني" يمجّد فيه الجواسيس السوفيات.

خلال الحرب العالميّة الثانية، قال كاتب المقال: "كانت هناك حرب سريّة قاسية إلى جانب القتال العلنيّ الضاري... فكان ذلك بمثابة تجربة عظيمة الفائدة للاستخبارات السوفياتيّة ولدائرة مكافحة التجسّس". كما أقرّ الكاتب بأنّ عهد ستالين "حدثت فيه تجاوزات وأخطاء خطيرة في أعمال أجهزة أمن الدولة". لكنّ ذلك "لم يغيّر من الطبيعة الاشتراكيّة لأجهزة الاستخبارات ومكافحة التجسّس السوفياتيّة ولم يقطعهما عن الشعب والحزب". وأضاف سميتشاسني في ذلك المقال: "لا يسع المرء إلاّ أن يعرب عن تقديره الخاصّ وامتنانه العميق لعملاء السوفيات الميامين الذين، مثل بطل الاتّحاد السوفياتيّ ريتشارد سورج والعميل المعروف باسم رودلف آبل، حقّقوا مهمّات صعبة ومشرّفة في الكفاح ضدّ العدوّ... إنّ أجهزة الأمن السوفياتيّة، بإنجازها هذه المهمّات، تلوح بالسيف القاطع في وجه أجهزة الاستخبارات الاستعماريّة. إنّ رجالنا لا يكلّون في حراسة مصالح الشعب السوفياتيّ".

من وجهة النظر السوفياتيّة، بدت الثورة العالميّة للاستخبارات واليقظة العالميّة تحسّبًا من التجسّس وكأنّهما تتماشيان مع رغبة موسكو ذاتها في إزالة آثار الماضي.

بتعبير أسهل: الإرهاب في عهد ستالين، الـذي نفذتـه أجهزة الأمـن لـدى الدولـة، تـرك وراءه جرحًا عميقًا وظاهرًا ربّمـا كـانت كلمـات سميتشاسـني المعسولة أعجـز مـن أن تزيله. لذلك فـإنّ جهود موسكو فـي إعـادة الاعتبـار للجواسـيس السـوفيات وإحـاطتهم بالتمجيد والتعظيم من أجل إعطاء وجه جديد للاستخبارات السوفياتيّة الحديثة، لـم تكـن تطوّرًا عفويًّا بل حملة دعاية محكمة التخطيط.

طبعًا، في النظر إلى الاتّجاهـات السـوفياتيّة الجديـدة، يجـوز التفسـير حسـبما يميـل الهوى. المثل على ذلك؟ خبير أميركيّ قـال إنّ حملـة موسـكو التشـويقيّة للاسـتخبارات السوفياتيّة بدت وكأنّها تهدف إلى خلق جوّ جديد يستطيع المواطن السوفياتيّ العاديّ فيه أن يشعر في حياته "بحسن الجوار" مع رجل الاستخبارات.

خبير بريطانيّ قال إنّ الحملة كانت دليلاً علـى أنّ الاسـتخبارات السـوفياتيّة كـانت تعرض عضلاتها أمام المجتمـع السـوفياتيّ بـالذات وإنّهـا هـي التـي كـانت وراء حملـة التمجيد للجواسيس ومنحهم الأوسمة.

لا شكّ في أنّ الاستخبارات السوفياتيّة هـي التـي كـانت غاطسـة فـي حملـة نشـر مذكّرات للجواسيس التي بـدأت عـام ١٩٦٤، بعدمـا كـانت قضايـا تجسسـيّة شـهيرة قـد أصبحت معروفة في الشرق والغرب[١]...

---

١ - وود جان، جواسيس للبيع، ص٤٢ ـ ٤٥.

إطلاق النّار على الطائرة الكوريّة

عادت طائرة السوخوي ذات النموذج SV-15 للهبوط مرّة أخرى خلف الهدف المطلوب...

لم يكن طيّار هذه الطائرة يجهل وجود ثلاث طائرات تابعة لفرقة المطاردة السوفياتيّة في بعض الأماكن من السماء: إثنتان منهما من طراز SV-15، والثالثة من طراز MIG-23، حيث ظلّت ترافقه منذ بداية العمليّة وبشكل منتظم، لتتابع بحذر شديد تحرّكاته. كما كان هناك طائرتان من طراز MIG-23 تنتظران في الأجواء... وبصمت، انقطعتا به عن اللاسلكي، كانت هاتان الطائرتان جاهزتين عند الضرورة...

تشير الساعة الآن في طوكيو إلى الثالثة و٢٢ دقيقة من صباح الأوّل من شهر كانون الأوّل - ديسمبر ١٩٨٣.

كان الهدف يبعد مسافة ١٢ كلم، وهو عبارة عن طائرة "بوينغ - ٧٤٧" تابعة للخطوط الجويّة الكوريّة، حيث بلغ عدد ركّابها حوالى ٢٤٩ راكبًا، في حين ينام ٢٩ عضوًا من طاقم الطائرة أو أنّهم يحاولون النوم. ثمّ ها هي الطائرة تقلع من "أنكوراج" في الساعة الخامسة والنصف، باتّجاه سيؤول عن طريق طوكيو.

لم يكن هناك أيّ سبب أمام الركّاب للشكّ في الحركة الجويّة لفرقة المطاردة السوفياتيّة، وذلك عند بلوغهم ارتفاع ٣٠ ألف قدم فوق ما يعتقدونه المحيط الهادي. أضف إلى ذلك أنّ الطيّار طلب الارتفاع إلى ٣٥ ألف قدم: وهذه نتيجة طبيعيّة خاصّة

لتوفير مادّة الكيروسين، بحيث أنّ الاستهلاك يقلّ مع الارتفاع. وكانت تلك الرسالة الأخيرة التي شوهدت على مركز المراقبة في طوكيو.

تحدّث طيّار السوخوي إلى غرفة القيادة على الأرض قائلاً:

ـ"عليّ الآن أن أعود للهبوط من جديد خلف الهدف. يبلغ الارتفاع عن الهدف حوالى ١٠ آلاف متر".

ثمّ كرّر بعد عدّة دقائق قائلاً: "إنّ الهدف موجود بالنسبة لي على حوالى بعد ٧٠ درجة إلى اليسار"...

وأشار طيّار السوخوي بعد مرور ١٢ ثانية إلى أنّه موجود على بعد ١٢ كلم من الهدف. ثمّ أعلن أنّه سيحاول إطلاق صاروخ... وما أن أشارت عقارب الساعة إلى الثالثة والـ٢٥ دقيقة و٤٦ ثانية، حتّى أطلق الطيّار صاروخ ZO... هذا ما يفعله كلّ طيّار من فرقة المطاردة السوفياتيّة...

ثمّ أضاف قائلاً:

ـ "تمّ تنفيذ عمليّة الإطلاق".

عقب ذلك انطلاق صاروخين جو ـ جو من طراز AA-3 وANAB، يحتوي الواحد منهما على ٣٥ كلغ من المتفجّرات ليحطّما بالتناوب في الساعة الثالثة و٢٦ دقيقة و٢٠ ثانية الجناح الأيسر والقسم الخلفي من طائرة البوينغ... ليعلن الطيّار مباشرة: "تمّ تحطيم الهدف".

في حين كان الرعب والخوف منتشرين داخل الطائرة التي تمزّقت من شظايا الصواريخ، وطار العديد من القطع من غرفة القيادة، وبالتالي لم يعد ضغط الطائرة ثابتاً، لذا فقد مات العديد من المسافرين من أثر صوت وصول بعض شظايا

الصواريخ، والبعض الآخر طار من مكانه إثر تبدّلات الضغط وأُغمي عليه، وتبيّـن أنّ هؤلاء كانوا محظوظين أكثر من غيرهم، باعتبار أنّ الكارثة قد بدأت بالنسبة للآخرين...

إنخفضت الحرارة في الطائرة فجأة وبدأت تتشكّل بداخلها عاصفة خفيفة من الهدوء... وبدأ الناجون حينذاك يضعون أقنعة الأوكسيجين التي تدلّت بشكل تلقائيّ من السقف والتفّوا بأغطيتهم، في حين كانت الطائرة تتابع سقوطها... واستمرّت هذه العمليّة ١٢ دقيقة... ثمّ ها هي طائرة الـ KAL - 007 تسقط في الساعة الثالثة و٣٨ دقيقة داخل مياه "أوكوتسك"، بعد إصابتها في تمام الساعة الثالثة و٢٦ دقيقة بصاروخين سوفياتيّين.

لم يكن هناك أدلّة أو شهود على حدوث هذه الكارثة، باستثناء بعض الصيّادين اليابانيّين الذين سمعوا وهم على مراكبهم دويّ محرّكات البوينغ قبل سقوطها في أعماق البحر.

لم يكن هناك أيّ شيء يوضح بالتحديد ما حصل خلال الـ ١٢ دقيقة على متن الطائرة... حيث لاحظ الطيّار "شون بيونغ إين" وجود صمت كامل في جهاز اللاسلكي، وهو أمر لم يتمكّن من تفسيره أبدًا...

تلقّى المراقبون في مركز طوكيو بعد مرور ٤٥ دقيقة على حدوث الانفجارين الرسالة التي تحمل العبارات التالية: "ضغوط سريعة... إهبطوا إلى ارتفاع صفر الألف" أي إلى مسافة ١٠ آلاف قدم، وهو الارتفاع الذي يمكن الركّاب من تنفّس هواء الجوّ بحريّة. هذا ويمكن تفسير المدّة التي تفصل بين اصطدام الصواريخ وبين الرسالة الأخيرة بشكل بسيط جدًّا: إنّ على الطيّار وأفراد طاقمه والركّاب الناجين وضع قناع الأوكسيجين مباشرة وقبل القيام بأيّ عمل آخر.

ولكن ظلّ تلقّي الرسالة بالمقابل أمرًا معقّدًا: إذ في حال العودة إلى تفسير عبارات الطيران الدوليّة، فإنّه كان على الطيّار أن يطلق عبارة "النجدة" ثلاث مرّات قبل إعطائه أيّ معلومة. أضف إلى ذلك وجود أمر آخر غير مفهوم: ولكن بغضّ النظر عن هذه الرسالة في عدم اتّصال الطيّار ببرج المراقبة في طوكيو، لمَ حدث هذا الصمت في جهاز اللاسلكي؟ تُرى لمَ لم يحاول الطيّار الصراخ بما يحدث على طائرته KAL-007؟ إنّ هذه الأسئلة التي ظلّت دون إجابة تدعو إلى الاعتقاد بأنّ حادثة تحطّم البوينغ التابعة لكوريا الجنوبيّة، لم تكن حادثًا عابرًا...

وهكذا لم يتمّ حتّى الآن تفسير الغموض الذي أحاط بتحطّم هذه الطائرة، كما ولن يكون هناك مستقبلاً أيّ تفسير يذكر. ولكن ساعدت هذه المأساة على توضيح طريقة عمل عدد من المخابرات السريّة المختلفة التي كانت تتحرّك بشكل مباشر أو غير مباشر، هذا ولم يُذع الخبر مباشرة على الملأ... بل كان هناك طائرة كوريّة تابعة للشركة نفسها وهي طائرة KAL-015 تسلك نفس الطريق "أنكوراج ـ سيؤول" وتتبع الطائرة الكوريّة السابقة KAL- 007، ولكن لم يلاحظ طاقم الطائرة الثانية أيّ أمر يثير الشكّ، حتّى ولا عند تناوبه لنقل رسائل طائرة الـ KAL- 007 إلى مركز المراقبة في أنكوراج...

توصّل مراقبو الجوّ في سيؤول لدى ملاحظتهم وصول طائرة الـ KAL-015 أوّلاً، إلى وجود تأخير في الطائرة الأولى، ولكنّهم صرّحوا في تمام الساعة العاشرة صباحًا بأنّ الطائرة موجودة على جزيرة "ساكالينا" السوفياتيّة وهي الجزيرة التي حلّقت فوقها طائرة البوينغ قبل فترة قليلة من تحطّمها... في حين توصّل الصحافيّون الذين كانوا يحاولون معرفة تفاصيل الحادث من خلال عودتهم حتّى إلى وزارة الخارجيّة في كوريا الجنوبيّة، إلى نتيجة مفادها أنّ مصدر المعلومات يختبئ داخل KCIA، وهي

وكالـة الاستخبارات والأمـن المحلّـي، المنبثقـة بشـكل مباشـر عـن وكالــة المخــابرات المركزيّة الأميركيّة CIA.

لقد أوضح هذا الحادث نقاط الضعف في عمل بعـض وكـالات الاستخبارات. فقد توصّل الصحافي الأميركي "سيمور هيرش" إلى إرجاع هذا الخطـأ فـي المعلومـة إلـى سبب عادي جدًّا. حيث أنّه كان يتواجد على متـن الطـائرة الكوريّـة KAL- 007 أخـت زوجة رئيس محطّة المخـابرات الكوريّـة KCIA فـي واشـنطن "جـاني سـوهن"، والتـي تعمل في وزارة الجمهوريّة الكوريّـة فـي مكتـب السفارة، التـي سـارعت الـCIA إلـى إعلامها حيث اتّصلت بها طيلة الليل باستمرار لإعلامها بالتطوّرات الأخيرة للقضيّة... في حين ادّعى بعض من المراسلين أمام جاني سوهن أنّه ربّما تـمّ هبـوط الطـائرة فـي جزيرة "ساكلين" دون إحداث أيّ أضـرار، مستندين فـي ادّعـائهم إلـى معلومـة مؤكّدة صادرة عن مركز العمليّات في الـ CIA قامت "جاني سوهن" بإعطائها إلى المقرّ العـام للـ NSA في سيؤول الذي سارع إلى نقلهـا إلـى صاحبهـا. كـانت الـ KCIA قد تبيّنت خطأ ما فعلت، خلال الفترة التي مرّت على وصول الرسالة إلى الصحافيّين، ولكنّها لـم تعمل أيّ شيء لتصحيح المعلومة والتوصّل إلى الحقيقة بحجّة أنّ العالم سـيعلم الحقيقـة عاجلاً أم آجلاً.

تُعتبر المنطقة التي وقع فيها حادث الطائرة المنطقة الأكثر مراقبـة مـن بيـن جميـع أماكن الكرة الأرضيّة، حيث تقوم مخـابرات التنصّـت الأميركيّـة المنتشـرة مـن جنـوب ألاسكا وحتّى شمال اليابان، بتسجيل كلّ ما يحدث لحظة تلو الأخرى. لدرجة أنّ هنـاك مجموعة من العاملين في بعض المحطّات، يمكنها مراقبة ما يحدث بشكل مباشر.

تُعتبر محطّة "إلمينـدورف" لوكالة الأمن الوطني KCIA أوّل من قام بتسجيل وجـود نشاط غير طبيعيّ علـى الأراضـي السـوفياتيّة، ويشـير التقنيّـون الأمـيركيّون المكلّفـون

بتسجيل جميع الشارات الإلكترونيّة التابعة لنظام الدفاع الجوّي السوفياتي والمسجّلة في إطار المهمّات المسمّاة Signal Intelligence، واختصارًا SIGINT، يشيرون إلى خضوع القوّات السوفياتيّة التابعة للمنطقة إلى حالة من الطوارئ، مباشرة بعد دخول "طائرة مجهولة الهويّة" الأجواء السوفياتيّة. لقد توصّل السوفيات في الحقيقة إلى الكشف عن وجود طائرة الخطوط الجويّة الكوريّة KAL-007 التي توجّهت بعد انحرافها عن الطريق المخصّص لها 20 - Romeo باتّجاه شبه جزيرة "كامتشاتكا"، وهي المنطقة المحظورة لوجود القواعد السريّة للجيش الأحمر، حينذاك، تلك المنطقة التي يرد ذكرها على جميع الخرائط الملاحيّة بالإشارة بدقّة إلى إمكانيّة التعرّض لإطلاق النار في حال محاولة دخول أجواء هذه المنطقة.

لذا، فإنّ العاملين في محطّة إلميندورف قد سجلوا، بعد مرور فترة قليلة، إقلاع أربع طائرات سوفياتيّة. في حين كان التقني العامل في قاعدة وكالة الأمن الوطنيّ NSA في "ميساوي" شمال اليابان، يسجّل أيضًا، على بعد مئات الكيلومترات، المحادثات التي جرت بين الطيّارين السوفيات. كما قام الأميركيّون أيضًا بالتنصّت على حديث جرى عبر اللاسلكي بين المقرّ العام لمنطقة نفوذ دفاع الطيران السوفياتي الموجودة في "كاباروفسك" ووزارة الدفاع في موسكو. وقد اتّضح من خلال هذا الحديث عدم رغبة المسؤول في قاعدة كاباروفسك بتحمّل مسؤوليّة مهاجمة هذه الطائرة لوحده. أضف إلى ذلك قلقه أيضًا بعد الكشف عن وجود قمر "رادوغا" الصناعيّ، حيث لم يعد لديه أيّ مدخل مباشر لنظام اتّصال التنصّت الأميركي. هذا ومن غير المعروف الجهة التي أعطت الأمر في موسكو لمهاجمة الهدف. ولكن ورد في هذا المجال كثيرًا ذكر إسم رئيس الدفاع الجوّي السوفياتي الماريشال "ألكسندر كولدونوف"، كما تحدّثت وكالة الأمن الوطنيّ NSA من جهتها عن الكولونيل

"سيمينوفسكي"، الذي كان يعمل في تلك الأمسية كجندي استخبارات تابع لوزارة الدفاع. أمّا المعلوم بشكل أكيد وثابت فهو قيام الـ NSA بعد مرور عدّة دقائق على إخبار موسكو بوجود طائرة مشتبه بها بتسجيل رسالة إيعاز من كاباروفسك إلى وحدتي "دولسنك ـ سوكول" و"ساكهالين"، وقد ورد في هذه الرسالة تعداد أرقام الجنود المؤهّلين لإعطاء الأمر بإطلاق النار الذي سيؤدّي إلى وقوع كارثة حقيقيّة.

ثمّ ها هم ثلاثة من جنود الـNSA يقومون منذ عام ١٩٨٢ بعيدًا عن قاعدة الـ"ميساوي" بتنفيذ مهمّة على غاية كبيرة من السريّة، لدرجة أنّ الحكومة اليابانيّة نفسها لم تأخذ علمًا بها، حيث أُوكلت إليهم مهمّة التنصّت المباشر على جميع تحرّكات مقرّ الدفاع الجوّي السوفياتي العام. أُطلق على هذا المشروع إسم CLEF، وهو المشروع الذي لم يكشف النقاب عنه إلاّ مع حدوث مأساة طائرة الخطوط الجويّة الكوريّة KAL-007.

ما أن جاء مساء الأوّل من شهر أيلول ـ سبتمبر ١٩٨٣، حتّى كان هناك واحد من تقنيّي مشروع الـ CLEF الموجود في "واكني"، يتنصّت ويسجّل جميع المحادثات التي تدور بين الطيّارين السوفيات والتي دفعت إلى إسقاط طائرة البوينغ الكوريّة. ولم يُعر هذا التقنيّ اهتمامًا كبيرًا لما يدور حوله حتّى جاءته كلمة "زابوستكال"، إذ إنّه كان يعلم أنّ الطيّارين السوفيات لا يستخدمون هذه العبارة إلاّ عند رغبتهم في إطلاق صاروخ ما، ولكن كان على هذا التقني الانتظار حتّى انتهاء المحادثة، وحتّى مرّت ساعة كاملة قبل تمكّنه من العودة إلى التنصّت من جديد وإدراك كلّ ما يدور.

بعد مرور ثلاث ساعات على اختفاء طائرة البوينغ الكوريّة، كانت وكالة الأمن الوطنيّ NSA تعيد صياغة المأساة من جديد والتأكّد من سلامة نظامها الأمني.

وهكذا تمّ ترتيب جميع التقارير المتعلّقة بهذه القضيّة، التي نظّمها جنود الـ NSA المتمركزون في كلّ من اليابان وآلاسكا تحت إسم CRITIC، وهي التسمية التي استُخدمت لتعيين المعلومات الخاصّة بالأمن الوطنيّ.

وهكذا فقد كان من المفروض نقل جميع هذه التقارير إلى مدير الـ NSC بشكل مباشر، وإلى مسؤول مجلس الأمن الوطنيّ في البيت الأبيض.

***

لم ينتشر خبر هذه المأساة إلاّ بعد مرور حوالى ٢٠ ساعة على حدوثها، رغم انتشارها على نطاق واسع بين صفوف رؤساء الأركان السوفيات والأميركيّين. لذا فقد وصلت حدّة التوتّر بين الأميركيّين إلى أوجها، حيث تمّ إرسال ستّ طائرات مقاتلة من طراز F-15 وطائرة الرادار "إواكس" إلى قاعدة ميساوي مع وجود نظام الدوريّات في جميع أنحاء أراضي ساكهالين السوفياتيّة.

كانت المعلومات المعطاة واضحة جدًّا، وتتضمّن الطيران على ارتفاع قريب جدًّا من الحدود السوفياتيّة، وذلك بهدف التصدّي للطائرات من طراز ميغ ٢٣ وسوخوي ١٥.

أتاحت فترة العشرين ساعة التي ظلّ فيها الخبر مكتومًا المجال أمام إدارة ريغان لوضع وتحديد استراتيجيّتها بهدف الكشف عن الكارثة. لقد اتّضح خطّ سير هذه الأحداث ضمن التسلسل الذي نشره، في ما بعد، مجلس الشيوخ الأميركيّ نفسه تحت عنوان USA Recent Developments أيلول - سبتمبر ١٩٨٣. كما وتمّ الكشف عنها أيضًا من خلال عقد مؤتمر متلفز تمّ تنظيمه بمبادرة مدير الاستخبارات المركزيّة CIA وليم كيسي، ومدير مجلس الأمن وليم كلارك، في حين تمّ مباشرة توقيف فكرة وجود

حملة وساطة مكثّفة ضدّ حركات السلام والإتّحاد السوفياتي، المسؤول المباشر عن حادث إسقاط الطائرة المدنيّة.

ما إن جاء الأوّل من شهر كانون الأوّل ـ ديسمبر، حتّى كان مدير وكالة المعلومات في الولايات المتّحدة الأميركيّة USIA، "م. ويك"، يؤلّف حوله مجموعة خاصّة أطلق عليها إسم Agency Task Force، التي تضمّ أيضًا مدير اللاسلكيّات في "صوت أميركا"... وكان هدف هذه المجموعة يكمن في "دعم أثر ردّ الفعل العالميّ ضدّ الهجوم السوفياتي"، في حين اقتصرت مهمّة "صوت أميركا" على "تضخيم الإرسال باتّجاه الإتّحاد السوفياتي بهدف التغلغل إلى التشويش الإذاعي السوفياتي". وكانت النتيجة مضاعفة عدد الإرسالات، بحيث أصبحت المحطّات تنفذ ٨٠ ساعة إرسال إضافيّة في اليوم الواحد. ووصل المعدّل لهذه الإرسالات قمّة أوجه في الثاني عشر من شهر أيلول ـ سبتمبر، مع خطاب ريغان الذي أدان فيه بشدّة الاتّحاد السوفياتي نفسه.

في حين قامت الـ USIA بالتحضير لتقديم ممثّل الولايات المتّحدة الأميركيّة في الأمم المتّحدة، ذاك المندوب الذي سيدرك الكتابة التجزيئيّة لمحادثات الطيّارين السوفيات المتورّطين في عمليّة طائرة الخطوط الجويّة الكوريّة KAL-007.

وإذ قامت استخبارات وكالة الدفاع في اليابان بتسجيل هذه المحادثات المرمّزة، كانت المجموعات مهيّأة أمام الأميركيّين بتحفّظ سريع لدرجة عدم البوح أو الإفشاء بما تحتويه هذه المجموعات.

لم تستطع إدارة ريغن التي ترفض الاعتراف بتمكّنها من متابعة أدقّ مراحل تفاصيل هذه المأساة، إستعمال المعلومات التي أبدتها، حتّى ولو كانت هذه المعلومات على أهميّة كبيرة بالنسبة لليابانيّين، ولكن ها هو الرئيس الأميركيّ يلجأ، رغم كلّ هذه

الإجراءات إلى استعمال المعلومات التي جاءته من حلفائه وينشرها في السادس من شهر أيلول - سبتمبر أمام الأمم المتّحدة، دون الانتباه إلى وجوب تحذير المخابرات اليابانيّة. وهكذا أصبحت الإدارة الأميركيّة واقعة بين نارين، فهناك من جهة أولى رغبتها في وضع السوفيات داخل قفص الاتّهام، إضافة إلى رغبتها، من جهة أخرى، في وجوب المحافظة على الصمت والهدوء المطلوبين في حال التعامل مع المخابرات السريّة، وخاصّة عندما يتعلّق الأمر بموضوع تجسّس إلكترونيّ. وهكذا تتعرّض الـNSA في حال البوح بمعلومات آتية منها، إلى صعوبة وحرج كبيرين، إذ لم يكن أمر إفشاء الأسرار أمرًا طبيعيًّا في وكالة أسّست خلال الخمسينات بصورة سريّة وأصبحت تضمّ حوالى ٨٠٪ من الاستخبارات التي يجمعها الأميركيون، لذا نجد عملاء الـNSA يصابون بغضب شديد لدى متابعتهم أوّل ظهور تلفزيوني لسكرتير الدولة آنذاك "جورج شولتز" بعد حدوث هذه المأساة مباشرة، إذ إنّ شولتز عاد في واقع الأمر إلى تقرير الـNSA، المصنّف تحت عنوان "Top Secret Umbra"، وتعني كلمة Umbra هنا "المعلومات المتعلّقة بالتنصّت الإلكتروني"، ذاك التقرير الذي أظهره شولتز أمام كاميرات التلفزة. ولم يحدّد العملاء أبدًا الاستخدام السياسي الناتج عن عملهم، بل إنّهم كانوا يرون في هذه الخطوة نقصًا في قواعد الأمر الأوليّة.

تُرى ألم يكشف سكرتير الدولة النقاب من خلال إشارته إلى متابعة مخابرات التنصّت الأميركيّة لسير العمل ومن خلال تقديمه التفاصيل الدقيقة لعدد الطائرات السوفياتيّة المقاتلة وطبيعة المحادثات التي دارت بين الطيّارين، عن قوّة التنصّت التابعة للـNSA داخل منطقة هامّة في استراتيجيّتها؟ لذا ها هي الإدارة الأميركيّة تقرّر بعد هذه الحادثة استخدام جزء من المادّة التي استخدمتها المخابرات اليابانيّة.

نشرت هذه المادّة في الرابع عشر من شـهر أيلـول ـ سبتمبر، وكـانت تسـتند إلـى جميع محادثات الطيّارين السوفيات، ممّا أدّى إلـى استنتاج بعض الأفكـار التـي يدافـع عنها الأميركيّون، وهكذا بدأت حرب الاستخبارات بين المعارضين لريغان.

كما سنشهد عمّا قريب وجود بلاغات تفسيريّة، قامت بنشرها المخابرات اليابانيّـة، ثمّ تبعتهـا الفرنسـيّة والألمانيّـة الغربيّـة والبريطانيّـة، بـل وحتّـى شـخصيّات هامّـة فـي المخابرات الأميركيّة تحاول جهدها لتوريط إدارة ريغان.

***

واقع ما حصل، هو أنّ طائرة البوينغ التابعة لخطوط كوريا الجنوبيّة انحرفت أثناء مرورها فوق آلاسكا عن خطّ سيرها، وذلك بعد مـرور مـدّة علـى مغادرتهـا أرض أنكوراج، فكان الخطأ أثناء إقلاعها بسيطًا جـدًّا لدرجـة لا تُذكـر، وهـو انحـراف بضـع درجات فقط.

هذا الخطأ سيبعد طائرة الـ KAL-007 لتخترق على بعد ٥٠٠ كلم ممرّات الأجواء الدوليّة ويحملها على التحليق فوق الأراضي السـوفياتيّة، حيث تمـرّ بـادئ الأمـر فـوق شبه جزيرة "كامتشاتكا"، ثمّ فوق جزيرة "ساكلين"، في بحر "أوكهوتسك".

كانت هذه الطائرة تجهل الأمـاكن التـي لا يمكـن "تدنيسـها" بـالمرور فوقهـا، منهـا سرير "أوكهوتسك" الصغير، الـذي يعتبر المكـان المقدّس الخـاص بتمركـز الأسـطول السوفياتي داخل مياه المحيط الهادي. هنا فـي هذا المكـان، حسـث التجـأت الغوّاصـات المزوّدة بصواريخ قاذفة من طراز SLBM قادرة على الوصول حتّى إلى شمال القـارّة الأميركيّة... التجأت للاستراحة ما بيـن المهمّتيـن الموكلتيـن لهـا. إضافـة إلـى أنّ هـذه المنطقة تأوي داخل أراضيها ثلث القوّات المسلّحة السـوفياتيّة وأكبر قـاعدة صـواريخ

موجودة في المحيط الهادي الغربي، وربّما كانت طائرة الـ KAL-007 ستصل للتحليق فوق "فلاديفوستوك" في حال استمرارها بالسير في الطريق الذي تسلكه، أي أنّها ستصل إلى أكبر ميناء تابع للبحريّة العسكريّة السوفياتيّة موجود في الشرق الأقصى.

وهكذا يمكن إدراك حقيقة السبب الذي دفع بالأميركيّين إلى مراقبة هذه المنطقة بشكل خاصّ، وبالتالي وصول المراقبة الإلكترونيّة خاصّة في هذه المنطقة إلى أوج قمّتها، إذ أخذت الـ NSA تراقب بدقّة، ومن خلال قواعدها المتواجدة في كلّ من اليابان وألاسكا جميع الإشارات المرسلة من قبل العدو، وذلك في إطار القيام بما يسمّى بعمليّاتها الـ SIGINT، كمل أنّها بدأت بالتنصّت على رادارات RADINT، إضافة إلى الإرسالات الإلكترونيّة، مثل إرسالات صواريخ ELINT على سبيل المثال. كما أخذت الـ NSA تراقب أيضًا عمليّات التعرّف Rivet Joint و Cibra Ball التي تمّ تنفيذها على متن الطائرات RC-135، وهي عبارة عن طائرات بوينغ ٧٠٧ معدّلة ومزوّدة بمجموعات من المعدّات الإلكترونيّة المعقّدة الخاصّة بمراقبة اتصالات ونشاطات الرادارات. في حين تمّ تكليف طائرات من طراز P-3 Orion التابعة للبحريّة بتقسيم المناطق بهدف إبعاد الغوّاصات السوفياتيّة، بينما أخذت طائرات التجسّس الشديدة التعقيد التابعة للـNSA وهي U-2 Black Window, SR - 71 Black Bird تحلّق داخل السكاك، أي داخل الهواء بين السماء والأرض في الجزء الأعلى من الغلاف الجوّي.

في هذا الوقت، كانت تشاهد أجهزة التنصّت السريّة التي وضعتها الغوّاصات الأميركيّة داخل أعماق المياه، ممدّدة على الكابلات الهاتفيّة السوفياتيّة ومهمّتها تسجيل جميع الاتّصالات التي تمرّ عبر تلك الكوابل.

لم يكن لدى السوفيات عادة إمكانيّة المزاح بما يتعلّق بأجوائهم الخاصّة. فإنّ سلاح دفاع الطيران السوفياتي لم يتردّد في العشرين من شهر نيسان - إبريل عام ١٩٧٨ في

إطلاق النار علـى الطـائرة التابعـة للخطـوط الجويّـة الكوريّـة المحلّقـة مـا بيـن بـاريس وسيؤول، تلك الطائرة التي كانت قد انحرفت عن طريقها مسافة ما يزيد عن ألـف كلم لتحلّق فوق بحر "بـارينتس" جنـوب "مورمانسك". تلـك الحادثـة التـي تسبّبت فـي وفـاة شخصين فقـط، لحسـن الحظ، حيث تمكّن الطيّـار بـالفعل مـن تجنّـب الكارثـة. وأُقفل التحقيق في تلك الحادثة على إخفاق صاروخ أُطلق من طائرة "ميغ" فـي الوصـول إلـى هدفه.

لم يكن التصدّي للطائرات التجاريّة وقفًا على السوفيات فقط، وما علينا لإثبات ذلك إلاّ أن نذكر طائرة البوينغ ٧٢٧ التابعة للخطوط الجويّة الليبيّة LN-114 التي اعـترض الطيران الإسرائيلي طريقها أثناء مرورها فوق صحراء سيناء فـي الحـادي والعشـرين من شهر شباط ـ فبراير ١٩٧٥، ممّـا تسبّب بوفـاة ١٠٧ أشـخاص، ولا ننسـى أيضًـا طـائرة الـلوكهيد L-1649 سـوبر سـتار التابعـة للخطـوط الجويّـة الفرنسـيّة، والتـي تـمّ إسقاطها في "إيدجتيل" خلال عام ١٩٦١ أثناء طيرانها مساء بين برازافيل ومارسيل.

إسـتمرّت التسـاؤلات مطروحـة لفترة طويلـة حـول الأسـباب التـي دفعـت بطـائرة الخطوط الجويّة الكوريّة KAL-007 إلى الابتعاد عن خطوط السير الدوليّة لتحلّق فـوق منطقة محظورة، حتّى على المواطنين السوفيات أنفسهم.

لقد سبقت فكرة "خطأ ملاحيّ" جميع الأسباب التي دارت بين العاملين في الخطـوط الجويّة الكوريّة والسلطات الأميركيّة ومنظّمة الملاحة المدنيّة الدوليّة OACI.

صدّق الجميع هذا السبب واقتنعوا به، ولكن لم تكن طـائرة البوينـغ ٧٤٧ بالطـائرة المهملة، كما أنّ طاقم الرحلة KAL-007 كان على مستوى عال من التجربـة والخـبرة، بدءًا بطيّارها "شون بيونغ إين"... إضافة إلى أنّ الطائرة كـانت مـزوّدة بثـلاث مراكـز ثابتة مستقلّة مخصّصة لاختيار ومراقبة الطرقات، ولكن ربّما تكون قد تعرّضت للعطل

تدريجيًا... وقد لاحظ بعض المصادر المقرّبة من الاستخبارات الفرنسيّة أنّ الانحـراف عن الطريق مسافة ٥٠٠ كلم قد كـان بالإمكـان ملاحظتـه وتصحيحـه مـن قبَـل مراكـز المراقبـة المدنيّـة، وخاصـّة عندمـا يحـدث مثـل هـذا الانحـراف ضمـن منطقــة شــديدة الخطورة والحساسية.

هناك أمر آخر، حيث يبدو أنّ قائد الطائرة قد رفض منذ إقلاعه من أنكوراج أخذ حمولة من الحقائب، رغم أنّه دُفع ثمن هذا الوزن الزائد، وكانت حجّته في ذلك التمكّـن من إضافة خمسـة آلاف ليـتر مـن المحروقـات داخـل خـزّان وقـوده تزيـد عـن الكميّـة المخصّصة في الأحوال الطبيعيّة والعاديّة.

ترى، هل كان هذا التصرّف نوعًا من الحذر البسيط؟ إذ كان بإمكان قـائد الطـائرة أن يزيد من كميّة الوقود في خزّان وقوده من باب الاحتيـاط باحتمـال تعرّضـه للقنـص السـوفياتيّ، حيـث يصبـح بإمكانـــه زيـادة السـرعة وتعديـل رأس الطــائرة أو تغيـير ارتفاعها...

الصحافي "سيمور هيرش"، وهو واحد من المؤيّدين لفكرة وجود خطأ في الملاحة، قد نشر كتابًا حول هذه القضيّة يحمل عنوان: The Target is Destroyed أي "تمّ تحطيم الهدف"، وهو الكتاب الذي فتح الباب أمام فيض من المعلومات قدّمت إلى وكالة الأمـن الوطنـيّ الأميركيّـة NSA، وإلـى مصـادر ذات مكانـة شـديدة الأهميّـة، حيـث كـان هـذا الصحافيّ يؤكّد في كتابه الذي يبدو أنّه يتحدّث فيه بكلّ حريّة على أنّ أيًّا من المخـبرين أو المتحدّثين فيه لم يذكر أيّ احتمال آخر.

كان الخطأ في هذه العمليّة يستند، حسب رأي هيرش، إلـى وجـود مجموعـات مـن الظروف المتدرّجة المعاكسة والمزعجة، لم يلاحظهـا الطيّـار إلاّ متـأخّرًا، والسب هـو قيامـه ببعـض الواجبـات الاجتماعيّـة تجـاه بعض الركّـاب، الذيـن يعـرف تمامًـا مـدى

حساسيّة مراكزهم وأهميّتهم في واشنطن (حيث كان على متن تلك الطائرة نائب سرّ إدارة ريغان وواحد من المسؤولين في شركة "جون بيرتش")، لذا فقد يكون الطيّار قام عند الانتباه بتحويل رأس الطائرة وتصحيحه متأخرًا وبشكل غير كاف، لدرجة أنّه لم يعد أمامه إلاّ الاقتصاد في المحروقات. إضافة إلى أنّ طاقم الطائرة بأكمله لم يكن واثقًا ومتأكّدًا من أنّ الطائرة السوفياتيّة الحربيّة تلاحقهم، ما جعل من الصعوبة بمكان أمام الطيّار اكتشاف الرصاصات التي كانت تصوّب من طائرتي الميغ وسوخوي اللتين كانتا ترميان طلقات التحذير والتنبيه، والسبب يكمن بكلّ بساطة في بدء الطائرة بالارتفاع عاليًا.

لم تصدّق موسكو هذا التحويل في الوقائع. فإنّ الاتّحاد السوفياتيّ قد فسّر في واحد من تقاريره بأنّه وضع حدًّا لطائرة الـ KAL-007، لاشتراكها بالقيام بمهمّة تجسّسيّة. والدليل على فكرة واستنتاج السوفيات هو أنّ خزّانات طائرة البوينغ التابعة لكوريا الجنوبيّة كانت مزوّدة بأدوات وأجهزة مراقبة إلكترونيّة. وبالتالي فإذا كان هذا هو الحال، فهو يفسّر ما فعله السوفيات وما نشروه من وسائل دفاع، هم والأميركيّون، بهدف الكشف عن حطام الطائرة داخل مياه بحر "أكهوتسك". في حين لجأت الصحافة الأميركيّة إلى نشر هذه الفكرة بصورة غير مباشرة وذلك من خلال التأكيد على توصّل الجيش الأحمر إلى الاستنتاج من تجربة الجيش السرّي: وهي إطلاق صاروخ مضادّ للصواريخ ومخصّص لمجابهة الـ MX الأميركي، في نفس الوقت الذي كانت تحلّق فيه طائرة البوينغ داخل الأجواء السوفياتيّة. كما تحدّثوا أيضًا عن تخصّصها لمجابهة صواريخ SS-X-25 وPL-5.

وكالة الأمن الوطني NSA قامت خلال الساعة المخصّصة لهذه التجربة بنشر مؤثّر موضعي ضمن منطقة ساكالين، حيث تصطدم الحرّاقة Badger بمياه أكهوتسك،

ليحلّق فوقها RC-132، وهو تشويش عسكريّ لطائرة البوينغ ٧٠٧، في حين كان هناك القمر الصناعي العسكري Ferret-D يمرّ فوق الغلاف الجوّي. ويبدو أيضًا إشتراك الأميركيّين في هذه العمليّة من خلال المكّوك الفضائي STS-8 المتواجد هو الآخر موقّتًا فوق مياه المحيط الهادي ليتزامن مع ساعة مغادرة طائرة الـ KAL-007 طريق Romeo-20. وها هو Challenger ينفّذ أوّل عمليّة مستغلاً هذه الفرصة! وبدأت الطائرة بالإقلاع والهبوط مساء بقيادة اثنين من الملاحة البحريّة الأميركيّة.

ثمّ ما إن جاء العشرون من شهر أيلول ـ سبتمبر ١٩٨٣، حتّى كانت صحيفة البرافدا تشير في مقال مطوّل نشرته على صفحاتها إلى تفاصيل دقيقة حول المهمّة التجسّسية التي كلّفت بها طائرة الـ KAL-007، حيث ذكرت قيام طائرة البوينغ التابعة لكوريا الجنوبيّة بالانتظار مدّة ٤٠ دقيقة قبل إقلاعها من أنكوراج بهدف تواقت وتزامن تحليقها فوق بحر أكهوتسك تمامًا وبمنتهى الدقّة مع الممرّات الثلاث المتتابعة فوق نفس منطقة قمر التجسّس الصناعي الإلكتروني. وأشار بعض من الاختصاصيّين البريطانيّين إلى احتواء مقال البرافدا هذا على الكثير من التفاصيل التقنية الدقيقة حتّى تكوّن هناك، حسب قولهم، "نوع من محاولة دعائيّة".

***

أخذ خبراء الاستخبارات الأميركيّون بترويج الشائعات وتوجيه الاتّهامات إلى ريغان، وذلك خلال شهر تشرين الأوّل ـ أكتوبر ١٩٨٣، حيث توصّلوا إلى التصريح بأنّ السوفيات خدعوا وأنّهم كانوا، بلا أدنى شكّ، يعتقدون بأنّهم أمام طائرة RC-135، وقد توصّلوا إلى هذه النتيجة بعد قيامهم مرّة أخرى بتحليل جميع المعلومات المتوفّرة لديهم. ومع ذلك فقد كان هناك ما يُخدع، إذ كانت أصداء كلّ من طائرة RC-135 والبوينغ ٧٤٧ متشابهتين تمامًا. وقد بيّنت صحيفة القوّات المسلّحة السوفياتيّة من

جهتها، والمسمّاة "النجم الأحمر"، أنّ هناك ما لا يقلّ عن سبع طائرات تجسّس من طراز RC-135 تحلّق فوق المنطقة منذ يوم حدوث تلك الكارثة. إضافة إلى اعتراف الولايات المتّحدة الأميركيّة التقاء طائرة من هذا الطراز مع مدار طائرة البوينغ التي تحلّق بفارق بضع دقائق عن سابقتها، ما أدّى إلى ظهور إشارة واحدة على شاشات الرادار السوفياتيّة. ثمّ أخذت طائرة الـ RC-135 بالامتداد، بصورة مفاجئة وسريعة، أسفل حقل الرادارات السوفياتيّة

عادت طائرة الـ RC-135 مباشرة إلى قاعدتها، والحديث هنا دومًا يرجع إلى الأميركيّين أنفسهم، وهكذا لم يعد هناك أيّ مكان لمحاولة الصواريخ السوفياتيّة السريّة. ولكنّ واقع الأمر يكمن في أنّ طريقا الطائرتين تلاقت، وهذا ما كان، بالتأكيد، هو السبب في حدوث تشويش عند السوفيات.

ثمّ ها هي صحيفة الـ"دينفربوست" تنشر في الثالث عشر من أيلول ـ سبتمبر ١٩٨٣ شهادة كلّ من "إدوار إيسكيلسون" و"توم بيرد"، الضابطين السابقين في استخبارات الاتّصالات التابعة للقوى الجويّة الأميركيّة، واللذين قاما بتنفيذ العديد من المهمّات داخل المنطقة، وعلى متن الـ RC-135 بشكل خاصّ.

كانت هذه الطائرة، حسب ما ورد في أقوالهما، تقوم دومًا بتنفيذ عمليّاتها من خلال طيّارين اثنين، وذلك بهدف التوصّل إلى تأكيد المراقبة المستمرّة لتحول دون التعرّض للإرسالات الإلكترونيّة السوفياتيّة. تشمل هذه المراقبة عمليّات التسجيل وفكّ رموز الشيفرة وتقدير الزمن الحقيقيّ للإرسالات المعترضة. في حين يقوم طاقم "الصرخة الأخيرة" لطائرات الـ RC-135 بإتاحة المجال للاتّصال مباشرة مع كلّ طائرة مدنيّة (وهذا هو الحال مع طائرة الـ KAL-007) ومع واشنطن أيضًا، ومع المراقبين الجويّين السوفيات أيضًا الموجودين على الأرض، والطيّارين السوفيات المحلّقين في الجوّ.

تجزّأ هذا الرأي في مادّته بين ما يزيد عن الخبير الواحد بدءًا من "جيمس بامفورد"، الكاتب لأوّل تحقيق شامل حول وكالة الأمن الوطني NSA لم يتمّ نشره... تُرى ألم يكن صدقًا وحقيقة ما جاء في تصريحات كلّ من "إيسكيلسون" و"بيرنارد" المتوافقة مع ردّ فعل الـFBI الأميركيّة، التي قامت بتهديدهما بوجوب الكفّ عن المتابعة بهدف صيانة الدفاع السرّي وعدم إشاعته...

أمّا الطيّارون السوفيات فقد صرّحوا من جهتهم أنّ طائرة البوينغ قامت، في سبيل الهروب منهم، باستعمال التكتيك الذي تستخدمه طائرات الـ RC-135، وذلك مباشرة عند متابعة الطائرة السوفياتيّة وملاحقتها لها فوق مياه نهر أكهوتسك، وكانت التقنية المستخدمة بكلّ بساطة، تقوم على أساس نشر الطيّار ومدّه لجميع سطوح كابحات طائرته عند اكتشافه لوجود من يلاحقه، والهدف منها هو خفض سرعته لدرجة أنّ طائرته تمرّ فوق الطائرة السوفياتيّة المطارِدة.

وتؤكّد تسجيلات هذه المأساة التي سجّلها اليابانيّون على قيام طائرة كوريا الجنوبيّة فعلاً باستخدام هذه الخدعة، ويبدو أيضًا قيام قبطان الطائرة KAL-007 باستخدام خدع أخرى. لذا فقد طلب من طوكيو أثناء مروره فوقها السماح له بالارتفاع عاليًا، في حين أنّه هبط فجأة، وهو يأمل بخداع الطيّارين السوفيات الذين تنبّهوا من خلال المراقبين لهم الموجودين على سطح الأرض.

كان من المفروض، من وجهة نظر طيّار أميركيّ، أن تكون سرعة طائرة البوينغ مقاربة لسرعة الصوت، وهو عمل لا يمكن لطائرة خطوط اجتيازه على الإطلاق، باعتبار أنّه سرعة زائدة، بل وخطرة بالنسبة لطائرة البوينغ ٧٤٧.

ما أن جاء شهر أيّار - مايو ١٩٨٥، حتّى كان رئيس الحكومة اليابانيّة يعلن أمام الجميع عن المعلومات السريّة التي أكّدتها التحقيقات في طائرة البوينغ، بهدف الهروب

ممّن يلاحقونها، ويقوم أيضًا بشرح المواصفات والرسومات المزيّفة لتغيير الارتفاع والسرعة... هذا وقد برهنت الادّعاءات الحكوميّة اليابانيّة أيضًا على أنّ طائرة البوينغ لم تكن تعمل بواسطة الطيّار الأوتوماتيكي بل كان يقوم "شون بيونغ إين" بقيادتها. إضافة إلى أنّ الطائرة لم تحلّق في الطريق المستقيم، كما ادّعت إدارة ريغان، منذ إقلاعها من أنكوراج، بل إنّها قامت بتغيير خطّ سيرها من آلاسكا بإبطائها في السير باستمراريّة ٢٠ درجة. كما وقامت أيضًا من جديد، ومع وصولها إلى ساكلين بانحراف نحو الغرب، أي بالاتّجاه نحو الاتّحاد السوفياتيّ، وهو عمل واضح أنّه مخصّص لتجاوز طائرات السوخوي والميغ.

أخيرًا، جاء دور الاتّحاد السوفياتيّ ليتحدّث حول هذه القضيّة، فصرّح عن قيام المخابرات الأميركيّة CIA بتدريب الطيّار في الخطوط الجويّة الكوريّة، وبمدّها الماديّ لشركة طيران كوريا الجنوبيّة واستخدامها لطائراتها بشكل منتظم ومنذ ما يقارب العشر سنوات. وقد سبق وتمّ التأكيد على هذه المعلومة الأخيرة من خلال رؤساء التحرير في المجلّة الأميركيّة "علم الدفاع Defence Science"... والجدير ذكره أنّ هذه الأفكار السوفياتيّة لم تكن تستند إلى أيّ معلومة واقعيّة، في حين تمّ التأكيد، بالمقابل، على بعض الأقاويل المتعلّقة بالطيّارين على متن الخطوط الجويّة الكوريّة، لدرجة اتّضح فيها أخيرًا بأنّ طيّار الرحلة KAL-007 شون بيونغ إين، تفاخر باكتشافاته التجسّسيّة ضدّ الاتّحاد السوفياتيّ لدرجة تزيد عن تفاخره بعمله في شركة تابعة لكوريا الجنوبيّة... وكان هذا الطيّار يُعتبر كواحد من بين أفضل الطيّارين في كوريا الجنوبيّة، إضافة إلى أنّه كان قد قاد الطائرة الخاصّة للرئيس "شون دوو هوان" أثناء زياراته للولايات المتّحدة الأميركيّة وجنوب شرق آسيا خلال العامين ١٩٨٠ و١٩٨١.

أرملة الطيّار شون بيونغ إين، أثناء المحاكمة في الدعوى التي قدّمتها عائلات الضحايا ضدّ شركة الطيران الكوريّة، أدلت باعترافها أنّ زوجها كان خائفًا جدًّا من القيام بقيادة طائرة الرحلة KAL-007، وبأنّ الطيّارين كانوا يتلقّون ويتقاضون مكافآت خاصّة عند تحليقهم بالقرب من الحدود السوفياتيّة...

هذا وتعتبر مهمّات التجسّس التي تقوم بها الطائرات المدنيّة أشياء مشتركة بين جميع الدول الكبرى... وفي هذا المجال، نشرت المجلّة الأميركيّة Counterspy خلال شهر كانون الأوّل - ديسمبر ١٩٨٣ قائمة مطوّلة بمهمّات الاستخبارات من هذا النوع، التي قامت بتنفيذها الطائرات الأميركيّة والمخابرات الأميركيّة CIA. كما صرّح الطيّار الألماني "رودولف براونبورغ" العامل على متن الخطوط الجويّة التابعة لألمانيا الغربيّة "لوفتهانزا" عن وجود ٣٢ طائرة مدنيّة تمّ إلقاء القبض عليها أثناء تحليقها فوق الدول الاشتراكيّة منذ عام ١٩٤٧.

***

سبّبت الادّعاءات المختلفة الناجمة عن مأساة طائرة الـKAL-007 آلامًا أكثر بالنسبة للأميركيّين، باعتبار أنّها انبعثت عن المخابرات السريّة الخفيّة التي تنتظر دحض جميع هذه الادّعاءات... وهذا ما كان عليه الحال مع اليابانيّين والفرنسيّين والألمان، ولكن يأتي التخلّي الأكثر بروزًا من بين المخابرات السريّة الحليفة للولايات المتّحدة الأميركيّة، بما فيها الإنكليز أنفسهم، ثمّ جاءت مجلّة Defence Attache نصف الشهريّة لتخصّص بكلّ دقّة لاشتراكات منتخبة من قبل وزير الدفاع البريطاني، حيث يمكننا أن نقرأ على صفحات عددها الصادر خلال شهر حزيران - يونيو ١٩٨٤، مقالاً مطوّلاً يحمل الأقاويل الخاصّة بالقضيّة نفسها. وقد تمّ توقيع هذه الوثيقة باسم مستعار

هو PQ Mann Sic، ذاك الإسم الذي قد تتمكّن المخابرات البريطانيّة المتخصّصة باللعب بالكلمات الناطقة باللغة الفرنسيّة من فكّ رموز Monsieur PQ...

هذا وقد نشر في التاسع عشر من شهر كانون الثاني ـ يناير ١٩٦٤ مقالاً تحدّث عن حالة إطلاق قمر صناعيّ أميركيّ، قام بتخليل استعمال هذا القمر بكلّ دقّة وضمن عمليّتين تابعتين للاستخبارات الأميركيّة وموجّهة إلى ألمانيا الشرقيّة، في حين تمّ خلال ٢٤ كانون الثاني - يناير والعاشر من آذار - مارس من عام ١٩٦٤ نشر مقالين أحدثا صدى واسعًا تحدّثا عن محاولات الطائرات الأميركيّة التحليق فوق جمهوريّة ألمانيا الاتّحاديّة التي تمّ تدميرها جميعًا. ويشير إسم PQ Mann إلى أنّ قضيّة طائرة البوينغ التابعة لكوريا الجنوبيّة نتجت عن نفس النموذج من العمليّات، ومع اشتراك القمر الصناعي Ferret-D وطائرات من طراز RC-135 والمكّوك الفضائي STS-8 الذين وضعوا في مسار عملهم قبل ٣٦ ساعة من حدوث المأساة.

كان المكّوك الفضائي يتواجد، حسب ما ورد في الوثيقة الموقّعة باسم PQ Mann على مسافة معيّنة ولكنّها قريبة بشكل يتيح المجال أمامها للقيام بدور القيادة والمراقبة والاتّصال في حال حدوث العمليّة جوًّا وبحرًا وأرضًا وفضاءً... وقد لاحظ كاتب المقال أخيرًا عدم جهوزيّة القائمة الكاملة التي تحمل أسماء المسافرين على متن رحلة الـKAL-007.

ترى، هل كان هناك على متن الطائرة أفراد يراد إخفاء سرّ وجودهم؟ ولكن ما أورده PQ Mann هو أنّ مهمّة الاستخبارات التابعة لطائرة KAL-007 تمّ تقريرها من قبل مدير الأمن الوطنيّ NSC وليام كلارك، ولكن ها هو كلارك ينقل من مكانه بعد مرور ستّة أسابيع على هذه الحادثة، إضافة إلى تسريح العسكريّين الأميركيّين الذين كانوا يموّلون برنامج المكّوك الفضائي.

تابعت شركة الخطوط الجويّة الكوريّة أعداد مجلّة Deffence Attache وذلك بعد نشرها للمقال السابق، وتمّ ترتيب القضيّة وديًا وبالتراضي، وذلك عند موافقة المجلّة على التصريح بأنّ الطائرة KAL-007 لم تنفّذ أيّ مهمّة تجسّسيّة. ولكن لم يُحدث هذا الترتيب أيّ اتّفاق في الرأي... ذاك الترتيب المخصّص لتجنّب متابعات طويلة الأمد ومكلفة الثمن بخلاف وجود مجلّة لها مصادر محدّدة... إذ لم تتردّد كلّ من صحيفة "مانشستر" اليوميّة الـ"غارديان" وشبكة التلفزة البريطانيّة "تامز" اللتين أخذتا أقاويل المجلّة بعين الاعتبار، في مجابهة الخطوط الجويّة الكوريّة أمام محاكم صاحبة الجلالة. في حين يذكر أحد رؤساء تحرير مجلّة "علم الدفاع" ويدعى "إرنست فولكمان" أنّه تمّ وضع جميع الإلكترونيّات في الاتّحاد السوفياتيّ قيد العمل، مباشرة مع دخول طائرة الـKAL-007 الأجواء السوفياتيّة، وشرح الصحافيّ مفسّرًا: "لقد حظيت إستخبارات الولايات المتّحدة الأميركيّة على الجزء الأكبر ممّا لم يقل حتّى الآن"... كما ووافق الجنرال في القوّات الجويّة الأميركيّة US Air Force "تشارلز غابرييل" على الرأي نفسه. إذ كانت قيمة الاستخبارات حول الاتّصالات السوفياتيّة، بالنسبة له، جاءت من عدم التقدير لطائرة KAL-007.

هذا وهناك عدد لا بأس به من الخبراء الذين يقدّرون اليوم تمكّن مدير مجلس الأمن الوطني آنذاك "وليام كلارك" من اقتراح مهمّة التدخّل في الأجواء السوفياتيّة من خلال "مجموعة تخطيط الأمن الوطني" التي ترأّسها هو أيضًا. وبذلك يجد الباحث نفسه، في حال كون هذا السيناريو صحيحًا، له الحقّ بالمطالبة والسؤال حول دور "وليم كيسي" العضو أيضًا في هذه المجموعة. إذ كان كيسي يشغل آنذاك منصب مدير الـ CIA الأميركيّة، وهو في حقيقة الأمر يُعتبر صديقًا حميمًا لنظام كوريا الجنوبيّة، ولم يكن هناك أيّ إنسان في واشنطن يعتقد أنّ بإمكان كيسي استخدام علاقته الحميمة

هذه ليضع من خلالها شركة خطوط الطيران الكوريّة وطائراتها وطيّاريها تحت تصرّف "وليام كلارك".

ولكن ترى لمَ اتّخذ الأميركيّون مثل هذا الاحتياط الحذر؟ إنّ الجواب على هذا التساؤل بسيط. إذ كانت إمكانيّة تدخّل أو إضعاف أنظمة الدفاع الإلكترونيّة للعدوّ تقرّر خلال فترة الحرب النوويّة أثناء المعركة نفسها... كما وأنّ الحصول على أيّ قدرة هو ثمن لا يقدّر في نظر العسكريّين مهما كانت جنسيّتهم سوفيات أم أميركيّين.

إلاّ أنّ هناك افتراض آخر يُطرح للإجابة على التساؤل السابق، حيث تلقّت الاستخبارات الأميركيّة، قبل خمسة أسابيع من حدوث هذه الكارثة، إشارات خاصّة إلى وجود رادار سوفياتي جديد في "كراسنويارسك" بمنطقة سيبيريا، ولكنّه يتوضّع على مسافة كافية من شاطئ المحيط الهادي. تُرى هل كان هذا يدلّ على وجود نظام دفاع جديد مضادّ للصواريخ مخالف لاتّفاقيات SALT؟ كان من المفروض بالتأكيد التزوّد بمعلومات أكثر، وذلك لأسباب استراتيجيّة من جهة، ولأخرى خاصّة بالسياسة الداخليّة، حيث أثبتت البراهين على قيام الاتّحاد السوفياتي بخدعة عسكريّة قد يكون هدفها مساعدة إدارة ريغان في التصويت على ميزانيّة عسكريّة من خلال زيادة مذهلة. ولكنّنا نصل إلى نتيجة مفادها ربّما أنّ الهدف من كلّ هذه العمليّة كان "إحراق" الرادار الجديد من خلال إرسال طائرة مدنيّة تخترق الأجواء السوفياتيّة إذ ترى من سيجرؤ أبدًا على مهاجمة طائرة مدنيّة تحمل على متنها ما يزيد عن مائتي راكب.

كانت هذه الخطّة خطيرة منذ بدايتها. إذ كان بإمكان السوفيات أن يهاجموا طائرة الـ ٧٤٧ المدنيّة على اعتبار أنّها طائرة RC-135 العسكريّة، وأن يقرّوا أنّها كانت هدفًا شرعيًّا يمكنهم مهاجمته بعد إطلاق عدّة أهداف عليه. ولكن كان القبطان شون بيونغ إين قد نجح في مجابهة الطائرة السوفياتيّة التي تلاحقه على مدى خمس ساعات، مع

معرفته وعلمه تمامًا أنّه يكفيه فقط بضع عشرات من الدقائق الإضافيّة ليعود ويدخل من جديد إلى الأجواء الدوليّة. تُرى، ألم يعتمد هو أيضًا على أنّ السوفيات لن يتجرّؤوا على إطلاق النار عندما يلاحظون أنّ الطائرة مدنيّة ومن طراز بوينغ ٧٤٧؟

ما زالت الافتراضات الكثيرة قائمة ولكن دون تأكيد وإثبات[١].

١ ـ فابريسيو وأوليفر، التاريخ الأسود للاستخبارات السريّة؛ Hersh Seymour, The Target is Distroyed (New York,1986)

الـ KGB في جنوب أفريقيا

يجري التجسّس في جميع دول العالم على أعلى المستويات وأدناها، وقد كانت دولة جنوب أفريقيا العنصريّة قبل تسلّم نلسون مانديلاّ الحكم دولة غنيّة بالأعمال الجاسوسيّة الهامّة. ومن تلك الأعمال الواقعة التي نحن بصددها.

في شهر كانون الأوّل ـ ديسمبر ١٩٨٨، ألقت مخابرات جنوب أفريقيا العنصريّة القبض على المقدّم "ديتر غيرهارد"، قائد قاعدة "سايمونز تاون" الضخمة في جنوب أفريقيا، ووجّهت إليه تهمة التجسّس لحساب المخابرات السوفياتيّة KGB. وجرى معه، على مدى عشرة أشهر كاملة، تحقيق دقيق، اشترك فيه رجال المخابرات الأميركيّة والبريطانيّة. وتكشّفت عن ذلك التحقيق عمليّات "أخطر جاسوس منذ كيم فيلبي" في بريطانيا، كما جاء في الصحف الغربيّة.

والأهمّ من ذلك، أنّ فضيحة التجسّس كشفت عن مدى التعاون العسكري السرّي بين الولايات المتّحدة وبريطانيا مع جنوب أفريقيا، والمركز الهام الذي تحتلّه قاعدة سايمونز تاون في استراتيجيّة الغرب الحربيّة.

فبالإضافة إلى قيامها بدور مركز عمليّات وتموين وصيانة لقوّة الغرب البحريّة في جنوب الأطلسي وغرب المحيط الهندي، تقوم قاعدة الاتّصالات التابعة لها، قاعدة "سيلفر ماين"، بالتنصّت على كلّ ما يدور في هذا القطاع الجنوبي عن طريق أقمار التجسّس الصناعيّة التي ترسل إشاراتها إلى القاعدة مباشرة.

بدأ اتّصال غيرهارد بالسوفيات عام ١٩٦٤، وكان في بريطانيا يتلقّى تدريبات خاصّة على أسلحة البحريّة الحديثة في بليموث، القاعدة البحريّة الضخمة، ودلّ التحقيق على أنّه استقلّ القطار إلى لندن، خلال إحدى عطلات نهاية الأسبوع، وتوجّه إلى السفارة السوفياتيّة حيث "قدّم خدماته"، ومنذ ذلك اليوم حتّى تاريخ القبض عليه، كان غيرهارد يمدّ السوفيات بتقارير منتظمة، عن طريق حلقات اتّصال في لندن وميونيخ وستوكهولم وفيينّا.

وخلال حرب جزر الفوكلاند، كان اتّصاله بالسوفيات يتمّ يوميًّا ليعطيهم تقارير عن كافّة تحرّكات القطع البحريّة البريطانيّة وخاصّة الغوّاصات النوويّة.

وتقول دوائر واشنطن أنّ أكبر ضربة تمكّن غيرهارد من إنجازها في عمليّات تجسّسه، كانت إعطاء السوفيات التفاصيل التقنيّة الكاملة لصاروخ "إكسوسيت" الفرنسي. كان هذا في منتصف السبعينات عند تولّي غيرهارد منصب رئيس قسم الإمدادات والمهمّات في وزارة الدفاع في جنوب أفريقيا. وتقدّمت فرنسا بعرض بيع الإكسوسيت لها، واطّلع غيرهارد على المواصفات السريّة والدقيقة الهامّة للصاروخ وكفاءته الميدانيّة، مع طرق تركيبه على القطع البحريّة والطائرات الهجوميّة، وأرسلها فورًا إلى المخابرات السوفياتيّة، ثمّ أوصى حكومته بعد ذلك بشراء هذا الصاروخ لأنّه سيكون "سلاح المستقبل".

بالإضافة إلى صاروخ الإكسوسيت، فإنّ الجاسوس غيرهارد، أمدّ المخابرات السوفياتيّة بالمعلومات التقنيّة السريّة لمجموعة صواريخ "سيكات" البريطانيّة التي يتزوّد بها نفس الأسطول البحري الملكي البريطاني، وأجهزة اكتشاف الغوّاصات وهي في الأعماق، وهي أجهزة "سونار" الإلكترونيّة التي تتحكّم في مدفعيّة القطع البحريّة، ومواصفات الطوربيدات الموجّهة بالرادار والتلفزيون، وخطط حلف شمال الأطلسي

العسكريّة المعدّة للاستخدام في هذه المنظّمة لدى نشوب أيّ حرب محتملة، والتي زوّدت بها جنوب أفريقيا على أساس أنّها "عضو خفيّ مشارك في الحلف".

كلّ هذه المعلومات الهامّة البالغة الخطورة وذات القدر الكبير من الأهميّة الاستراتيجيّة، والتي ليست لمجرّد تطوير أسلحة متشابهة، بل تتضمّن المعلومات المعدّة لابتكار أسلحة مضادّة لها.

الذي أغرى المخابرات السوفياتيّة بتجنيد غيرهارد لصالحها منذ عام ١٩٦٤، هو النجاح الذي جعله بحكم عمله كضابط في القوّات البحريّة لجنوب أفريقيا يقدم هذه الكميّة الخطيرة من المعلومات إليهم على طبق من فضّة. وفي هذه الحالة يكرّم الضابط أو الموظّف الذي اكتشف الجاسوس المفيد مثل غيرهارد وقدّمه لرئيسه المباشر بعد أن توسّم فيه التعاون معهم، لقاء شيء يقرّر بدء العمل الجاسوسيّ... ومن المحتمل أن تقدّم المخابرات، أيّ مخابرات في العالم، إلى مثل هذا العميل الجديد مبلغًا من المال حسب علم من قدّمه للعمل معهم بحالته الماديّة، وذلك تشجيعًا له. وإنّ بعض المخابرات يمتنع عن الدفع للعميل أو حتّى المخبر الذي من الممكن أن يفيدها، يومًا ما، في المستقبل... وبعضها يشترط على العميل أو المخبر "بقدر ما تحضر لنا من المعلومات بقدر ما ندفع لك"...

في حادثة واحدة استمرّت المخابرات الأميركيّة في بيروت بدفع راتب شهري قدره ٥٠٠ دولار لأحد العملاء ولمدّة أربعة عشر عامًا بدون كلل، إلى أن طلبوا منه تنفيذ مهمّة لصالحهم، وقد استغرق تنفيذ هذه المهمّة ١٥ دقيقة فقط... مقابل ٨٤ ألف دولار دفعت له خلال هذه السنين الطويلة...

إذا عدنا إلى العميل غيرهارد، نجد أنّ أهميّته تضاعفت لدى المخابرات السوفياتيّة عندما تولّى قيادة قاعدة سايمونز تاون، فهذه المخابرات كانت تعلم جيّدًا أنّ هذه القاعدة

تخدم أساسًا القوّة البحريّة العسكريّة الأميركيّة والبريطانيّة، على الرغم من مقاطعة بريطانيا وأميركا لجنوب أفريقيا المزعومة أمام المجتمع الدولي... أمّا استخدام سلطات جنوب أفريقيا، بريتوريا، للقاعدة، فيأتي بالمقام الثاني. لذلك ركّزت المخابرات السوفياتيّة على هذه القاعدة، لكنّ وجود جاسوس واحد على الأرض، وخصوصًا إذا أصبح هذا الجاسوس مديرًا لهذه القاعدة، هو أحسن وخير من عشرة أقمار تجسّسيّة تطير على ارتفاع آلاف الأمتار...

أغدقت المخابرات السوفياتيّة على عميلها مدير القاعدة البحريّة العطاء وأمدّته بكلّ ما يحتاج إليه في عمله التجسّسي من أجهزة وآلات إلكترونيّة لمواصلة عمليّاته الجاسوسيّة ضدّ بلده جنوب أفريقيا.

إستمرّ غيرهارد في تأمين المعلومات الطازجة التي تحبّها المخابرات السوفياتيّة من مركز عمله كمدير للقاعدة، ولم ينكشف أمره لأنّه لم يرتكب أيّ خطأ مهني، فلا هو يشرب الخمر لدرجة فقدان العقل، ولا هو وقع في الحبّ الذي يدمّر حياة الجاسوس... إلاّ أنّ سنّة الحياة في عمل المخابرات، مهما بلغت الدقّة والرعاية والتكريم لعناصر المخابرات في العالم، فهناك من يخطّط من بين آلاف العناصر للهروب للطرف الآخر، ولأيّ سبب: المال، الجنس، العقيدة، الظلم الطارئ... لذلك لم ينكشف العميل غيرهارد لأسباب روتينيّة... ولكنّه كُشف لدى لجوء أحد رجال نفس المخابرات السوفياتيّة إلى السفارة الأميركيّة في ستوكهولم. وبعد قبول لجوئه السياسيّ واستقباله بالترحاب نظرًا لأنّ عمليّة هروب موظّف من المخابرات السوفياتيّة أو المخابرات الشرقيّة لم تكن تحدث إلاّ نادرًا... وبعد التحقيق معه واستجوابه حسب الأصول عن معلوماته، أفشى بأسماء بعض عملاء المخابرات السوفياتيّة في العالم الغربي وجاء بينهم إسم "ديتر غيرهارد".

وضعت المخـابرات الأميركيّـة إسم دينيز غيرهـارد علـى لائحـة المطلـوب إلقـاء القبض عليهم من قبل المخابرات بالذات، وفرضت رقابة شديدة من بعيد عليه، وبقيت تنتظر الفرصة المناسبة للقبض عليه خارج جنوب أفريقيا. وقـد لعبت الصدفـة دورها وساعدت المخابرات الأميركيّة في إلقاء القبض على الجاسوس غيرهارد. فقد أرسلته جنوب أفريقيا إلى الولايات المتّحدة، التي لم تكن مخابراتها قد أعلمـت سلطات جنـوب أفريقيا بشيء ممّا علمته عن الجاسوس غيرهارد بل احتفظت لنفسها بالمعلومـات التـي وصلتها من المنشقّ السوفياتي.

كان إرسال غيرهارد إلى الولايات المتّحدة بهدف تلقّيه دراسة متخصّصة عليا فـي الرياضيّات البحتة الضروريّة للإلمام بعمل العقول الإلكترونيّة الجديدة التـي أمدّت بها واشنطن جنوب أفريقيا بصورة خاصّـة لقـاعدة سـايمونز تـاون التـي يديرهـا غيرهـارد بالذات.

توجّـه غيرهـارد إلـى الولايـات المتّحـدة فقـالت لـه المخـابرات الأميركيّـة "أهـلاً وسهلاً"... بدون أن يراها... وبدأ دراسته العليا في الرياضيّات في جامعة "سيراكيوز"، بينما حجز لنفسه غرفة في فندق "هوليداي إن" باعتباره صاحب مرتبة وظيفيّة جيّدة في بلده أوّلاً، وثانيًا فإنّ كلّ موفد للدراسـة أو للتخصّص علـى حسـاب دولتـه تصـرف لـه مكافآت سخيّة جدًّا من دولته، وأغلب الضبّاط وموظّفـي الدرجـات الممتـازة فـي جميـع دول العالم يتمنّون وينتظرون بفـارغ الصـبر إيفـادهم خـارج بلادهم للتخصّص لأنّهم بذلك يحصلـون علـى مبـالغ كبيرة بـالدولار، ويستطيعون لـدى عودتهم جلب هدايـا وأجهزة كهربائيّة وسجّاد ومختلف الأواني الفخمة التـي تجـري مسـاعدتهم فـي إدخالها إلى بلادهم بدون جمارك... ثالثًا: وهو الأهم في حالة غيرهارد، هو وجود من يقدّم لـه آلاف الدولارات أثناء سفره، وهي المخابرات السوفياتيّة...

أثناء تناوله القهوة في نادي الجامعة، تعرّف على المدعو "ديفيد سيلر" باعتباره زميلاً له في هذه الجامعة، ولي من المخابرات الأميركيّة ومدسوسًا عليه ليمثّل دور الطالب الجامعيّ مع تزويده من إدارة الجامعة ببطاقة جامعيّة، بموجب طلب رسميّ من المخابرات الأميركيّة، وتوطّدت الصداقة بينهما فوجد غيرهارد لدى زميله ميولاً شيوعيّة... وقد كان ذلك الطعم الذي وضع للنيل منه... فدعاه لزيارته في فندق الهوليداي إنّ في الشارع التاسع ليتناول معه الكوكتيل، ولم يكن غيرهارد يدري بطبيعة الحال أنّ هذا الزميل هو من رجال الـ CIA. وأثناء تناول الويسكي، احتفلا بزيارة هذا الزميل الرفيق... الذي جعله يكشف بالتحدّث، عبر الميكروفونات المزروعة هنا وهناك، عن ولائه للاتّحاد السوفياتي وخدمته للاستخبارات السوفياتيّة بدون حدود، وعند هذا الاعتراف الصريح، داهمت الغرفة عناصر من المخابرات الأميركيّة وبصحبتهم مندوب من المخابرات البريطانيّة المشاركة في العمليّة، وتمّ اعتقال الإثنين، ولم يعامل عميل المخابرات الأميركيّة المدسوس الذي أوقع بغيرهارد معاملة خاصّة، بل قام موظّف من المخابرات الأميركيّة بنهره ودفعه بقسوة للسير معهم، وهو مقيّد اليدين، ممّا جعل غيرهارد يحزن عليه، وهو يعتقد في قرارة نفسه أنّه هو، أي غيرهارد، الذي ورّطه وأوصله لهذا المصير، بينما العكس هو الصحيح.

نُقل غيرهارد إلى واشنطن العاصمة على متن طائرة خاصّة تابعة لأسطول طائرات المخابرات الأميركيّة الجوّي. واستمرّ التحقيق معه واستجوابه أحد عشر يومًا. وبعد الحصول على اعترافه كاملاً، جرى تسليمه إلى بلده، جنوب أفريقيا، حيث أعلن رئيس الوزراء بنفسه إلقاء القبض على غيرهارد وزوجته، التي اتّضح أنّها كانت تساعده في عمليّة التجسّس بدون أن يُكشف عن تعاونها للنهاية. وقد قُدّم الزوجان إلى المحكمة العليا في بريتوريا بتهمة "الخيانة العظمى"، وجرى الحكم عليهما بالإعدام

حسب قوانين جنوب أفيقيا. ولكن بقي الزوجان في السجن المركزي حتّى اختفت آثارهما نهائيًّا، حيث من المعتقد أنّه إذا قامت سلطات جنوب أفريقيا بإعدام الزوجين غيرهارد خفية عن الإعلام، فلا تستطيع الامتناع عن تسليم جثّتيهما للأهل إذا كان لهما أهل وعائلة، أو أن تكون تمّت مبادلتهما مع جواسيس معتقلين لدى المخابرات السوفياتيّة حسب الأعراف المتّبعة[1].

---

١ ـ الجزائري سعيد، المخابرات والعالم، دار الجيل (بيروت،١٩٩٧) ٥: ٤٨٥ ـ ٤٩٢.

الاستخبَاراتُ الروسيَّة ضَالعَة في تَفجيرَات ١٩٩٩؟

أوردت وكالات الأنباء في ٣٠ كانون الأوّل ـ ديسمبر ٢٠٠٣ أنّ الشرطة الروسيّة وجهاز الأمن الفدرالي (الـ KGB سابقًا)، نشرا نسخًا كثيرة من كتاب يتّهم هذه الأجهزة بالضلوع في تفجيرات سنة ١٩٩٩ القاتلة التي دفعت السلطات الروسيّة إلى شنّ الحرب الحاليّة في جمهوريّة الشيشان الانفصاليّة، على ما أفاد مسؤول عن بيع هذه الكتب. وذكر "ألكسندر بودرابينيك" من وكالة "بريما" للأنباء في وقت متأخّر من الإثنين ٢٩ كانون الأوّل ـ ديسمبر ٢٠٠٣ أنّه تمّت مصادرة حوالى ٤,٤٠٠ نسخة من كتاب "أجهزة الاستخبارات السريّة فجّرت روسيّا" الذي ألّفه رجل الاستخبارات السابق "ألكسندر ليتفينينكوف" المقيم حاليًّا في منفاه في بريطانيا. وكانت تلك النسخ في طريقها من مدينة "بسكوف" غرب روسيا إلى العاصمة موسكو.

كانت وكالة بريما طلبت الكتب التي طبعت في "لاتفيا" لبيعها في روسيا. وفي الكتاب يتّهم الكولونيل السابق ليتفينينكوف أجهزة الاستخبارات بالضلوع في تفجيرات ٩ و١٣ أيلول ـ سبتمبر ١٩٩٩ التي أدّت إلى تدمير مبنَيَين في موسكو ومقتل أكثر من ٢٠٠ شخص. وقد نفت الأجهزة السريّة أيّ ضلوع لها في تلك التفجيرات. كما قُتل نحو ٢٠٠ شخص في أربع انفجارات وقعت في روسيا في منتصف عام ١٩٩٩، ما أدّى إلى شنّ الحرب الحاليّة على الشيشان.

أثارت الحرب الروسيّة على الشيشان موجة من الشعور القوميّ في روسيا أدّت إلى فوز "فلاديمير بوتين" الذي كان رئيسًا للوزراء، بمنصب الرئاسة بعد حوالى ستّة

أشهر. وحصل ليتفينينكوف على اللجوء السياسيّ في بريطانيا بعدما كشف النقاب عن مؤامرة وضعتها أجهزة الاستخبارات لاغتيال رجل الأعمال "بوريس بيرزوفسكي" الذي أيّد نظريّة وجود مؤامرة وراء التفجيرات. وصدر حكم غيابيّ في روسيا في خلال شهر تشرين الثاني ـ نوفمبر ٢٠٠٣ بالسجن مدّة ثلاث سنوات ونصف السنة مع وقف التنفيذ بتهمة إساءة استخدام سلطته[١].

الاستخبَاراتُ الروسيَّة تنفي تورُّطَها بمقتل يندربَاييف

نفت أجهزة الاستخبارات الروسيّة SVR أيّ تورّط لها في الاعتداء الذي أسفر عن مقتل الرئيس الشيشاني السابق "خان يندرباييف" في الدوحة بقطر في الثالث عشر من شباط ــ فبراير ٢٠٠٤. وأعلن رئيس الجهاز الجنرال "بوريس لابوسوف" أنّه "لم يتورّط لا جهاز SVR ولا سلفه KGB السوفياتيّ في هذا النوع من العمليّات منذ سنة ١٩٥٩ عندما قُتل "بوغدان ستاشينسكي"، الزعيم القومي الأوكراني، "ستيبان بانديرا" في ألمانيا".

وقُتل الرئيس الشيشانيّ السابق سليم خان يندرباييف، أحد القادة الشيشان الأكثر تشدّدًا والذي كان رئيس الجمهوريّة الشيشانيّة بالوكالة بعد وفاة الرئيس السابق "جوهر دوداييف" في اعتداء بالقنبلة استهدف سيّارته في الدوحة.

وكتبت صحيفة "غازيتا" على موقعها الإلكتروني بعد الاعتداء "أنّ وجوده في قطر كان يثير غضب السلطات الروسيّة التي كانت تطارده منذ أن غادر الشيشان بعد الهجوم على داغستان" الجمهوريّة المجاورة في ١٩٩٩.

---

١ ـ أ.ف.ب.، ٣٠ كانون الأوّل ـ ديسمبر ٢٠٠٣.

وقال شاهد عيان أنّ الإنفجار وقع في حيّ "الدفنة" السكنيّ قرابة الساعة ١٣ بالتوقيت المحلّي، وقد تفحّمت سيّارة يندربابيف كليًّا.

وفي بيان نشرته وكالة الأنباء القطريّة أفاد مصدر في وزارة الداخليّة القطريّة أنّ يندربابيف الذي كان يقيم "بصفة موقّتة" في قطر، قُتل "عندما تعرّضت السيّارة التي كان يستقلّها لانفجار أدّى إلى وفاته وإصابة ابنه البالغ من العمر ١٣ عامًا والذي نُقل إلى المستشفى".

وأضاف البيان أنّهما خرجا من المسجد في الدوحة بعد أداء صلاة الجمعة وأنّ وزارة الداخليّة باشرت التحقيقات فور وقوع الحادث.

وتتّهم السلطات الروسيّة يندربابيف بأنّه أحد منظّمي عمليّة احتجاز الرهائن في مسرح في موسكو في تشرين الأول ـ أكتوبر ٢٠٠٢، مؤكّدة على أنّه كان يجري اتّصالات هاتفيّة بمجموعة الخاطفين.

إلى ذلك، أعلن الجنرال الروسيّ "رسلان أوشيف" يوم ١٣ شباط ـ فبراير ٢٠٠٤ أيضًا، في الذكرى الخامسة عشرة لانسحاب القوّات السوفياتيّة من أفغانستان أنّ روسيا تواجه في الشيشان حرب أنصار مشابهة لتلك التي واجهها الاتّحاد السوفياتيّ في أفغانستان. وقال الجنرال الحائز ميداليّة أبطال الاتّحاد السوفياتيّ في حديث لصحيفة "نيزافيسيمايا غازيتا" إنّ "الحربين متشابهتان... نقاتل هنا كما قاتلنا هناك أنصارًا من النوع ذاته... لذلك الحربان الأفغانيّة والشيشانيّة متشابهتان من وجهة نظر عسكريّة وأخلاقيّة"[1].

---

١ ـ أ.ف.ب.، رويترز، ١٣ شباط ـ فبراير ٢٠٠٤.

في روسيَا المعَاصرَة

بعد سقوط النظام في الاتّحاد السوفياتيّ، جرت عمليّات إصلاح وتطهير كبرى داخل الأجهزة الأمنيّة، فتمّ طرد العديد من أصحاب الخبرات والكفاءات الذين كانوا ينتمون لجهاز الـ KGB الذين تحوّلوا إلى أصحاب مشاريع ومستشارين لشركات الأمن الخاصّة والشركات الاستثماريّة الأجنبيّة في روسيا، تلك الشركات التي تحتاج للحماية وجمع المعلومات الاقتصاديّة وأساليب التأمين المختلفة للتصدّي لاعتداءات المافيا.

ما زال الروس يملكون ثلاث وسائل للإشراف على الأجهزة الأمنيّة التي تدور في فلكهم، هي: ١ ـ أجهزة الأمن للأحزاب الشيوعية العالميّة؛ ٢ ـ بعثات الارتباط في مكاتب الأجهزة الصديقة؛ ٣ ـ المستشارون السوفيات.

وقد تمّ إنشاء "مجلس للأمن" يخول له القانون مراقبة عمل الأجهزة الأمنيّة وأجهزة أمن الوزارات، ويساعد رئاسة الدولة على حل مسائل الأمن القوميّ، ويقدّم تقاريره لرئيس الدولة... ويعتبر مجلس الأمن بمثابة مكتب سياسيّ يتّخذ أكثر القرارات الخطيرة في الدولة.

في روسيا المعاصرة، يصرّح مسؤولو الأجهزة الأمنيّة بأنّه ليست لديهم رغبة في تغيير العالم، بل في مراقبته. وبأنّهم يعتقدون بعدم وجود عدوّ دائم أو حليف دائم، بل هناك عالم متغيّر ومستويات مختلفة من الخصوم، ومصالح يجب الحفاظ عليها[١].

---

١ ـ صالح محمود عابدين، المخابرات والأمن والجاسوسيّة، ص٢٢٥ ـ ٢٢٦.

لائحة المراجع

أندرو كرستوفر، غورديسكي أوليغ، الاستخبارات السوفياتيّة في العالم ١٩١٧ ـ ١٩٩١، ترجمة هنادي السمرا، رينا شربل، نادر عسران، دار الحقيقة، (بيروت،١٩٩١)

جريدة "المحرّر العربيّ".

الجزائري سعيد، المخابرات والعالم، دار الجيل (بيروت،١٩٩٧)

الجزائري سعيد، ملفّ التسعينات عن المخابرات، دار الجيل (بيروت، ١٩٩٧)

زهر الدين د صالح، ملف الاستخبارات السوفياتيّة، المركز الثقافي اللبناني (بيروت،٢٠٠٣)

زهر الدين د. صالح، عمليّات وقرصنة إلكترونيّة، المركز الثقافي اللبناني (بيروت،٢٠٠٣)

صالح محمود عابدين، المخابرات والأمن والجاسوسيّة، مكتبة مدبولي (القاهرة،٢٠٠٣)

فولكمان إرنست، الجواسيس عملاء سريّون غيّروا مجرى التاريخ (مكتبة مدبولي،١٩٩٩)

كالفي فابريسيو وشميدت أوليفر، تعريب ريمة الفوّال، التاريخ الأسود للاستخبارات السريّة دار الجيل (بيروت١٩٩٨)

هاتون برنار، مدرسة الجواسيس، ترجمة غسّان درويش، المؤسّسة الوطنيّة للنشر (بيروت،١٩٦٣)

وكالة أ.ف.ب.

وكالة رويترز

وود جان، جواسيس للبيع، ترجمة لطيف الناصر، دار الحسام (بيروت،١٩٩٠)

Ascherson Neil, *The Struggle for Poland*, Michael Joseph (London,1987)

Ball & Windern, Soviet Signals Intelligence: Organisation and Management, Intelligence and National Security, vol, V (1990)

Baron John, *KGB The Secret Work of Soviet Secret Agents* (New York,1974)

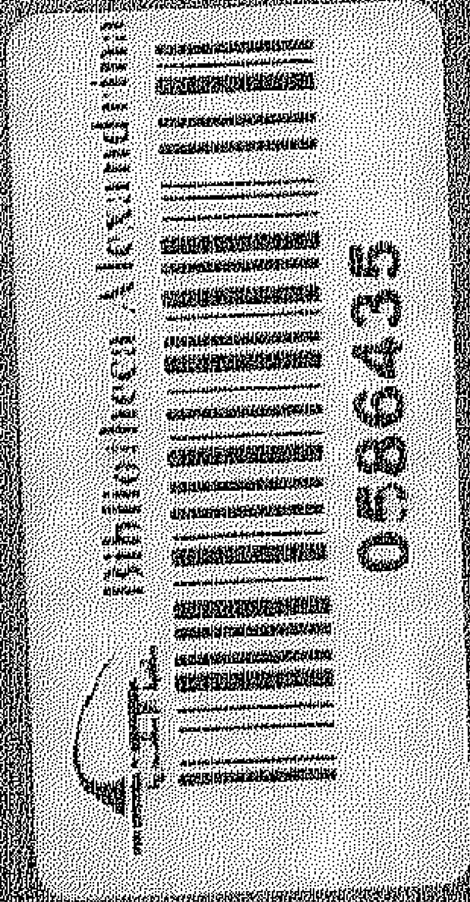
Barron John, *KGB Today The Hidden Hand* (New York,1983)

Hanson Philip, *Soviet Industrial Espionage: Some New information,* (London, 1987)

Hersh Seymour, *The Target is Distroyed* (New York,1986)

الفهرس

الموضوع	الصفحة


Bibliotheca Alexandrina
0586435